وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

نهاية الاحتلال الروماني ببلاد المغرب القديم
نهاية القرن 04 ميلادي

The end of Roman colonization in the ancient Maghreb at the end of the 4th century AD

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ القديم

إعداد الطالب الباحث
حشلاف محمد

إشراف أ/د
آيت عمارة ويزة

أعضاء اللجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	المؤسسة	الصفة
دريسي سليم	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيسا
آيت عمارة ويزة	أستاذة التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مشرفا ومقررا
يفصح نادية	أستاذة محاضرة	جامعة الجزائر 2	مناقشا
رميلي مصطفى	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر 2	مناقشا
سحير نصيرة	أستاذة محاضرة	المدرسة العليا للأساتذة	مناقشا
إيخيربان محند آكلي	أستاذ محاضر	جامعة مولود معمري	مناقشا

السنة الجامعية: 1442– 1443هـ/ 2021– 2022م

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

نهاية الاحتلال الروماني ببلاد المغرب القديم
نهاية القرن 04 ميلادي

The end of Roman colonization in the ancient Maghreb at the end of the 4th century AD

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ القديم

إعداد الطالب الباحث
حشلاف محمد

إشراف أ/د
آيت عمارة ويزة

أعضاء اللجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	المؤسسة	الصفة
دريسي سليم	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيسا
آيت عمارة ويزة	أستاذة التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مشرفا ومقررا
يفصح نادية	أستاذة محاضرة	جامعة الجزائر 2	مناقشا
رميلي مصطفى	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر 2	مناقشا
سحير نصيرة	أستاذة محاضرة	المدرسة العليا للأساتذة	مناقشا
إيخيربان محند آكلي	أستاذ محاضر	جامعة مولود معمري	مناقشا

السنة الجامعية: 1442– 1443هـ/ 2021– 2022م

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Algiers 2 Abou Elkacem Saad Allah

faculty of Humanities and Social Sciences

Department of History

The end of Roman colonization in the ancient Maghreb at the end of the 4th century AD

PhD thesis submitted to obtain a doctorate degree - sciences - in ancient history

Prepared by the student researcher
HacheleF Mohamed

supervising Pr
Ait Amara Ouiza

Discussion Committee Members

Name	Academic degree	Institution	capacity
Drici Salim	Professor HE	University of Algiers 2	president
Ait Amara Ouiza	Professor HE	University of Algiers 2	Supervisor and Rapporteur
Yefsah Nadia	lecturer	University of Algiers 2	discussant
Remili Mustapha	lecturer	University of Algiers 2	discussant
Sehir Nacira	lecturer	High school teachers	discussant
Ikhrbane Mohand Akli	lecturer	Mouloud Maamari Univ	discussant

University year: 1442 - 1443 AH / 2021 - 2022 AD

شكر وإهداء

إمتثالا لقول سيدنا النبي –صلى الله عليه وسلم– :" لا يشكر الله من لا يشكر الناس"، ولما كان شكر ذوي الفضل من الناس حقا واجب الاداء، كان علينا أن نتقدم في البداية بخالص الشكر وعظيم الامتنان الى استاذتي الفاضلة أ.د/ ويزة ايت عمارة، لانها تفضلت بقبول الاشراف على عملي، واسداءها للنصح والتوجيه، حتى تم على النحو الذي هو عليه، وكانت معاملتها طيبة وراقية طول مدة انجاز البحث تجلت فيها رفعة العالم المرشد، فأسأل المولى عزوجل أن يتولاها بحفضه، ويبارك في علمها وعملها، ويجزيها عني خير الجزاء.

كما وأتقدم بجزيل الشكر لكل من ساندني في إتمام هذه الرسالة من خلال إبدائه الرأي والنصيحة، واستنهاض همتي وتقوية عزيمتي، وحضي على العمل لاتمامه.

والشكر موصول الى كل من علمني وكان له الفضل في بلوغي هذا المستوى، من معلمين واساتذة في جميع الاطوار.

وأشكر شكر المقر بالفضل، الحافظ للجميل، الى عضوية لجنة المناقشة، لما تكبدوه من معناة التنقل وتصفح عملي، واصدائهم للتصويبات التي لا شك انها نافعة، وتصحيح ما قد زلت بها انمالي، وغفل عنها بصري دون نية أو قصد.

كما اهدي ثمرة جهدي المتواضع هذا الى الذين تربيت في ظلهم وفي كنف دفء حبهم ورعايتهم والداي الحبيبين رحمات ربي، وعظيم مغفرته عليهما، ثم جميع اقاربي، والى كل صديق صدوق، اليهم جميعا اهدي ثمرة جهدي هذا.

ـ قائمة المختصرات ـ

Ant.fr : Antiquité Africaine.

Ant. Clas : Antiquités Classiques.

A.R : Africa Romana.

A.I.E.A : Association of International Education Administrators.

B.A : Bulletin Archéologique.

B.A.G.B : Bulletin de l'association Guillaume Budé.

B.E.Ch : Bibliothèque de l'école des Chartes.

B.S.G : Bulletin de la société de géographie.

H.E.C : Histoire économique et sociale.

C. R.A.I : Compte Rendu d'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.

CReAAH : Centre de recherche en Archéologie, Archéosciences, Histoire.

C.H.M : Cahier d'Histoire Mondial.

C.T.H.S : Comité des travaux historique et scientifique.

C.B.O : Catalogue de la bibliothèque de l'Orient.

D.H.A : Dialogue d'histoire ancienne.

E.B : Encyclopédie Berbère.

F.E.C : Folia Electronica Classica.

M.A.H : Mélange d'Archéologie et d'Histoire.

M.E.F.R.A : Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'école française de Rome, Antiquité.

M.C.V : Mélanges de la Casa de Velázquez

R.A : Revue Archéologique.

R.A.F : Revue Africaine.

R.E.Aug : Revue des études Augustiniennes.

R.B.P.H : Revue belge de philosophie et d'histoire.

R.H.A : Revue historique des armés.

مقدمة

مقدمة

عرف الشمال الإفريقي بقدوم الاحتلال الروماني عدة تغيرات مست البنى السياسية الاجتماعية والاقتصادية، ومن خلال هذا المنظور فإن الأفارقة قد تغيرت أحوالهم وتبدلت حياتهم، لكن استمرار الاحتلال لم يكن أن يبقى إلى الأزل، وعلى ما يبدوا أن نهاية روما كانت وشيكة سواء وجوديا كإمبراطورية امتدت إلى أصقاع العالم القديم، أو في المقاطعات التي تحصلت عليها بعد عمليات التوسع التي تبنتها روما كسياسة دائمة، وظهرت ملامح هذا التراجع بداية من القرن الثالث الميلادي، ومن بين هاته المقاطعات، هناك الشمال الإفريقي الذي لعب دورا أساسيا في الاقتصاد الروماني، نظرا لما كان يزخر به من موارد طبيعية هائلة، وهذا التراجع سمح للغير بمد النفوذ عليه، وهو ما سندأب على توضيحه من خلال هذا العمل الذي سيسلط الضوء على فترة تاريخية حاسمة من تاريخنا المغاربي القديم، ولاشك أنها تركت بسماتها عليه، وهي الفترة التي عرفت بفترة التراجع والتقهقر الروماني، نتج عنه تردي واضح في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما سينتج عنه نهاية غير متوقعة لأهم حضارة سادت كامل حوض البحر المتوسط من أقصاه إلى أقصاه، ونظرا لما كان يتمتع به الشمال الإفريقي من أهمية جوسياسية، من جهة لإشرافه على الحوض الغربي للمتوسط المقابل لشبه الجزيرة الايطالية منبع الحضارة الرومانية ومنطلقها الطبيعي لتوسيع دائرة نفوذها، وما تمتلكه المنطقة من ثروة زراعية وحيوانية من جانب ثاني، وقد أوضحت جل الدراسات على أن الفترة الرومانية كان قد رسمت معالمها واضحة على الشمال الإفريقي في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكانت أثار التواجد الروماني جليا سواء على النشاط الاقتصادي، وتغيرات التي طرأت على البنية الاجتماعية، نظرا لتبني روما لسياسة الرومنة بقصد التحول الشامل للخصائص الحضارية، والثقافية للسكان.

يغطي هذا البحث مجالا جغرافيا واسعا امتد على كامل الشمال الإفريقي باستثناء مصر القديمة وهو ما يتفق مع الاصطلاح المتداول "بلاد المغرب القديم"، كما لابد لنا أن

ننوه أن الحدود الجغرافية للمنطقة التي نحن بصدد دراستها تختلف من عصر إلى آخر، فقبل القرن الثالث قبل الميلاد تتحدث المصادر عن ليبيا الممتدة من حدود النيل غربا إلى أعمدة هرقل مثل ما أشار سترابون، وأثناء الحروب البونية وجدنا تلك المصادر تتحدث عن نوميديا الشرقية وأخرى غربية، أما بعد حرب يوغرطة فقد تغيرت الحدود من جديد، حيث وجدنا ثلاث مناطق نفوذ فبالإضافة إلى المقاطعة التي يحكمها الرومان، كانت هناك مملكتان واحدة تحت سيطرة بوخوس في الغرب وأخرى بيد هيمصال بالشرق، ثم حدث تغير آخر بعد الحرب الأهلية الرومانية التي تورط فيها الملوك النوميد، فبعد انهزام يوبا الأول توسعت الاحتلال الروماني على الأراضي الماسيلية، وحاول الاحتلال الروماني خلق كيانات مغاربية تابعة له، لكن بعد مقتل بطليموس عام 40م على يد النظام الروماني نفسه، انتهت كل المبادرة الهادفة الى خلق كايانات سياسية تابعة للسلطة الرومانية، وامتد الاحتلال الروماني على كامل الشمال الإفريقي وبذلك انتهى حكم المغاربة، ليحل محله الاستعمار الروماني بشكل نهائي.

ومن هذا المنطلق كان اختيارنا لموضوع الرسالة والموسوم بـ:" **نهاية الاحتلال الروماني ببلاد المغرب القديم نهاية القرن 4م.**"، بحيث اتضح وبشكل لا يدعو الى الشك قرب زوال وانتهاء الاحتلال بمشارف نهاية القرن الرابع الميلادي، نظرا لما كان يعيشه الشمال الإفريقي من تفسخ اقتصادي وانحلال اجتماعي ادى الى انسداد سياسي واضطراب أمني، ومن هذا المنظور كيفنا عملنا وفقا لذلك، دون ان ننسى ما تبع تلك الفترة من تدعيات، انتهت بإنقضاء سلطة روما على إفريقيا بحلول القرن الخامس وبالذات عام 429م، والتي تعد أهم مرحلة من مراحل حياة الإمبراطورية الرومانية، بحيث سيتحدد مصيرها كقوة سيطرت على العالم القديم، لكن بعدما ظهرت سمات الانهيار واضحة لم يعد هناك من عائق لانتفاضة الشعوب التي خضعت لسلطان قوة حكمها، فتحولت إفريقيا كغيرها من المقاطعات برمتها إلى ساحة معارك طاحنة بين الرومان من جهة والأهالي من جهة ثانية،

وبالتالي نرى أن هذا الموضوع جدير بان تنصب جهود الباحثين وتجري به أقلامهم، وكان من الضروري جمع مادته وإثرائه لتوضيح ما التبس على البعض من إظهار الفترة الرومانية أنها حقبة ايجابية مثل ما أراده الباحثون الأجانب التي لا تخلوا من التظليل والشحن الإيديولوجي.

وتكمن أهمية موضوع نهاية الاحتلال الروماني بالشمال الإفريقي، في إظهار الفوارق الموجدة بين مراحل الحكم الروماني للشمال الإفريقي، مثلما كانت نيتنا هي تسليط الضوء على مختلف الأوضاع التي مرت بها المقاطعة الرومانية انطلاقا مما كان قبل الاحتلال الروماني وصولا إلى حالة التردي التي أدت بدورها إلى التسريع بنهاية الإمبراطورية الرومانية وفقدان السيطرة على مختلف مقاطعاتها بما فيها الشمال الإفريقي.

كما أن موضوع زوال وتردي الإمبراطورية الرومانية توفرت فيه المراجع بما يفي الغرض في إفادتنا بالمادة الخبرية خاصة عندما يتعلق الأمر بنهاية الإمبراطورية، لكن لم تتناول بالبحث والدراسة الشمال الإفريقي أثناء تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الإمبراطورية، لذا يأتي هذا العمل ليواكب مع كل ما جرت به جهود وأقلام الباحثين السابقين، كما لابد لنا من التنويه أن جل الدراسات الغربية التي تناولت بالبحث الشمال الإفريقي في الفترة الرومانية قد سلطت الضوء على العناصر الدخيلة على المجتمعات المغاربية دون أن تأخذ هذه الأخيرة حضها من أناملهم.

ولمعالجة الموضوع قيد الدراسة لا بد من طرحه في إطاره البحثي وتقييده بالإشكالية التي تناسبه، فجاءت على النحو الاتي: **ما هي الحيثيات التاريخية للتواجد الروماني ببلاد المغرب القديم في جميع مراحله سيما منها مرحلة الضعف والتراجع واثر ذلك على الخارطة الحضارية لشعوب المنطقة.** مما يدفعنا إلى التساؤل عن العوامل التي قادت الإمبراطورية إلى الوضع الذي باتت تعيشه في تلك الفترة؟ وما موقف الأهالي من كل ذلك؟ وتداعيات هذا كله على الأرض والسكان؟.

وفي إطار تلبية ما تطلبته الإشكالية والأسئلة المتفرعة عنها، كانت خطة بحثنا على النحو الذي يمكن من خلالها الإحاطة بجوانب الدراسة المرجوة، والتي أتت من سبع فصول، تم ترتيبها تبعا لتسلسلها وترابط أحداثها وتناسقها بما يخدم الموضوع.

الفصل الأول، والمدرج تحت عنوان: "**أثر التوسع الروماني في إفريقيا إلى معركة تابسوس**"، حيث دأبنا على إظهار النهم الذي اتسمت به الإمبراطورية الرومانية بعد أن استكملت سيطرتها على شبه الجزيرة الايطالية عام 271 ق.م، فتطلعت إلى ما وراء ذلك، وكان لابد من الاصطدام بقوة خارجية كانت من بينها الإمبراطورية القرطاجية المرابضة قاب قوسين أو أدنى منها بجزيرة صقلية، فانتهى الأمر إلى خوض ثلاث حروب فاصلة عرفت بالحروب البونية أتت على قرطاجة وحضارتها بالشمال الإفريقي، كما كان لابد لنا أن نبين أثر وفاة القائد ماسينيسا على المنطقة واستغلال روما لذلك وتوظيفها للدهاء السياسي واستثمار الخلافات الداخلية لتعميق وجودها كدولة مستعمرة، ثم كان أن تم القضاء على الدولة الإقليمية مما سرع من توغلها إلى دواخل إفريقيا واستغلال ثرواتها.

الفصل الثاني، فقد ضمناه "**تدهور الجيش الروماني وتراجع الليمس**"، حيث ركزنا على تشكيلة الجيش الروماني الذي يعتبر أساس الإمبراطورية الرومانية باعتبار أن التوسع والغزو يمثلان سياسية دائمة للإمبراطورية، بالإضافة على أن قوة الجيش وما مدى فعليته كانا من وراء الامتداد الواسع الذي أضحت الإمبراطورية الرومانية تتباهى به أمام الأمم والشعوب وتنظر إليها نظرة التعالي والتفوق، وكان البحث منصب في هذا الجزء من الدراسة على الجيش وهذا من حيث الوحدات أو نوع الأسلحة التي كان يستعملها، والمهام التي كان يقوم بها سواء في حالات الحرب أو السلم، ثم كان لابد لنا من إدراج الوضع الذي آل إليه الجيش الروماني وتداعيات ذلك على قوة روما ونفوذها خارج أو داخل ايطاليا، ومن مظاهر هذا التدهور تراجع خط الليمس، وكثرة الثورات والوصول إلى خسارة الكثير من المقاطعات التي تمكنت روما من مد اليد عليها واستغلالها.

أما الفصل الثالث، فقد رأينا انه من المناسب تناول "**انحلال السلطة السياسية والإدارية وفشل الإصلاحات**"، لأنه من الضروري بمكان إبراز ما مدى التفسخ الذي أصاب هياكل الدولة وتأثيرها المباشر على صحة الحكم الروماني ودرجة فعاليته، وانعكاس كل ذلك على مختلف القطاعات، وهذا من خلال مختلف نظم الحكم والإدارة، كما كان لابد لنا من إظهار محاولات رأب الصدع ومعالجة الموقف من بعض الحكام لإنقاذ وإصلاح ما يكمن إصلاحه، ولعل أشهرها على الإطلاق ما قام به الإمبراطور ديوكليسيانوس للنهوض بهمة روما وإنقاذ سمعتها ومكناتها العالمية من التبدد والانهيار.

الفصل الرابع، والذي أتى كنتيجة لما سبقه من فصول حيث سنتطرق لـ"**الأزمة الاقتصادية والاجتماعية**"، إذ أصبحت الإمبراطورية الرومانية تتخبط في دوامة أزمة اقتصادية حادة أدت بالضرورة إلى أزمة اجتماعية هددت استقرار روما وكينونتها، فلذلك انشغلنا في هذا الفصل على توضيح مدى خطورة ذلك، كما أننا لم نفوت الفرصة لتوضيح الوضع الذي كانت مقاطعة إفريقيا تعيشه قبل الاحتلال الروماني وبعده وإبراز الفوارق بينهما، حيث بدأت طبقة العامة تظهر عليها بوادر التأثر من تراجع مداخلها نتيجة استفحال هاته الأزمة التي بدأت تخنق الحكم الروماني داخل وخارج ايطاليا، وتضيق سبل انتشاره وإحكام قبضته على ما يمتلك من مناطق نفوذ.

ثم أتى الفصل الخامس مشتملا على أهم عارض صدم الإمبراطورية ووضعها على المحك، وساهم بشكل واضح في تفكك أواصرها، كما سرع من انهيارها، وهو ما عرف تاريخيا بالأزمة الدينية، لذا أتى عنوان الفصل على النحو الآتي: "**الأزمة الدينية والعقائدية (أزمة الكنيسة المسيحية)**"، ولإظهار التغير الذي أحدثه ظهور المسيحية وانتشارها الملفت للنظر كان لزما علينا التعرض للفترة السابقة لظهور المسيحية، ومن ثم الحديث عن انتشارها في الشمال الإفريقي وموقف السلطة الرومانية من كل ذلك، ثم كان لابد من لفت النظر لسابقة تاريخية هزت أركان الإمبراطورية من جذورها وهو تبنيها للمسيحية كدين رسمي،

وعلى اثر ذلك حدوث الانشقاق الكنسي واستمرار الصراع الذي سيساهم بشكل أو بأخر في ضعضعت السلطة الرومانية وتوجيها نحو طريق الانهيار.

كما عرضت في الفصل السادس رد فعل السكان المحليين من تطور الأحداث التي كانت تدفع للتمرد وإظهار الامتعاض من ما كان عليه الشمال الإفريقي من وضع فرضه الاستعمار الروماني، فأتى هذا الجزء من العمل تحت عنوان "**ثورات الأفارقة**"، ولقد راعينا في ذلك قرب المدة الزمنية لبعض الثورات من فترة نهاية التواجد الروماني، وصنفنا تلك الثورات وفقا للأبعاد التي انطلقت لتحقيقيها، أو من خلال الخلفية التي اصطبغت بها، فكان إضفاء حلة مختلفة على ما تناولته اغلب الدراسات المحلية أو الأجنبية بشكل مغاير يضفي على الموضوع التجديد والابتعاد عن الاجترار المُمل.

أما الفصل السابع والأخير كان بمثابة الخاتمة التي نتجت عن ما سبقها من فصول، حيث انهار النظام الروماني القائم، وتدفقت جحافل الوندال التي شغلت المكان، فكان العنوان الذي اخترناه لهذا الجزء من البحث على النحو التالي: "**استيلاء الوندال على إفريقيا وتراجع الرومان**"، ولم نتوقف عند هذا الحد بل اشرنا في جنبات الفصل إلى أصل الوندال ومنشأهم، ومن بعدها ركزنا على الدواعي التي جرتهم إلى الانتقال والتفكير بغزو الشمال الإفريقي ومن ثم الاستقرار فيه، ثم كان لابد من الإشارة إلى رد فعل السكان اتجاه هذا الوافد الجديد، وانهينا العمل بزوال التواجد الوندالي مستعرضين لأهم أسبابه ونتائجه، واستمر هذا التواجد لفترة تزيد عن القرن من الزمن أي من 429 إلى 534م، وبالرغم من قصر المدة كان لهم نصيبهم من التأثير في مختلف جوانب الحياة لسكان الشمال الإفريقي، وستنتهي فترة حكم الوندال على الشمال الإفريقي على يد البيزنطيين، الذين اعتبروا الوندال من الشعوب الهمجية التي لا تمت بصلة لما يعرف بالحضارة، كما رأوا في أنفسهم الوريث الشرعي لممتلكات إمبراطورية روما الغربية المنهارة.

كما أن طبيعة الموضوع وحيثياته اقتضت منا اعتماد ثلاثة مناهج أولها المنهج التاريخي لأننا بصدد جمع الحقائق التاريخية المتعلقة بالفترة المدروسة قصد الوصول إلى فهم جيد للموضوع، كما لازم هذا المنهج، المنهج التحليلي لاستقراء الآراء والأفكار بحسب طاقتنا في فهم جزئياته، ولكي تتجلى معالم هذا البحث وتتضح ويتوج ما حللناه بمنهج المقارنة بين ما أقرته الدراسات الأجنبية وما أثمرت به أنامل الباحثين المحليين من نتائج تدحض حينا أو تصحح حينا آخر الواقعة التاريخية بما يجب أن تكون لا بما أرادته المدرسة الكولونيالية الفرنسية، التي حاولت أن تصور المرحلة التي مر بها الشمال الإفريقي في ظل الاحتلال الروماني على أنها أفضل المراحل حيث سمحت لسكان المنطقة أن تعيش وتنهل من الحضارة الرومانية وتنعم بنعيمها، خدمة لأهدافها التوسعية بالمنقطة، كما برزت الحاجة ملحة للإطلاع على جوانب من تاريخنا المحلي الذي تعرض في معظمه إلى التشويه أو الطمس، ولعل هذا المسعى هو من أسمى أهداف هاته الدراسة، وهذا ما يؤكده الباحث عبد القادر جغلول بقوله:" فتاريخ بلدنا لم يستوف حقه من الدراسة حتى الآن، والوعي لا يزال مثقلا بالتفتت الثقافي والتلاعبات التاريخية التي جاءت بها الإيديولوجية الاستعمارية وبظهور تلاعبات جديدة كانت النتيجة: تاريخ ممزق، وعي تاريخي ضعيف ومشتت سببه مواقف خفية."[1]

ولتحقيق هذا العمل كان أمامنا عدد لا باس به من المصادر التي تناولت التاريخ الروماني بقدر كاف، ومن بينها ما تركه الكاتب الإغريقي بوليبيوس (Polybe) ومنها مؤلفه "التاريخ العام" (Histoire générale) الذي يعد من أوثق المصادر التي تناولت التاريخ الروماني، كما لا بد من الإشارة على انه ضمنه حديث عن الحروب البونية، وكذلك عن فترة حكم العاهل النوميدي ماسينيسا على الرغم من تسجيل بعض الهفوات، وفي أي دراسة للشمال الإفريقي أفضل المصادر التي تناولت جغرافية المنطقة هو كتاب "الجغرافيا"

[1] جغلول، ع. ق.، 1982، *مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط*، ترجمة فضيل الحكيم، بيروت، ص.5.

(Géographie) للمؤلف اللاتيني سترابون (Strabon)، بالإضافة إلى بلينوس الشيخ (Pline l'ancien) فمن خلال كتابه "التاريخ الطبيعي" (Histoire naturelle) تكمنا من إظهار التنوع الطبيعي وغنى المنطقة بالموارد، كما أننا وظفنا كتاب هيرودوت (Hérodote) لما وقفنا عنده من مظاهر دينية وثنية لسكان بلاد المغرب القديم، ولما استعرضنا انتشار المسيحية كان أمامنا عدة مصادر تتحدث عن ذلك ومن أشهرها ترتيليانوس (Tertullien) حيث نقل لنا أوضاع النصارى خلال القرن الثالث الميلادي وما تعرضت له جماعة المسيحيين من اضطهاد وملاحقات من السلطة الرومانية، لكن نلمس عبر ما كتبه هذا الأخير تحيزه الواضح للجماعة التي ينتمي إليها وابتعاده عن الموضوعية والحياد، إلا انه يعد من المصادر الركيزة في كتابة تاريخ المسيحية في الشمال الإفريقي، ومن المصادر المهمة كذلك التي اعتمدنا عليها في هاته الدراسة وخاصة فيما يتعلق بالانتفاضات التي شهدها الشمالي الإفريقي في آخر حياة الإمبراطورية الرومانية أميانوس مارسيليانوس (Ammien Marcellin) حيث وظفنا مؤلفه "تاريخ روما (Histoire de Rome)، بالإضافة لكتاب "تاريخ الاضطهاد الوندالي" (Vandales Histoire de la persécution) للكاتب فكتور دي فيتا (Victor de Vita)، فقد عايش هذا الأخير فترة التواجد الوندالي وحكى عن ما سببه هؤلاء من ألام وتخريب، وكيف وظفوا المذهب الأريوسي كسلاح ومبرر لقمع واضطهاد السكان المحليين أو الرومان على حد سواء.

دون أن نستغن عما كُتب عن هذا الموضوع حديثا من المراجع، إثراء وتنويعا لمادة البحث، بما في ذلك المقالات الدقيقة التي تمثل عصارة هذا الموضوع، ومن ضمن تلك الدراسات والأبحاث الأجنبية ما قدمه الباحث ادوارد جيبون من دراسة مستفيضة عن الإمبراطورية الرومانية تحت عنوان: "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، بحيث أحاط الباحث بكل ما يمكن معرفته عن أسباب تراجع قوة روما وزوالها على يد الشعوب المجاورة، كما لا يفوتنا أن نذكر شيخُ المؤرخين قزال وكتابه "تاريخ شمال إفريقيا القديم"،

الذي هو الآخر أساسي في دراسة المنطقة من جميع الجوانب، ونلاحظ أن جل تلك الدراسات لم تظهر مساوئ التواجد الروماني بالشمال الإفريقي مثلما ذكرنا سلفًا.

أما ما تعلق بالمراجع المحلية ومنها كتاب "الرومنة والتدين في شمال إفريقيا" للكاتب عبد الحميد عمران، حيث تناول بالدراسة الفترة التي سبقت انتشار المسيحية بين أوساط الأفارقة، ثم وسع في نثر المعلومات المتعلقة بالفترة العسيرة التي مر بها الشمال الإفريقي نتيجة تبنيه للدين الجديد، وهذا ما دأبنا على توضيحه من خلال الفصل الخامس، كما لا يفوتنا أن نذكر مرجع مهم للباحث محمد صغير غانم "مقالات وأراء في تاريخ الجزائر القديم"، وكتاب "التاريخ المغاربي القديم" للمؤلف حارش محمد الهادي، اللذان يصبان في نفس الاتجاه وهو التعريف بالتاريخ المغاربي بوضع حد للمعلومات الخاطئة، والتمكين لشعوب المنطقة بالاطلاع على تاريخهم والتعرف على تراثهم، كما استعنا بدراسة الباحث العود محمد الصالح الموسومة "التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والدينية في بلاد المغرب القديم خلال الفترة الوندالية والبيزنطية" في تسليط الضوء حول تاريخ المنطقة في الفترة الوندالية التي يشوبها كثير من الغموض نظرا لشح المصادر والدراسات المتعلقة بها.

وأهم صعوبة واجهتنا في انجاز هذا العمل:

أن معظم الدراسات وخاصة الأجنبية منها، تحمل بين طياتها رؤى أحادية الجانب تثني على الاحتلال الروماني وتدأب على تبيان محاسنه ولا تظهر مساوئه ونتائجه السلبية سواء على الأرض أو على من سكن فوق تلك الأرض، وهذا ما يجعلنا نتناولها بكثير من الحيطة والحذر، نظرا لتحيزها الواضح.

وفي الأخير لا ندعي بعد انجازنا لهذا البحث أننا قد وفيناه حقه، وألممنا بجميع جوانبه إلماما تاما، ولكن حسبنا أننا لم ندخر فيه جهدا في أن أنجزناه إنجازا علميا، سائلا غفران ما قد زل به قلمي أو ما قد حدثتني به نفسي في لحظة غفلة، ولن يؤتي هذا العمل أكله إلا بعد

أن يصوب خطئه وتصحح عثراته من لجنة المناقشة والتي لها أسمى معاني الاحترام والامتنان سلفا على تفضل الأساتذة المكونين لها بتصويب محاولة من لا يري نفسه إلا طالب علم مبتدأ ما زال أمامه الطريق طويل لم ولن يستغن عن توجيهات ونصح أساتذته، ويحضرنا في هذا المقام ما قاله داود الأصفهاني من قبل :"إني رأيت أني كلما عملت عملا، أقول في نفسي لو قدمت هذا لكان أحسن ولو أخرت هذا لكان أسلم ولو زدت هذا لكان أفضل ولو أنقصت هذا لكان أكمل ولو غيرت هذا لكان أليق، وهذا دليل القصر واستيلاء النقص على جملة البشر".

الفصل الأول

التوسع الروماني في إفريقيا الشمالية إلى معركة تابسوس

1-التوسع الروماني في حوض البحر المتوسط.

2-الغزو الروماني لإفريقيا.

أ-الحروب البونيقية ودورها في تعجيل السيطرة الرومانية على إفريقيا.

-الحرب البونيقية الأولى (264-241 ق.م)

-الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م)

-الحرب البونيقية الثالثة (149-146 ق.م)

ب- سقوط قرطاجة وبداية الاحتلال الروماني

3-مملكة نوميديا بعد وفاة ماسينيسا.

4-الحرب الأهلية الرومانية ونهاية الممالك المحلية.

لعل من أهم الانجازات التي حققتها الإمبراطورية الرومانية (Imperium Romanum) هي القضاء على غريمها في البحر المتوسط سنة 146 ق.م[2]، مما سيسهل عليها مهمة توسيع دائرة نفوذها السياسي والجغرافي، ويخلوا لها وجه العالم الغربي للبحر بضفتيه الشمالية والجنوبية، وتدخل في دائرة حكمها كل ما كان تابعا لقرطاجة* (Carthage)، ولجعل أمرها نسيا منسيا، قاد حملة إخضاع قرطاجة سيبيون الإميلي** (Scipion Emilien) منذ عام 147 ق.م، بعد مقاومة كانت لا تزال مستمرة منذ سنتين، وفي هذه الأثناء الحرجة من حياة المدينة التي وقفت لسنون عديدة أمام الوافد الجديد، وخلالها تمكن سيبيون من بلوغ تلة بيرسا*** (La

---

[2] Fantar, M., 1970, *Carthage la prestigieuse cite d'Elissa,* Tunisie, p.239-243.
Février, P. A., 1989, *Approches du Maghreb romain pouvoirs. Différences et conflits*, ex-en-Provence, p.93.

* قرطاجة من أهم المدن التي أسسها الفينيقيون على سواحل البحر المتوسط، تقع في موقع جغرافي ممتاز على المضيق الذي يربط حوض البحر المتوسط وفي طرف شبه جزيرة متصلة بقارة إفريقيا، تنتشر أمامها عدد من الجزر المتناثرة، وبالرغم أن بعض المستوطنات الفينيقية هي أقدم منها مثل عوتيقة، إلا أن كما سبق ذكره هي أهم مستوطنة على الإطلاق، والتي تذكر الروايات التاريخية أن الأميرة "إليسا-ديدون" (Elissa) ابنة "متان" ملك صور، بعد ما فرت من بطش أخيها "بيجماليون" (Pygmalion) الذي قتل زوجها وخالها "أشرباس" (Echerbas)- أحد كهنة معبد ملقارت- فهاجرت إلى جزيرة قبرص وهناك انضم إليها كاهن معبد "عشتارت (Asterte)، ليدعمها بشرط أن تكون له ولأسرته حق تسيير معابد المدينة الجديدة، غير أنها انتحرت بعدما طلب الزواج منها ملك الليبيين هيارباس ، تقع قرطاجة على مقربة من مدينة تونس الحالية، بين "بوسعيد" و"لاجويت" ، ويعود تأسيسها إلى عام 814 ق.م، حتى وإن يرى البعض من المؤرخين بأن تاريخ تأسيسها هو أقدم من التاريخ المتداول والمعروف، غير أن التنقيبات الأثرية لا تؤكد حتى الآن صحة هذا القول، كما إن الاسم اللاتيني (Carthago) إنما هو تحريف للأصل الفينيقي "قرت حدشت" (Qart Hadasht) أي بمعني "المدينة الجديدة"، ولا يجب الخلط بين قرطاج أو قرطاجة وقرطاجنة التي بناه الفينيقيون في اسبانيا، ولقد تطورت قرطاجة من مدينة-دولة إلى عاصمة. حول الموضوع ينظر:
مهران، م. ب.، 1990، *مصر والشرق الأدنى القديم. المغرب القديم*، الإسكندرية، ص ص.180-183.
إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، "روما وإمبراطوريتها" ، *موسوعة تاريخ الحضارات العام*، المجلد الثاني، ترجمة فريد م. داغر وفؤاد ج. أبوريحان، بيروت، ص ص.40-43.
غانم، م. ص.، 2003، *التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط*، عين مليلة، ص ص.102-112.
الطاهر، م.، بورونيَة، ش.، 1999، *قرطاج البونية*، الإسكندرية، ص ص.87-105.

** سيبيون الإميلي من أشهر قواد الرومان ولد عام 185 ق.م، اشرف على تحطيم قرطاجة عام 149 ق.م، والمدعو (le second Africain) ، اصغر أبناء بول إميل (Paul-Emile) الأربع، تبناه عمه الابن الأكبر سيبوا الإفريقي، وبذلك سيأخذ اسم العائلة ولا يحتفظ من أسرته إلا بالكنية (الإميلي)، مات في ظروف غامضة. للمزيد من المعلومات ينظر: Didot, F., 1854-1866, *Nouvelle biographie générale:depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours,* Paris, pp.665-666.

*** هيرسا (Hyrsa) وفي زمن ماض بيرسا (Byrsa)، تعني في اللغات السامية البرج، وفي اللغة الإغريقية بمعنى جلد الثور، إشارة إلى تحايل ديدون (Didon) للإستلاء على مساحة اكبر لبناء مدينتها الجديدة "قرد حدشت" (Karchedon)، فكانت في البدء مقبرة وحصنا لمدينة قرطاجة ثم في العهد الروماني احتضنت قرطاجة الرومانية، والتي حوت بدورها قصر البروقنصل (Proconsul) والمحكمة وبعض من المعامر الدينية مثل معبد جوبيتر (Jupiter)، وهي بطبيعتها تصلح أن تكون تحصينا طبيعيا وما للإنسان إلى أن يضع بعض من لمساته فيجعلها ممتنعة، وهذه الهضبة تأخذ شكلا مستطيلا، وهي تتربع على مساحة 2000 متر، وتقع على بعد 500 متر عن الساحل.
للمزيد من المعلومات انظر: Vellard, P. A., 1896, *Carthage autrefois, Carthage aujourd'hui : description et guide*, Chapitre III, Paris, p.22.

colline de Byrsa)، حيث أضرم النار في أرجاء المدينة المقاومة، والتي ظلت مستعرة لعشرة أيام متتالية، احرق فيها من رفضوا الاستسلام والبقاء بمدينتهم، ومن بينهم زوجة القائد القرطاجي اصدربعل (Hasdurbal le Boétharque) الموكل بالدفاع عن المدينة، إذ أبت هذه الأخيرة إلا أن تكون ممن تأكلهم نيران الانهزام بدل من أن تلتهمهم نار الخيانة، والتي تلبس بها زوجها الذي سلم أمره للرومان، ورددت قبل نحر أبنائها أمام بعلها ثم إلقاء نفسها في النار قائلة :"لن أتمنى، أيها الرومان، إلا كل الرخاء لأنكم لم تفعلوا إلا ما تمليه عليكم حقوق الحرب، لكن ادعوا آلهة قرطاجة لمعاقبة، كما ينبغي، اصدربعل، الذي خان وطنه، آلهته، زوجته وأولاده."[3]، ثم دك ما بقى من مبانيها وحرثت أرضها وذر الملح فوقها بأمر من مجلس الشيوخ[4]، حيث أزال الرومان مثل ما أتى على لسان البشير شنيتي: "بفعل الحرب البونية الثالثة (149–146 ق.م) التي أزالوا فيها دولة الكنعانيين من خريطة المغرب السياسية، وأصبحوا ورثة لترابها."[5]، وظلت المدينة ملعونة في نظرهم، بدليل صب الملح على موقعها حتى تبقى عقيمة لا تثمر[6]، وبذلك زالت من الوجود دولة عمرت من 814 إلى 146 ق.م[7]، ويمكن القول أن روما قد نفذت وثيقة إعدام قرطاجة وحققت حلم سيبيون بتحطيمها حجرا حجر.

ولقد كان لهذا التوسع والذي بدأ بطيئا ومتدرجا في مراحله الأولى، لكن سرعان ما اتسم بالسرعة وتفاقمت آثاره، وهذا ما يؤكده شنيتي أيضا بقوله :" على أنها عبارة عن ابتلاع بطيء للجيران في ايطاليا، تحول إلى سرعة في الازدراد، ابتداء من الحروب البونية الأولى والثانية، حيث أدت إلى مكاسب إقليمية هامة، حصل عليها الرومان خارج

---

[3] Madeleine, H. M., 1982, *Carthage,* Paris, p.50.

[4] Ayache, A., 1964, *Histoire ancienne de l'Afrique du nord,* Paris, p.p.35-36.

[5] شنيتي، م. ب.، 2012، *نوميديا وروما الإمبراطورية تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال*، الجزائر، ص.20.

[6] جمال، م.، 2009"، المقاومة النوميدية للاحتلال الروماني في الجنوب الشرقي الجزائري، ثورات الأوراس والتخوم الصحراوية نموذجا"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، ص.50.

[7] المحجوبي، ع.، 2001، *ولاية إفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السويري (146 ق.م-235 م.)*، تونس، ص.57.

شبه الجزيرة الايطالية، فتمكنوا من السيطرة على شعوب البحر الأبيض المتوسط الغربي بعد أن تم لهم تحطيم دولة قرطاجة في الحرب البونيقية الثالثة."[8]

1-التوسع الروماني في حوض البحر المتوسط.

بدأت بوادر التحرك الجدي للتوسع خارج أراضي ايطاليا، لما بسطت روما نفوذها على شبه الجزيرة عام 271 ق.م[9]، ليس بعيدا عنها حركت صقلية* (Sicilia) الثرية بالقمح والقوة البشرية، رغبة روما في التوسع[10]، أما فيما بين الفترة الممتدة بين عامي 264-133 ق.م، وهي المدة التي حققت فيها روما أكثر فتوحاتها الخارجية، وامتد هذا قرابة مائة وخمسون عاما من الحروب لجعل البحر المحاذي لها بحيرة رومية بامتياز، وبلغت أقصى توسع لها في أواخر القرن الأول الميلادي وأواخر القرن الثاني أي في عهد الإمبراطور تراجانوس** (98-117) (Trajan)[11]، والذي أطلقت عليه الأجيال المتعاقبة "أفضل حاكم"، وتوسعت روما

---

[8] شنيتي، م. ب.، 1982، *سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م-40 ق.م)*، الجزائر، ص.45.

[9] طراد، ن.إ.، 2008، *تاريخ الرومانيين*، الجيزة، ص.122.

* يصف سترابون صقلية على أنها جزيرة على شكل مثلث وبثلاث رؤوس وهي بيولورياد وكينيوس مع عمود الريغيين شكلوا مضيقا، ثم يأتي من ناحية الشرق رأس باهين يطل على البحر الصقلي ومضيق كريت، أما الرأس الثالثة فهي رأس ليليبية المحاذية لإفريقيا، ولذلك سميت في الماضي ترينا كربيا، ثم ثغر اسمها إلى ثريناكيديس، وتستغرق الرحلة البحرية حولها خمس أيام بلياليها، قد شكلت صقلية بموقعها المتميز في وسط البحر المتوسط مثلما يصفها البعض "بجسر يعبر عليه أهل الجنوب إلى أهل الشمال، أو ينحدر منه أهل الشمال إلى أهل الجنوب."، وهي بحسب شكلها تشبه المثلث متساوي الأضلاع، بمساحة 25461 كلم^2، يفصلها عن ايطاليا مضيق مسينا الذي يتسع على بضع كيلومترات لا تتجاوز الثلاثة، وعن إفريقيا وبالذات تونس الحالية معبر صقلية بمائة وعشرون كلم، من أشهر مدنها سرقوسة مربض العالم الإغريقي الشهير أرخميدس، كم عرفت بمناخها المعتدل. للمزيد من المعلومات عد إلى: سترابون، *الجغرافيا*، II.VII. 1، ترجمة. حسان مخائيل اسحق، 2017، دمشق.
المدني، أ. ت.، 1946، *المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا*، الجزائر، ص ص. 8-18.

[10] Fantar, M., 1970, p.237.

** ولد باسم ماركوس اوليبيوس تراجانوس (Marcus Ulipius Traianus) باسبانيا مدينة اتاليكا (Italica)، وبذلك يعد أول إمبراطور يجلس على العرش من أصول غير رومانية، تدرج في المناصب حتى تبناه نيرفا وقاسمه الحكم كولي للعهد، وكان بدأ تاريخ جديد لروما إذ ولى زمن سيادة الأغنياء واحتكارهم للسلطة، حضي تراجانوس بحب واحترام الشعب ومجلس الشيوخ حتى منح لقب سنة 100 م أفضل إمبراطور (Optimus Princeps)، ادخل إصلاحات جذرية فأعان الفقراء، وأقام لهذا الغرض جسرا على الضفة الثانية للتيبر لمد الأحياء الفقيرة بالماء، فعرف بجسر مياه تراجانوس (Aqua Traina)، كما قدم المساعدات والقروض للفلاحين، وحسن من حال الموصلات من طرق برية وجسور وموانئ، ولم يغفل على تحسين مظهر مدينة روما فانشأ الساحة الجديدة (Forum)، كما عرف عهده ثورة اليهود عام 115 م انطلقت من قورينة وامتدت إلى مصر وقبرص وفلسطين، وقمعها بشدة، وشبهه المؤرخون بالإسكندر المقدوني حيث جمع بين الخيال والواقع، إلا أن طموحه أودى بحياته وادخل الإمبراطورية في دوامة مشاكل نظرا لاتساع رقعتها. انظر: حافظ، أ. غ.، 2007، الإمبراطورية *الرومانية من النشأة إلى الانهيار*، الإسكندرية، ص.ص. 66-67.

[11] الشيخ، ح.، 2005، *الرومان*، الإسكندرية، ص.17.

كما لم تتوسع من قبل حتى وصلت إلي مياه الخليج الفارسي[12]، وعاد من فتوحاته مثل ما حصل مع داسيا (رومانيا) بغنائم لم تعهدها روما من قبل، ومثلت هذه المرحلة ازهي عصور الإمبراطورية، ولأكثر من ثمانين عاما (98–180) سيرت شؤون إدارتها العمومية من كفاءات وقدرات أمثال تراجانوس، هادريانوس* (117–138) (Adrien)، وأنطنيوس بيوس** (138–161) (Antonin le Pieux)، وكان إتمام عهد هذه الحقبة المزدهرة بحكم الإمبراطور ماركوس إريليوس*** (161–180) (Marc Aurèle)[13]، ووسمت فترة حكم أولائك الأباطرة الأربع بالعصر الذهبي، إذ بلغ تعداد العاصمة روما لوحدها في فترة الأوج مليون ساكن، والإمبراطورية تحصي آنذاك خمسون مليون نسمة بعدد سكان مملكة الهان بالصين، علما أن المعمورة تجمع وقتها مائتين وخمسون مليون من البشر[14]، ومما ساعدها على ذلك موقع روما بوسط شبه الجزيرة الايطالية مما جعلها بعيدة عن عمليات الغزو، وتحقيق انتشارها في أرجائها، كما أتاح لها كثرة مقاتليها القضاء على خصومها وبناء إمبراطورتها، ولم يقل وقوعها في وسط البحر المتوسط من أهمية في نشر خيوط سيطرتها على "عالم هذا البحر"، فكان

---

[12] شوا، إ.، 2009، *عصر الإمبراطورية. كيف تتراجع القوى المطلقة على عرش العالم وأسباب سقوطها*، ترجمة محمد، م. ص.م.، 2011، الرياض، ص ص.79-80.

* ولد هدريانوس بنفس المدينة التي ولد فيها تراجانوس وذلك عام 76، وهو ثالث الأباطرة الانوطنيين، ورث عن سابقه تركة ثقيلة نتيجة الاندفاع التوسعي وما كلف الخزينة من مال وا من إهدار للطاقة البشرية ، حضي هدريانوس باحترام من الشعب والجيش نتيجة تاريخه العسكري الحافل بالانتصارات، إلا أن إحيائه لسياسة السلم الروماني لوقف النزيف الاقتصادي لم يرق للكثير من القادة ومنهم لوسيوس كويتوس (Lusius Quietus)، أقدم على إصلاحات في الجيش فالغي الفوارق بين القوات النظامية (Légions) والقوات المساعدة (Auxilia)، كما عمل على إحياء نظام الفيالق المقدونية القديمة (Phalanx)، ونشر العمران، ومن انجازاته ضريحه الشهير (Mausoleum)، ومعبد البانتيوم (Panthéon)، وصاحبه بحقوق المواطنة لمكافأة الشعوب المرومنة، كما أصلح التشريع الذي تشربت منه الأقوام والأمم من بعده. للمزيد من المعلومات عد إلى: حافظ، أ. غ.، 2007، ص.ص.68-70.

** حصل أنطونيوس على لقب بيوس نتيجة وفائه اتجاه سلفه في الحكم وورعه، وكذلك التزامه بالفضائل الرومانية، فلم يحد عن مسار هادريانوس في تبني سياسة السلم العام، ولم تحدث قلاقل إلا نادرا، ونتيجة امتلاء الخزينة استطاع انطونيوس أن ينفق المال على عمليات الإنشاء والتعمير، كما ساهم في إثراء مدونة التشريعات القانونية بما أضافه ، فهو صاحب أشهر قواعد القضاء "المتهم برئ حتى تثبت إدانته". لاطلاع انظر: حافظ، أ. غ.، 2007، ص.ص.70،71.

*** ماركوس أورليوس من بين اشد أباطرة روما رجوعا إلى ذواتهم، وقد عرف عنه انه الفيلسوف الوفي للرواقية، حتى انه ألف كتابه الشهير باللغة اليونانية بعنوان "مع الذات"، فلقد لحظ عليه ورعا لا يميل إلى الإسراف، كما امتاز بالتواضع، فعند حضوره مجلس الشيوخ يعد نفسه واحد منه ومساو لهم، أشرك أخاه= =لوكيوس فيروس في الحكم إلا أن مات في حرب الدانوب فانفرد اوريليوس بالحكم، خرج عن المألوف بإعلان ابنه كومودوس ولى العهد من بعده، عرف بدفاعه عن الفقراء ومد يد العون لهم عند الحاجة. انظر: حافظ، أ. غ.، 2007، ص.ص. 72،71.

[13] Gibbon, E., 1828, *Histoire de la décadence et de la chute de l'empire romain,* T.I, Trad. Guizot, M.F, Paris, p.27.

[14] André, L., 2016 « Grandeur de l'empire romain », *Herodote.net*, Encyclopédie, Paris.

هذا الانتشار الواسع محل إعجاب واندهاش الكثير من الباحثين والمؤرخين، وارجعوا ذلك وإن كان غير مقبول لدى المعاصرين من المؤرخين إلى عاملين أساسين هما، كمال دستورها، وفضائل أخلاق مواطنيها[15]، وبعدما بسط الرومان نفوذهم على المتوسط لم يترددوا على أن ينسبوه لأنفسهم (Mare nostrum).[16]

كما تبدوا أهمية العالم المتوسطي، من ما أبدته ويزة أيت عمارة عبر المحطات التالية:

1-ربط المضايق ومنها سيناء وجبل طارق البحر المتوسط بالمسطحات المائية الأخرى.

2-توسطه للعالم القديم.

3-سهولة الاتصال بوجود عدد مهم من الجزر مثل البليار أو الكيكلاد.

4-توفر المادة الأولية لبناء السفن، كالخشب بلبنان، والنحاس بشبه جزيرة أيبيريا والقصدير بجزر الكاسيتيرد.[17]

وتظهر أيضا أهمية المتوسط بأن الأمم سواء السابقة أو اللاحقة قد نجح بعضها في تشكيل "اقتصاد-عالم" متوسطي، ومن هذه الأمم فينيقيا، وتلتها بعد ذلك قرطاجة، وبقيت الحلقة في تشكيل هذا الاقتصاد المتوسطي، الواحد على حساب الآخر أو على أنقاض من سبقه، وما يتبعه من تحول مراكزه من مدينة لأخرى وتبدل شبكة طرقه، فتشكلت لوحة اتسمت بالتعدد والتنوع، وبرزت كذلك أهمية السيطرة على البحر المتوسط في منطق الأمم آنذاك ومنها روما والتي جعلت من مدنها بحكم امتدادها المائي (جنوى، نابولي، ميلانو وفلورنسا) مركزه الذي لا يمكن تجاوزه بأي حال من الأحوال[18]، وكان الانتصار الأكثر حضور على قرطاجة بحريا في سلسلة حلقة الصراع المعروف تاريخيا بالحروب البونيقية.

---

[15] نصحي، إ.، 1978، *تاريخ الرومان*، الجزء الأول، القاهرة، ص ص. 16-191.

[16] شنيتي، م.، ب.، 2003، *أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)*، الجزائر، ص.67.

[17] أيت عمارة، و.، 2016، "دور السفينة في التجارة والتوسع الاستيطاني في البحر المتوسط القديم"، *أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر، ص.277.

[18] بروديل، ف.، 1993، *المتوسط والعالم المتوسطي*، الطبعة الأولى، ترجمة وإيجاز، مروان أبي سمرا، بيروت، ص ص.11-12.

ولما كان من أهمية البحر المتوسط، والذي عرف قديما بالبحر الداخلي (Mare Interum)[19]، فلقد عمد الفينيقيون ومن بعدهم القرطاجيون على توخي الحذر بعدم تقاسم ثمار رحلاتهم واستكشافاتهم وخاصة مع أندادهم من الإغريق، ولذلك كانوا كلما نزلوا بميناء إلا ونسجوا قصص غريبة الأطوار، أو هي اقرب للخيال منها للواقع وهذا ما نجد بعض من لمعه وأثره في أشعار هوميروس (Homère)، ومثال ذلك مغامرات اوليس (Ulysse)، كما إن الفينيقيين لم يدخروا جهدا في إبعاد كل مغامر يقرب من محطاتهم التجارية ولو كان ذلك بالإغراق.[20]

وقد تأتى اهتمام الفينيقيين بالملاحة البحرية، أن كان من جملة العوامل الطبيعية التي دفعتهم نحو البحر، منها السلاسل الجبلية الممتدة على طول الساحل من الأمانوس شمالا حتى جبال الكرمل جنوبا، مما منع الفينيقيين من ممارسة نشاط الزراعة، كما وفرت السلاسل الجبلية مخزونا من الثروة الغابية ذاع صيتها، وتميزت بجودتها العالية في العالم المتوسطي، فتلاحقت الأمم لجلبها وتوظيفها إما في العمارة أو بناء السفن، وهذا ما توضحه اتفاقية ملك صور* (Tyr) أحيرام وملك العبرانيين سليمان في الألف الأول ق.م[21]، وما لبث هذا الاهتمام أن تجسد على ارض الواقع، بإنشاء محطات تجارية مرحلية في البدء، ثم مستعمرات دائمة مثل أوتيكا** (Utique) وقادس*** (Gadés) وليكسوس**** (العرائش) (Lixus)[22]، ولا أدل

---

19 شنيتي، م.ب.، 2003، ص.67.

20 Ayache, A., 1964, *Histoire ancienne de l'Afrique du nord,* Paris, p.28.

* لعبت مدينة صور دور المركز لمدن الساحل الفينيقي ودامت هذه الزعامة قرابة خمس قرون من القرن العاشر حتى القرن الخامس ق.م، وتذكر الأساطير أن المدينة سكنت من الآلهة الذين سلموها فيما بعد للجبابرة، ويرى المؤرخون أنها بنيت عام 2750 ق.م، كما يرى آخرون أنها بنيت من سكان صيدا الذين هاجروا إليها بعد أن دمرت مدينتهم، غير أن هذا الرأي لا يتوافق والأحداث التاريخية كتأسيس المستعمرات الباكرة والتي تعود 1110 ق.م. للمزيد من المعلومات عد إلى: غانم، م. ص.، 2003، *التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط*، عين مليلة، ص.ص. 24-29.

21 غانم، م. ص.، 2003، ص.ص.54-55.

** أوتيكا مدينة ساحلية أقامها الفينيقيون عام 1101 ق.م وبذلك تكون من أقدم مدن البحر المتوسط، ولقد مثلت إحدى محطات التجارة الفينيقية، تقع في الشمال من تونس الحالية، على بعد حوالي ثلاثون كلم شمال غرب قرطاجة، تعرف باللاتينية بـ(Utica) والتي تعني المدينة القديمة، عرفت عبر تاريخها الطويل عدة حروب، غيرت باستمرار انتمائها بحسب الظروف المفروضة عليها، كانت فينقيه في البداية قد حاربت الإغريق ثم الرومان، إلى أن تنحاز أوتيكا إلى جانب الرومان في البونيقية الثانية، ولما سقطت قرطاجة 146 ق.م حضيت بمعاملة خاصة، وأصبحت بعد ذلك من ضمن المدن السبع الحرة وهي:(أوتيكا، تابسوس، أوسولا، حضرموت، لمطة، ثيودواليس وأخيلا) أي أنها لم تدمج في الممتلكات الرومانية وأخذت الحكم الذاتي نتيجة الإخلاص الذي أظهره سكانها تجاه روما، وعلى هذا الأساس كان لمدينة اوتيكا تنظيما بلديا احتفظت به من قبل سنة 146 ق.م، ويتكون من مجلس شيوخ، والأشفاط ومجلس المواطنين، ومن الامتيازات التي

على هذا الاهتمام المتنامي لدى القرطاجيين مثل الرحلة المشهورة برحلة حنون* (Hannon) الاستكشافية التي لا تزال تثير اهتمام وفضول المختصين من غيرهم، والتي كانت في نهاية القرن الخامس، بحثا عن مستعمرات جديدة على ساحل الأطلسي.[23]

2-الغزو الروماني لإفريقيا.

المفارقة التي ذكرها جوليان ضمن كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" عن أسطورة غزو بلاد المغرب، إن من مملكة جزيرة الاطلنطيس (Atlantis)، مما جاء في مدون أفلاطون الطيماوس (Le Timée)، أو الفرس والميديين (Les Mèdes) من حديث سالوستيوس (Salluste)، ليأتي بروكوبيوس (Procope) بطرح ما تداوله العرب فيما بعد، عن غزو

استفادت منها الإعفاء من ضريبة الأرض (Stipendium) وكذلك اعفي سكانها من ضريبة الرأس التي فرضت على الأتباع الأفارقة، لتعود لتظهر على مسرح الأحداث سنة 49 ق.م في خضم الحرب الأهلية بين القيصريين والبومبيين، وتكون نقطة اتصال بين البومبيين، كما شهدت انتحار كاتون سنة 46 ق.م نتيجة الانكسار في تابسوس. للمزيد من المعلومات ينظر: Fethi, C., Roland, P., Pol, T., 1995, "La baie d'Utique et son évolution depuis l'antiquité", *Ant.Afr*, vol.31, Aix-en-Provence, pp.7-51.

*** حسب بلين فإن معني قادس أو قادش هي المكان الحصين أو القلعة، أما في الكتب الحديثة فيرجع أصل هاته التسمية إلى أصل سامي، أي بمعنى المناعة والقوة ويقولون انه مأخوذ من كلمة قادر، يحدد جغرافيتها المؤرخ بومبينيوس ميلا (Pomponius Méla) على أنها جزيرة وهي عكس ذلك إنما هي مدينة من ضمن جزيرة، كما يقول ميلا أنها كانت منفصلة عن اليابسة بممر مائي، وارتفع في جانبها رأسين، بني على احدهما مدينة قادس والمقابلة للمحيط، أما الجزء الثاني المطل على البحر المتوسط فشيد عليه معبد الإله المصري هرقل، كما يعتقد المؤرخون على أن هذه المدينة نشأت على أنقاض مدينة ترشيش المذكورة في التوراة، والتي زالت لتحل محلها قادس في القرن الثاني عشر ق.م. حول الموضوع ينظر: غانم، م. ص.، 2003، ص.81.

**** سميت كذلك نسبة للنهر الذي تقع على ضفته اليمنى والذي يصب في المحيط الأطلسي، وهي أقدم المدن الفينيقية في غرب المتوسط، تبع عن مدينة شمالا بأربعة كلم، وكما يصفها كامبس أنها أقدم وأقوى المدن التجارية الواقعة أقصى المغرب، كما تذكر الأساطير أنها بنيت عام 1000 ق.م، إلا أن المعطيات الأثرية ترجع بنائها إلى نهاية القرن السابع كأقصى تقدير. حول الموضوع انظر:كامبس، ق.، 1980، *البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل*، 2010، ص147.

غانم، م. ص.، 2008، *سيرتا النوميدية النشأة والتطور*، عين مليلة، ص.54.

[22] غانم، م. ص.، 2003، ص.ص.78-88-91.

* حنون قائد عسكري قرطاجي وملك قرطاجة من بعد، وقد حكمها في ما بين 480-440 ق.م خلفا للملك هميلكار الأول، وبالإضافة على انه مستكشف وبحارة ماهر كما كان جل القرطاجيين، اشتهر برحلته من قرطاجة إلى سواحل غينيا، وهذا بغرض توسيع دائرة تجارة قرطاجة وبناء مستوطنات جديدة هناك، قاد هذه الرحلة البحرية عام 465 ق.م وعرفت تفاصيل رحلته من نقش الملك القرطاجي نص هذه الرحلة على صفائح علقت بمعبد كرونوس. للمزيد من المعلومات يعاد إلى: Bongars, B., 1843, *Biographie universelle ancienne et moderne : histoire par ordre alphabétique de la vie publique et privé de tous les hommes*, Paris, p.201. Claude, A.; 1919, *Larousse classique illustré*, Paris, p.1547.

[23] غانم، م. ص.، 2010، *مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم*، الجزء الأول، عين مليلة، ص.ص.60-61.

عبراني، كله محمول إما على خبل عقلي كما وصفه البرتني (Albertini)، أو هو هوس ودجل ولا حظ له من التاريخ في شيء.[24]

غير أن ما سنعرضه في هذا العنصر هو الحقيقة دون مزايدة، ولفهم فصول هذه العملية لابد من عرض للصدام الواقع بين القوة المحلية أي قرطاجة، والغازي الجديد روما، ضمن حلاقات صراع عرف تاريخيا بالحروب البونيقية*.

أ-الحروب البونيقية ودورها في تعجيل السيطرة الرومانية على إفريقيا.

بعدما أفل نجم فينيقيا في الشرق أمام زحف الأشوريين، استولت قرطاجة على الشرعية في إدارة المستعمرات في غرب المتوسط، ومنذ القرن السادس ق.م بدأت في ممارسة وصايتها على هذه المناطق ومناطق أخرى كانت خارجة عن سيطرة الوطن الأم، كما لم يسلم من عملية الضم أمام شراهة قرطاجة في التوسع الأراضي الليبية المجاورة وجنوب اسبانيا وشرقها، فكان لها الحوض الغربي بما فيه من جزر كالبليار سردينيا كورسيكا وجزء كبير من صقلية[25]، ويطرح حارش محمد الهادي في عرض هذا الحديث عن عملية تكوين هذه الإمبراطورية، تساؤلا مفاده، إذا ما كانت المستعمرات التي طالها الضم القرطاجي راضية به عن طيب خاطر أم أن واقع الأمر عكس ذلك تماما؟ لكن ما يسرده من أحداث لكفيل بان يشفي غليله، ويجيب عن تساؤله، فيجعل من التحالف مع قرطاجة أمرا حتميا أمام وهن وضعف مملكة صور اثر ضربات الأشوريين المتتالية، إلى أن تسقط بيد الإسكندر المقدوني سنة 332 ق.م، وأن تقبل على مضض تحالفها مع قرطاجة، وذلك لتلافي خطر مزدوج

---

[24] جوليان، ش. ا.، 1931، *تاريخ إفريقيا الشمالية تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي 647 م*، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة1968، تونس، ص ص.70-71.

* الحروب البونيقية هي التي جرت بين روما وقرطاجة، خلال القرن الثالث والثاني الميلاديين، وأصل هذه التسمية تعود للمؤرخين الغربيين الذين يريدون من خلال ذلك تحميل قرطاجة المسؤولية في نشوبها، لكن لو نظرنا مليا إلى حقيقة هذه الحروب لوجدنا أن روما هي من كانت مسببة فيها، بحيث أن روما هي من أتت إلى قرطاجة واستولت على أملاكها وليس العكس وهذا في كل من صقلية وسردينيا، فإذا أردنا أن نكون منصفين دون أن نتحيز لأي طرف من المفروض تسميتها بالحروب الرومانية. للمزيد من المعلومات انظر: سرحان، أ. ب.، 2013، "الحروب البونية بين روما وقرطاجة (264-146 ق.م) أسبابها- أحداثها- نتائجها وموقف الممالك الأهلية المغربية منها."، *مجلة البحوث الدراسات الإفريقية*، العدد 35، جامعة القاهرة، ص ص. 101-120.

[25] نصحي، إ.، 1978، الجزء الأول، ص.ص.195-196.

إغريقي–محلي[26]، ومن مساوئ صدف هذه الدولة الفتية، أنها ستصطدم في توسعها بغريم يكون له نفس التطلعات، وينتهي الحال على وقع طبول الحرب بينهما؛ إلا أن هذا الصدام لم يكن لان يوجد لولا استبعاد العناصر الزراعية التي كانت مسيطرة من قبل على روما، وبذلك تمكن الذين تشبعوا بالروح القتالية وامنوا بالحلول العسكرية من الاستحكام بالسلطة فجعلوا من التوسع قانون تسير عليه روما وسياستها من تلك اللحظة، كما أن الخطر بين الغرمين قرطاجة وروما كان مشتركا في الإغريق والاتروسك (Etrusque)، وبقي توسع التجارة الرومانية مرتبطا بمدى تامين روما للطرق التجارية، وهذا ما يفسر المخاوف التي كانت تراود التجار والصناعيين الرومان أمام تطلعات قرطاجة فيما كان يعرف بجزيرة صقلية، والتي مثلت الفناء الخلفي لشبه الجزيرة الايطالية وبعد استراتيجي لها لابد من السيطرة عليه وهذا ما كان فعلا عام 265 ق.م.[27]

كانت إفريقيا الشمالية مسرحا لصراع مرير وطويل دام ما يقارب ثلاث وأربعون سنة متقطعة، عبر ثلاث فصول، الحرب الأولى (264–241 ق.م)، الثانية (218–201 ق.م)، والثالثة (149–146 ق.م)، وبدأت ملامح هذا الصدام جليا حينما بدأت روما تستطلع الأفق في ما وراء حدود شبه الجزيرة الايطالية، وخرق روما لمعاهدة 307 ق.م بدخولها مسينا*(Messine) لنجدة الممارتين (Mamertins ou Campaniens)، فكان الفتيل الذي أشعل حرب لم تنتهي إلا بتحطيم قرطاجة.[28]

---

[26] حارش، م. ه.، 2014، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر، ص.41.

[27] دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، *الحضارات القديمة*، الجزء الثاني، ترجمة.نسيم واكيم اليازجي، 2000، دمشق، ص.494.

* بحسب تبيريوس أن مسينا تقع بين خليج نابولي والمتوسط، في أقصى الشمال الشرقي من جزيرة صقلية، وبذلك تشرف على مضيق يسمى باسمها، وتعد من أجمل المدن المتوسطية بحقولها الغناء مثل حقول الكروم، ومأثيرها العمرانية من سكنى النبلاء وحدائقهم، كما أنها محاطة بعديد القرى والمدن منها ما بني على أنقاض ما طمر من ثورة فيزوف عام 76 م كمدينة بومباي حيث لقي بلين حتفه، وانتهى خبر المدينة بزلزال مهول عام 1908. للمزيد من المعلومات اطلع على: Desnos, 1783, Description historique et géographique de la ville de Messine, Paris, p.2.

[28] Gaïd, M., 2009, *Les Berbères dans l'histoire de la préhistoire a la Kahina*, Tome 1, Alger, p.58.

كما أن هذه الحرب لم تكن الصدام الأول الذي تخوضه قرطاجة، فقد كان قبل الحروب البونيقية، حروب أخرى كحربها على صقلية في إطار بسط السيطرة على البحر المتوسط، بالرغم من بعض النكسات التي أصابت الجيش القرطاجي، إلا أن القائد مالخوس (Malchus) تمكن من الانتصار على الإغريق عام 550 ق.م بإخضاع جزء من الجزيرة.[29]

ولقد جعلت قرطاجة من أهالي المغرب إما تابعين أو محالفين لها مثل سكان الجنوب أو الغرب، يمدونها بالمرتزقة وقت الحاجة، حيث يشير بوليبيوس (Polybe) لهذه الحقيقة بأن عشرون ألفا من جيش قرطاجة ليس كلهم من رعياها بل من الليبيين المجندين قصرا أو كنوع من الضريبة تفرضها على السكان المحليين، حتى وإن شكل الأهالي من الليبيين الأكثرية من جندية قرطاجة، إلا أن هذا لم ينف وجود مرتزقة مأجورين من أجناس أخرى[30]، ومع تصاعد نجم روما التي بدأت تنسج خيوط نفوذها على كامل شبه جزيرة ايطاليا، كان لابد من الاحتكاك بقرطاجة وهي التي وطأت جزيرة صقلية[31]، ويرجع اعتماد قرطاجة على المجندين أو المرتزقة النوميد أو الأجانب كما أتى سالفا، لأنها وبكل بساطة لم تهتم بالجانب العسكري كاهتمامها بالتجارة والزراعة[32]، وتجدر الإشارة ها هنا على أن المصادر الرومانية لا تتحدث عن المنطقة إلا إذا تعلق الأمر بصراعها مع سكان شمال إفريقيا.[33]

وبدا هذا الصدام حتمية لا مفر منه، وهذا كله لما كان من جانب روما من تصرفات تدفع لذلك، حتى وإن لم تشهر للحرب، فقد ساقت لتدفع بغريمها لان يعلنها هو الأول، وتبدوا من باب المدافع عن نفسه، وهي كما يعرضها جوليان قد بادرت لإعلان حرب وقائية، والتي

---

29 حارش، م. ه.، 1992، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر، ص.52.

30 Polybe, *Histoire générale*, I, LXV. Trad. Dom Thuillier, 1856, Paris.

31 Mercier, E., 1888, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbèberie) depuis lestemps les plus reculés jusqu'a la conquête française (1830),* Tome 1, Paris, p.7.

32 Mercier, E., 1888, Tome 1, p.34.

33 Gsell, S., 1930, *Histoire ancienne de l'Afrique du nord,* T.V, Les royaumes indigènes organisation sociale, politique et économique, Paris, p.15.

Aït Amara, O., 2014, « La conquête de la Maurétanie (39-45) », acte du CXXXVI *CTHS*, Perpignan, p.69.

لم تكن في نظره إلا :" مظهر من مظاهر نفاق استعمارها الاقتصادي والعسكري."[34]، ومن هنا أتت التسمية بالحروب البونيقية لإلصاق التهمة والمسؤولية التاريخية بقرطاجة.

كما أن هذا التصادم بين روما وقرطاجة، مثلما يشير أندري برتيي (André Berthier)، هو ما جعل إفريقيا تلعب دورا تاريخيا منذ القرن الثالث ق.م، ويسترسل برتيي في حديثه عن الحروب البونيقية، أنها هي من دفعت بجحافل الرومان أن تطأ سواحل إفريقيا وهو ما يدفع بها أن تتحدث مصادرها كلما كان له علاقة بالسكان المحليين ووصف جغرافية بلدهم.[35]

- الحرب البونيقية الأولى (264-241 ق.م).

رحى الحرب التي دارت بين قرطاجة وروما دامت أربع وعشرون سنة وبشكل متواصل، مثلما يستشهد كريستوف برجون (Christophe Burgeon) ببليبيوس أنها كانت "الأطول، الأكثر استمرارا والأكثر اتساعا."[36]، مما جعل من هذه المرحلة من الحرب من أهم المراحل، لأنها استطاعت أن ترسم ما سيأتي على قرطاجة، ويدفع ويشجع روما بمواصلة مشروعها التوسعي، كما ستفتح الباب على مصراعيه أمام معادلة جديدة تدخل المنطقة في دوامة صراعات بينية أو مع الأجانب، ونخص بالذكر الرومان أولا.

ما كان مسلما به هو تفوق قرطاجة البحري، وبالمقابل تفوق الرومان في الجيش البري، كما لم يخبر الرومان ركوب البحر، ولا كانت لهم دراية كافية في تسيير المعارك على المياه، ولا اهتموا ببناء أسطول بحري، إلا حينما دعت الحاجة لذلك، أدركوا أهمية الأمر وعلموا أن لا مفر من ذلك، ولا بد من تكوين أسطول بحري يحقق لهم التفوق والانتصار على قرطاجة.

---

[34] جوليان، ش.أ.، 1931، ص.96.

[35] Berthier, A., 1981, *La Numidie Rome et le Maghreb*, Paris, p.33.

[36] Burgeon, Ch., 2017, *La première guerre punique ou la conquête romaine de la Sicile*, Louvain-la-Neuve, p.12.

وتجدر الإشارة إلى أن صقلية، والتي ستكون محور الصراع بين الرومان والقرطاجيين، يصفها ديودور الصقلي على أنها "الأولى والأجمل من بين كل الجزر، والتي بامتلاكها تضمن الديمومة والتفوق للقوة المسيطرة."[37]، وبقيت الحرب مستعرة في الضفة الشمالية للبحر المتوسط مدة ثمان سنوات أنهكت فيها الجيش الروماني لذا اتخذ قرار نقل الحرب إلى عقر دار العدو، فكان ذلك عام 256 ق.م بتجهيز حملة بقيادة كل من مانليوس (Manlius) وريغولوس (Regulus).[38]

كان حادث ارتطام سفينة بونيقية خماسية* على الساحل، الأثر البالغ والحاسم لصالح روما في إحداث تفوق بحري على الرغم من قلة مراسهم وحداثة ركوبهم البحار، فأعد الرومان مائة سفينة على شاكلتها البونيقية، خماسية، وعشرون ثلاثية، فكان المجموع مائة وعشرون أنجزت في غضون شهرين، كما اثبت الرومان جدارتهم في التأقلم والإبداع فعوضوا نقص خبرتهم في المعارك البحرية أمام قرطاجة التي كانت سيدة البحر، آلة تشبه الجسر دعوها "الغراب"، يلقونه على سفن أعدائهم ويمرون بين السفن ويتحركون بسهولة وكأنهم على البر[39]، وهم البعيدون على خوض حروب بحرية كما ذكر من قبل، وبالرغم من ذلك فقد كانت الغلبة لهم تحت لواء قائدهم القنصل دويليوس (Gaius Duilius) في 260 ق.م[40]، وكان هذا أول العلقم الذي تذوق مرارته قرطاجة من منافستها الجديدة روما وما سيأتي يكون اكبر وأشنع، وهذا ما كان فعلا في معركة ايغاتس (Egates) بتاريخ 10 مارس 241 ق.م، حيث انتهت الحرب بتوقيع قرطاجة لمعاهدة الاستسلام والمتضمنة لما يلي:

-دفع غرامة قدرها 2200 وزنة أوبيه تدفع على أقساط مدة عشر أعوام.

-التخلي عن صقلية والجزر الواقعة في خليجها.

---

37 Diodore de Sicile, *Histoire universelle*, XXIII, I, Trad. L'Abbé Terrasson, Paris.

38 Mercier, E., 1888, p.16.

***** وصفا للسفن المجهزة بثلاثة أو أربعة أو خمسة صفوف من المجاديف، وعرفت عند الإغريق: Triere وTetrere وPentrere ، ويقابلها عند الرومان: Trireme وQuadrireme وQuinquiereme لاطلاع على الموضوع عد إلى: إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.43.

39 طراد، ن. إ.، 2008، *تاريخ الرومانيين من بناء رومية إلى تلاشي الحكومة الجمهورية*، الجيزة، ص.130.

40 جوليان، ش. أ.، 1931، ص.96.

-إطلاق سراح الأسرى الرومان دون فدية.

-الامتناع عن التجنيد من ايطاليا ولدى حلفاء روما.[41]

وضمن هذا السياق فان المؤرخ جاك أليكسندربولوس (Alexandropoulos Jacques) قد جعل قرطاجة على المحك حينما وصف الحربين البونيقيتين الأولى والثانية أنهما امتحان عسير للقوة القرطاجية، وأن الحرب الأولى (264-241 ق.م) قد بتر خلالها من ممتلكات قرطاجة، صقلية وسردينيا (La Sicile et la Sardaigne).[42]

غير أن قرطاجة لم تمر على امتحان واحد وحسب وهي الحرب البونية الأولى، بل ازدادت معاناتها، حينما أشهر عليها من جندتهم كمأجورين بقيادة ماتوس* (Mathos)[43]، عصى الانشقاق والعصيان، واضطرمت نار الفتنة والتمرد، وخاض المرتزقة ثورة دامت ما بين (241-237 ق.م)، انطلقت من مدينة سيكا** (Sicca)، وكان لها أن تدرك قرطاجة عواقب نظامها العسكري المعتمد في غالبيته على المرتزقة، وأمام هذه التطورات الخطيرة والمزعزعة لكيان قرطاجة، إذ أن التمرد لم يقتصر على من عجزت عن دفع مستحقاتهم بعدما أنهكتها الحرب ضد روما، بل سيدفع هذا التمرد السكان المحليين إلى الالتحاق به، مما يجبر القرطاجيين على قمعه بأبشع الوسائل أمام كينونتها وبقاءها[44]، فكان هذا الرد ردا وجوديا لقرطاجة حمل لوائه القائد هاميلكار (Hamilcar) بمعية أمير من الليبيين أنفسهم يدعى

---

41 Polybe, III, 21-9, XXVII.

حارش، م. ه.، 1992، ص.51.

42 Jacques, A., 2002, «D'une guerre punique à l'autre : la puissance de Carthage », *Vita Latina*, p.2.

* كان ماتوس ضابطا في الجيش القرطاجي في الحرب البونية الأولى بصقلية حيث تزعم ثورة المرتزقة، واستطاع هاميلكار قمع الثورة بمساعدة ا لزعيم البربري نارافاس ، وصلب ماتوس في حوالي 237 ق م. وكما ينفي عنه الصغير غانم صفة الخشونة والفظاظة التي وصفته إياه المؤلفات القديمة، بل كان يتقد ذكاء، قويا متبصرا وملما بالمسائل الحربية، لأنه تتلمذ في مدرسة هميلكار برقة سيد البحر والبر، وكانت نيته إزاحة التواجد القرطاجي لإنشاء فيدرالية كبيرة من القبائل المحلية، ولقي ندائه استجابة عظيمة من القبائل والمدن الواقعة غرب قرطاجة، ما عدا المدن الساحلية مثل بنزرت وأوتيكا والتي كانت قرطاجة تمد نفوذها عليها. حول الموضوع ينظر: غانم، م.، 2010، ص.106.

43 جولين، ش. أ.، 1931، ص.99.

** تقع سيكا على هضبة تصل بين قرطاجة وسيرتا وتيفست (Theveste) ولقد ذكرت لأول مرة في حرب المرتزقة من عام 241 ق.م، والتي تأخذ أصلها من عدم رضي الجنود المأجورين لدى قرطاجة. كانت قد أنشئت في عام 300 ق.م من جالية صقلية، تقع في الجهة الغربية من جبل دير الكف، محاطة بمعاقل طبيعية. للمزيد من المعلومات ينظر:

Maurice, B., 1886, *Expédition française en Tunisie (1881-1882)*, Paris, p.50.

44 Jacques, A., 2002, p.8.

نرهفاس[45]، واغتنمت روما هذه الثورة التي امتدت حتى سردينا لتجدد حربها على قرطاجة وتفرض شروطا جديدة تضيفها إلى الاتفاق السابق، وفحواه:" القرطاجيون عليهم أن يرحلوا عن سردينيا، وأن يدفعوا 200 وزنة أوبية إضافية، بالإضافة إلى كل ذلك ابرم اتفاق مع القائد اصدربعل باسبانيا يتعهد فيه أن لا تدفع قرطاجة بجنودها إلى ما وراء نهر الإيبر (Ebro-L'èbre)".[46]

وفقا للمنظور السابق فان تناول الحرب البونيقية الأولى، أو حتى الحربيين الأخريين، في غياب المصادر القرطاجية، وأحادية النصوص، ليجعل من التصور المطروح بعيد عن الموضوعية المرجوة، ويكرس ذلك ما يذكره كريستوف برجون فكرة مثل حجة من صمت (L'argumentum e silentio)، والتي وظفت بشكل متواصل ودائم[47]، وأمام هذا يصعب القيام بتصور صحيح وبحث جاد، وكذلك يدفعنا إلى إتباع جانب الحذر في إصدار الأحكام وبلورة الاستنتاجات.

-الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م).

يعود الصراع وعلى صفيح ساخن، وتدعى هذه الحرب في دورها الثاني، بالحرب الحنبعلية*، هذا الأخير الذي سيلعب دور محوريا، مثل ما يسرد تيتوس ليفيوس (Tite-live) أحداث هذه الحرب بالبدء في تلقين هامليكار (Hamilcar) ابنه حنبعل (Hannibal) الذي لم يتجاوز سن تسع أعوام، بالوعد على جسد القربان المقدم للآلهة بأن يكون عدوا لروما[48]، ويواصل تيتوس وصفه لمجريات الحرب، أن القائد حنبعل من يوم توليه قيادة الجيش وهو

---

[45] شنتي، م. ب.، 2012، *نوميديا وروما الإمبراطورية تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال*، الجزائر ص.14.

[46] Polybe, III, 21-9, XXVII.

[47] Burgeon, Ch., 2017, p.15.

* الحنبعلية نسبة للقائد القرطاجي حنبعل، ابن هميلكار (Hamilcar Barca)، ولد عام 247 ق.م أي قبل نهاية الحرب البونية الأولى (264-241 ق.م)، بمدينة قرطاجة شمال تونس، حيث ترعرع في فترة صراع حاد بين دولته وروما، أخذ خصال والده، مثل حبه للحروب والنضال، وكرست فكرة غرس الكراهية والانتقام لديه من أبيه الذي اخذ منه يمينا على ذلك، وهي فكرة رومانية روجها مؤرخوها، يعد قائد يخرج عن المألوف والعادة، ألهم كثير من مشاهير الكتاب أمثال La Fontaine, Victor Hugo, Voltaire، أهملته المص،ادر الأدبية ألا القليل منها، النصوص الأولى التي تطرقت للقائد الفذ، هي من أصل إغريقي، والتي وظفها الكاتب الروماني كورنيليوس (Cornelius Nepos) حول الموضوع ينظر: المدني، أ. ت.، 1986، *قرطاجنة في أربعة عصور من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر، ص.49.
Aït Amara, O., 2009, *les soldats d'Hannibal,* Clermont-Ferrand, p.1-10.

[48] Tite-Live, *Histoire romaine*, XXI, 21, 1, 4. Trad. Panckoucke, Paris.

شاب يافع غر، نصب جنرالا، ظهر وكأنه عين على مقاطعة ايطاليا، وأن عليه قرع طبول الحرب ضد روما[49]، ومثل الهجوم على مدينة ساغنتوم (Sagantum) أو صاغنتة* (Sagonte) عام 219 ق.م، بداية الحرب البونيقية الثانية[50]، ودام حصارها ثمانية أشهر، والذي اعتبرته روما خرق لمعاهدة 226 ق.م[51]، وكان ميدان الحرب هذه المرة يتوزع عبر ثلاث مناطق هي هيسبانيا، إيطاليا وإفريقيا.[52]

بوليبوس هو الآخر لا يدخر جهدا في سرد حيثيات هذه الحرب، ومنها تولي حنبعل حكم وقيادة الجيش بهيسبانيا، القرطاجيون كانوا جد متأثرين بخسارة صقلية وسردنيا، لذا رحبوا بالمكاسب المحققة بهيسبانيا، كتعويض معنوي ومادي عن الخاسرات السابقة، وتمثل كذلك في نظرهم انتقام من الرومان الذين أهانوهم شر إهانة، ولذلك بعد وصول نبأ وفاة اصدربعل الذي عين بدل هاميلكار، تريث القرطاجيون لتعين القائد الجديد ووضعوا نصب أعينهم الشخص الذي يلقى اكبر ترحيب من القوات العسكرية هناك، وكان الاختيار لصالح القائد الفتى حنبعل، ذي الشعبية اللامتناهية بين القرطاجيين والموالين لهم بهسبانيا.[53]

---

49 Tite-Live, XXI, 21, 5, 1.

* تبعد صاغنتة عن مدينة فالونس (Valence) بنحو 25 كلم شمالا، ضرب حنبعل عليها حصارا عام 219 ق.م، لكن فضل سكانها الموت حرقا على الاستسلام للقائد القرطاجي، حاليا هي مدينة مور فيدور (Murviedro)، وتقع إلى الجنوب من نهر الايبرو، وهذا ما يجعل المدينة خارج عن سيطرة روما ولا تشملها معاهدة 226 ق.م. للمزيد من الإيضاح عد إلى:
Henri, W., 1865, *Promenade en Europe et au-delà*, Paris, p.2072.
Eugene, G., 1899, *Excursion dans la péninsule ibérique, Espagne et Portugal*, Paris, p.34
حارش، م. ه.، 2013، *دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة*، الجزائر، ص.42.

50 Gigout, A. L., 2009, « La mise en valeur d'Hannibal à Sagonte : le chef punique comme héros épique à l'aube des punica », *Vita Latina*, p.68.

51 Agnès, P., 1987, « Sagonte trois destins vus de Rome », *M.C.V,* Tome 23, Paris, p.108.

52 Mercier, E., 1888, Tome 1, p.38

53 Polybe, III, VI.

والحقيقة أن الحربين الثانية والثالثة قد أماطت اللثام عن دور ومشاركة النوميد فيها ومنها شخصيتي ماسينيسا* (Massinissa) وسفاكس** (Syphax) وقبلهما الملك غايا*** (Gaia).

كان حنبعل رجل حرب إلى جانب مزايا أخرى، مثل تشبعه بالثقافة الإغريقية[54]، واتخذ قرار عدم تضييع الوقت لكي لا يلقى مصير من سبقوه سواء والده هاميلكار أو اصدربعل، والحكمة تقتضي الاستفادة من تجارب الغير، فصمم على مهاجمة صاغنتة، إلا أن محاصرة المدينة أنفة الذكر قد يؤلب عليه الجيوش الرومانية ويدفعها نحوه، فقرر السير نحو شعب الأولكاد (Olcades)، الواقع ما وراء الإيبر، وهذا كله للتمويه وإيهام العدو بعدم وجود نية بمهاجمة صاغنتة.[55]

ومما تجدر الإشارة إليه أن روما لم تحسب للقائد القرطاجي خبراته وعقله الراجح[56]، فلما علم هذا الأخير في أواخر 218 ق.م إشهار روما الحرب عليه[57]، بعد جملة التطورات الحاصلة بهسبانيا كاستيلائه على مناجم الفضة، قرر حنبعل وفي مبادرة فريدة من نوعها

* ماسينيسا ملك نوميدي عاش فيما بين 238-148 ق.م، حكم نوميديا ما بين 203-148 ق.م، كان والده غايا قد رباه على الشجاعة وحب الوطن، وحسنت تربيته وكانت خليقة بالأسر النبيلة والمالكة، نشأ في مدينة قرطاجة عام 232 ق.م، وفيها تعلم اللغة الفينيقية والإغريقية وأجاد فيها بالإضافة للغته المحلية اللبيبة، قد مثل عبر العصور رمز الوحدة النوميدية، اتخذ من كيرتا (قسنطينة) عاصمة لمملكته، انتقد بسبب موقفه من الرومان ومساعدته لهم للدخول إلى شمال إفريقيا. للمزيد من المعلومات ينظر إلى:غانم، م. ص.، 2010، الجزء الأول، ص ص.124-127.

** لقد ورد اسم سيفاكس في النصوص القديمة، إذ وصفته هذه النصوص على انه متزن الشخصية، راجح العقل ويتميز بحصافة فريدة، كما عرف عنه سداد الرأي، وقد كان لا يبث في أي قرار دون أن يمعن فيه العقل، وبعد دراسة مستفيضة للموضوع المطروح يصدر رأيه فيه، كما أننا وجودنا اسمه في كثير من النقوش البونية على الشكل التالي (س ف ق هـ م م ك ل ت)، والتي تعني مملكة سيفاكس أو الملك سيفاكس. لمزيد المعلومات ينظر: غانم، م. ص.، 1997، "الملك سيفاكس الكيان السياسي النوميدي"، *مجلة التراث*، العدد 9، باتنة، ص.ص. 13-79.

Aït Amara, O., 2009, p.76.

*** غايا أحد أبناء زيليلسن (Zililsan)، ويدعي كذلك غالا (Gala) أوغولا (Gula)، يكون قد أخذ زمام الحكم في مملكة المسيل أي نوميديا الشرقية نحو220 إلى 206 ق.م، عقد علاقات طيبة مع بلاد الإغريق وبلدان الشرق. للمزيد من المعلومات ينظر:Armand, A., 1844; *L'univers Afrique: esquisse générale de l'Afrique et Afrique ancienne. Carthage. Numidie et Mauritanie*, Tome III, Paris, p.94.

Mahfoud, F., 2009, *les rois africains de l'antiquité, nos ancetres les rois numides les aguellids des imazighen (du 3 siècle avant J-C. au 1 siècle après J-C.)* Alger, P.34.

[54] Aït Amara, O., 2009, p.10.

[55] Tite-Live, XXI, 21, 5,2.

[56] جوليان، ش.أ.، 1931، ص.101.

[57] Tite-Live, XXI, 21, 18, 14.

مهاجمة روما في عقر دارها[58]، متحديا كل الأهوال عابرا نهر الإيبر بنية اجتياز جبال البرانس ثم نهر الرون (Rhône) أي جنوب بلاد غالة (Gallia Transalpina)، والوصول إلى سلال الألب، ومداهمة الرومان من الشمال*[59]، وكانت البداية بأربعة وعشرين ألفا من المشاة واثنا عشر ألف حصان[60]، وعندما اجتاز البرانس متجها نحو ايطاليا كان عدد الجند ستون ألفا وسبع وثلاثون فيلا مدربة على فنون الحرب[61]، وقد كان وهو بشبه الجزيرة الأيبيرية على رأس مائة وعشرين ألفا[62]، ولقد اتخذ كل التدابير لتجنب الاصطدام بالجيوش الرومانية إلا وهو في شبه الجزيرة الايطالية[63]، وقبلها في غالة (La Gaule) لم يصطدم بمقاومة تذكر، بالرغم من توصيات الرومان بعدم السماح للقرطاجيين اجتياز أراضيهم خشية نقلها إلى ايطاليا[64]، وبذلك ضمن لنفسه ولاء الغاليين، كما لم يدخر حنبعل جهدا في طريقه لتحقيق مبتغاه أن يجند كل من كان في قلبه ضغينة اتجاه روما، وهذه الخطة والاتجاه نحو الشمال واجتياز جبال الألب الخطرة، إنما جاءت نتيجة لإملاءات فرضتها الظروف ومنها:

1-عدم القدرة على نقل جيوشه وما تبعها من فيلة وخيول وعتاد بحرا.

2-لربما إن مر بحرا قد يصطدم بالجيش الروماني من أول وهلة مما سيقلل حظوظه في النصر ويكسر معنويات جنده، لكن اختياره للمنطقة الشمالية وبخاصة بلاد غالة إنما ينبع من إدراكه أن شعبها يضمر كل الحقد والكراهية لروما.

3-كما بلغه أن حلفاء الرومان ناقمين عليهم، وإذا حقق انتصار بالشمال سيجرهم إلى صفه وسيسندون عضده، مما سيضاعف توقعاته بالنصر.[65]

---

[58] Tite-Live, XXI, 21, 21, 10.

* تظهر هذه الخطة العبقرية التي تميز بها الجيش القرطاجي، وقد اعتمدت من قبل الجيش الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية نتيجة فعاليتها، وقد عرفت بخطة فونش ليفن (Von Chliven). انظر الموضوع: إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.45.

[59] نصحي، إ.، 1978، ص.218.

[60] Tite-Live, XXI, 21, 23, 1.

[61] سنيوبوس، ش.، *تاريخ الحضارة*، تعريب محمد كرد علي، 1908، القاهرة، ص.135.

[62] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.44.

[63] Tite-Live, XXI, 21, 31, 3.

[64] حارش، م. ه.، 2013، ص.45.

[65] نصحي، إ.، 1978، الجزء الأول، ص.217.

غير انه ينبغي القول أن اكبر انجاز حققه القائد القرطاجي، هو اجتياز جبال الألب، ثم الانتصار العظيم في معركة كانا (Cannes)، والتي سمحت للقرطاجيين أن يسيطروا دون أي منازع على ما كان يعرف ببلاد الإغريق القديمة والكبرى (L'ancienne et la grande Grèce)، وهذا الانتصار المظفر ضد القائد إميليوس (Emilius Paullus) الذي لم يدخر أي جهد في المعركة دون جدوى، والذي مات متأثرا بجراحه، أمام خطة عسكرية محكمة، كللت بالنصر، أذعنت كثير من الشعوب لحنبعل مثل التارنتين (Tarentins)، وأمام هذه التطورات ارتعد الرومان خوفا من سقوط روما وضياع ملكهم.[66]، كما أن معركة كانا تعد من اخطر الهزائم التي أصابت روما، وهذا لفداحة الخسائر حيث لقي اثنان وسبعون ألف شخص حتفهم واسر عشرة ألاف من أصل ستة وثمانين ألف جندي شاركوا في المعركة[67]، كما فضل حنبعل عدم المسير صوب روما بسبب خوفه من الجيش المرافق له والمكون اغلبه من المرتزقة، وبدل ذلك واصل انتهاج نفس أسلوبه الذي حقق له النصر والغلبة على أعدائه فيما بعد[68]، وهذا يظهر أهمية "القائد النموذج" وتأثيره في أتباعه وخصومه ومجريات الأحداث وثمرتها.

وكانت نتائج تلك العمليات العسكرية الجريئة التي قادها جنود قرطاجيون طموحون أمثال هميلكار قبل الحرب الثانية في اسبانيا، ومن بعده حنبعل تندرج ضمن إطار الرد على الزحف الروماني، وتهديده للتواجد القرطاجي، كما أنها مثلت في الوقت نفسه مثل ما يقول شنيتي :"تهديدا صريحا للوجود الروماني نفسه في روما."[69]

لكن الفرحة لم تكتمل لدى القرطاجيين، فالهجوم المعاكس الذي قام به سيبيون الإفريقي ونقله الحرب إلى إفريقيا لكسر الطوق على روما، مستفيدا من تجارب أغاثوكليس (Agathocles) وريغولوس (Rigulus)، قد جدد الانتكاسة وحول الانتصار إلى هزيمة في

---

66 Polybe, III, XXIV.

67 إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.114.

68 Mercier, E., 1888, tome. I, p.32.

69 شنيتي، م. ب.، 1982، ص.53.

معركة زاما* (Zama) عام 202 ق.م وفرض الشروط القاسية بإبرام معاهدة** عام 201 ق.م.[70]

-الحرب البونيقية الثالثة (149-146 ق.م).

الحرب في طبعتها الثالثة كانت مما تصبوا إلى تحقيقه روما، وهو القضاء التام والكامل على قرطاجة، وبالرغم من أن المدينة قد جردت من سلاحها لكنها بقيت تثير مخاوف روما، وأضحى الرومان متيقنين أنها قادرة على استعادة عافيتها من جديد وبناء قوة ضاربة في شمال إفريقيا والانتقام واخذ الثأر، وهذا كله نتيجة النماء وإعادة بعث الزراعة والتجارة في فترة وجيزة، رغم ما دفعته من غرامات، وخسارة جزء مهم من إمبراطوريتها كهسبانيا، صقلية، سردينا وكورسيكا، ولذلك وظف كاتون*** (Caton) المنتج الفلاحي (حبة

---

* ذكرت زاما لأول مرة من المؤرخ الروماني كورنيليوس (Cornelius Nepos)، حينما كان بصدد الحديث عن مكان أهم وآخر معركة للحرب البونية الثانية، تقع في الجزء الشمالي الشرقي لتونس، على بعد خمسة أيام مسير عن مدينة قرطاجة. حول الموضوع ينظر: Ait Amara, O., 2009, p.63.

** احتوت معاهدة زاما البنود التالية:

1. تحتفظ قرطاجة باستقلالها وممتلكاتها في إفريقيا.
2. تسليم كافة الفارين والأسرى.
3. أن تسلم ما تملكه من سفن، باستثناء عشر سفن ثلاثية، وتسلم كافة أفيالها مع التحجير عليها ترويض أفيال أخرى في المستقبل.
4. ألا تثير حربا خارج إفريقيا أو داخلها في المستقبل.
5. أن تعيد لماسينيسا كل ممتلكاته وممتلكات أسلافه.
6. أن تمد قرطاجة جيش روما بالمؤن والأجور حتى تتم المصادقة على المعاهدة.
7. تدفع غرامة حربية تبلغ عشرة ألاف (10.000) وزنة أوبيه من الفضة، وتدفع أقساطا موزعة على خمسين سنة (أي 200 وزنة أوبيه في العام).
8. تسلم مائة رهينة (100) رهينة، يختارها القائد من البالغين ما بين 14-30 سنة كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة. لمزيد من المعلومات ينظر: رمضان، ت.، 1993، "معاهدة زاما(201 ق.م)"، *توالت. مجلة الدراسات التاريخية*، العدد السابع.

ويري الصغير غانم أن هذه المعاهدة زادت من تورط الملك الماسيلي في تكريس الوجود الروماني بالمنطقة لان اغلب بنودها أتت لصلح الرومان. حول الموضوع انظر:غانم، م. ص.، 2006، ص.63.

حارش، م. هـ.، 1992، ص. ص185-186.

70 شنيتي، م. ب.، 1982، ص.53.

*** ولد كاتون عام 237 وتوفي سنة 142 ق.م، يعد من أكبر ساسة روما وأبلغ خطبائها، ترك كتابا في الزراعة يبرز ما مدى رفعة مداركه ورجاحة عقله، أشتهر بسبب الموقف الذي اتخذه حيال قرطاجة بدفع مجلس الشيوخ لتحطيمها، بعدما زارها عام 150 ق.م لتقصي الحقائق بعد الشكوى التي قدمتها قرطاجة ضد ماسينيسا، فذهل كاتون لما رآه من تقدم حضاري وتطور في فنون الحياة وجلب معه حبة تين لروما وخطب في المجلس أن من ينتج مثل هذا مشيرا لحبة التين ليشكل خطرا علينا، وهي تبعد عن روما مسيرة ثلاثة أيام فيجب تحطيم قرطاجة (Delenda est Carthago)، وكان دوما يردد هذه العبارة كلما ألقى خطابا، فكان له ذلك عام 146 ق.م بدك سيبيون الاميلي المدينة وأضرم فيها نارا بقيت أسبوعين وهي متقدة، ثم دك ما بقي بالمعول، وذر الملح من فوقها، كما اعلنتها روما ارضا ملعونة، وبيع ساكنوه في سوق النخاسة. للمزيد من المعلومات ينظر: المدني، أ. ت.، 1986، ص ص.68-77.

تين) كدليل على هذه القناعة بوجوب دكها، ومحو أثرها إلى الأبد (Delenda est Carthago).[71]

إنما الأمر الذي ستسوقه روما لإيجاد التبرير لحمل لواء الحرب من جديد، هو ادعاء خرق قرطاجة لمعاهدة 201 ق.م، إذ غضت روما الطرف أمام توسعات ماسينيسا في إطار استعادة أملاك أجداده (regnum paternum)، وفي هذا الصدد يتحدث بوليبوس عن هذه الجزئية أن الملك النوميدي استهوته المدن الساحلية مثل السيرت الصغير (Syrtus minor) والامبوريا* (Emporia) التي كانت خزان الحبوب لقرطاجة، فجند نفسه وجنده للاستيلاء عليها[72]، ويذكر جلبار مانيي (Gilbert Meynier) أن إطلاق يد ماسينيسا في السيرت الكبير (خليج سيرت) الواقع شرقا، والسهول الكبرى (مجردة) (Les grandes plaines)، كان من قبيل الجزاء لولائه لروما ومد يد العون لها في حرب كانت قد خاضتها في مقدونيا (Macédoine)[73]، غير أن هذا التطور لسير الأحداث لم يرق لروما خوفا من صعود قوة محلية تضيع عليها فرصة مد يدها على المنطقة.

وما كادت الحرب البونيقية الثالثة تنتهي، أمام خراب قرطاجة ونهب ما كان فيها من ممتلكات ثمينة حملت نحو ايطاليا مرورا بنهر التيبر (Tibre)[74] حتى دفعت روما من عايشوا ملحمة قرطاجة ونجوا من أهوالها، أن يغادروا أراضيهم وممتلكاتهم إلى حيث يجدون الترحيب في المدن الفينيقية، بعضهم لجأ إلى المدن التي نجت من صرامة مجلس الشيوخ الروماني

[71] المدني، أ. ت.، 1986، ص.ص.68-69.

* بحسب التعبير الذي يستعمله رولان (Rollin) في كتابه الأعمال الكاملة أن الإمبوريا (Emporium) أو (Emporia) وهي مدينة بإفريقيا، تقع على طول السرت الصغير (La petite Syrte)، تمتاز بخصوبة كبيرة، وتقع بها عدة مدن منها لبدة (Leptis) أو تعرف أيضا بـ (Lempta) وهي الأكثر أهمية، ولربما للأهمية الاقتصادية للمنطقة المذكورة أصر ماسينيسا على إلحاقها بنفوذه. حول الموضوع ينظر: Charles, R., 1826, Tome 2, p.117.

[72] Polybe, XXXI, 21.

[73] Meynier, G., 2007, *L'Algérie des origines de la préhistoire à l'avènement de l'islam,* Alger, p.51.

[74] Cagnat, R. L-V., 1913, *L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs*, Paris, p.4.

مثل لبدة الصغرى (Leptis Minor)، أو أوتيكا، وهذا في إطار ما يعرف بالمجال العام (L'ager publicus).[75]

وبزوال قرطاجة، تكون روما قد كسرت أصعب عائق أمام عمليات التوسع التي خاضتها، وورثت حضارة راقية في حوض المتوسط.[76]

ب- سقوط قرطاجة وبداية الاحتلال الروماني.

يتضح مما سبق أن سقوط قرطاجة سيكون بداية لأهوال تتلاحق على المنطقة، إذ قرر عشرة شيوخ من مجلس روما (Senatus) على اعتبار ممتلكات قرطاجة بعد سحقها، أرضا رومانية في ربيع عام 146 ق.م، ولقيت المدينة مصيرها بعد أن حكم عليها بالموت والفناء فظهرت للوجود المقاطعة الرومانية (Provincia Africa) أو افريقية (Africa)، مثلما يصوغها سترابون عن الاستيلاء على قرطاجة وتدميرها وتحويلها إلى مقاطعة تابعة لهم قوله:" الرومان أنشؤا مقاطعة تابعة لهم فقط على الجزء التابع للقرطاجيين."[77]، وبذلك بدأ سيناريو نسجت خيوطه بإحكام لتنفيذ صك الاحتلال الروماني للمنطقة[78]، وهذا ما يؤكده أيضا بول ألبير فيفري (Paul-Albert Février) أن ما بعد 146 ق.م التي سجلت نكسة قرطاجة، مما استدعى سيطرة روما على جزء محدود من إفريقيا الشمالية، لكن هذا لا يعني البتة أن روما غضت النظر عن باقي المناطق.[79]

وإنما هذه الرغبة في التوسع لم تكن وليدة سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م، بل ولدت، نمت، وتطورت مع روما المدينة، والتي ما فتئت توسع من دائرة سلطتها على كامل شبه الجزيرة الايطالية منذ القرن الرابع قبل الميلاد، وقد استغرقت نصفه الأول لإخضاع كل من السامنتيين والاتروسكيين (Les Etrusques)، وهذا لم يمنع من تحالف الشعوب المعادية لها

---

[75] Fantar, M., 1970, p.239.

[76] شنيتي، م. ب.، 1982، ص.54.

[77] Strabon, *Géographie*, XVII. 3, 15. Trad. Gabriel de La Porte Du Theil, 1819, Paris.

[78] جوليان، ش. ا.، 1931، ص.146.

[79] Février, P. A., 1989, *Approches du Maghreb romain pouvoir différences et conflits*, T.I, Aix-en-Provence, p.p.93-94.

وتهديد وجودها لأكثر من مرة، غير أن الحظ كان حليفها، كما كان القدر قد سطر لها أن تستمر وتتفوق على أعدائها المتحالفين.[80]

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة التي ربطت النوميدين بروما لم تخرج عن إطار تبادل المصالح الاقتصادية والعسكرية، والتي كانت تصب كلها في مصلحة الرومان مقابل استقرار مملكة نوميديا وحماية عرشها، لكن هذا لم يمنع روما من تنفيذ خطتها في بسط نفوذها بشكل تدريجي وعلى أطوار، ومرت المنطقة بثلاث مراحل مثل ما يشير إليها محمد صغير غانم، فالمرحلة الأولى مرحلة قوة مارس فيها النوميد سلطتهم على مقدرات بلادهم، إذ بقى فيها الوضع على حاله خلال حكم ماسينيسا وبعده، فأثناء حكم ابنه مكوسن* (Micipsa) (MKW'SN)، الذي انصرف إلى تطوير نوميديا، وتحقيق نماء اقتصادي في الزراعة والرعي، وأيضا ميزها الصراع مع الإقليد النوميدي يوغرطة** (Jugurtha)، فيما عرف بحرب يوغرطة (Bellum Jugurtum)، بحيث اكتفت روما فيها بفرض السيطرة على لبدة (Leptis)[81]، أما المرحلة الثانية فمرحلة ضعف، حيث أضحى النوميد تحت وصاية الرومان، واتسمت بالتبعية التامة باعتلاء العرش حكام ضعاف، لا يقدرون على الخروج عن طوع

---

80 شنيتي، م. ب.، 1982، ص.46.

* مكوسن هو احد أبناء ماسينيسا البكر، ولد في حوالي العام 200 ق.م، يذكر على انه تربي على كره القرطاجيين ومسالمة الرومان، لم ينجب إلا في سن متأخرة من عمره، تولى الحكم وقد بلغ من العمر خمسون ربيعا، رأى في طموح ابن أخيه المتبنى يوغرطة مخاوف على ابنيه هيممبصال (Hiempsal) وادربعل (Adherbal) ومستقبلهما، لذا أراد حسب ساليستيوس التخلص منه في حرب اسبانيا، والتي حقق فيها يوغرطة انتصارات كبيرة ونال إعجاب الرومان. للمزيد من المعلومات أنظر: غانم، م.، 2010، الجزء الأول، ص ص.127-128.

** يوغرطة ابن مستنبعل (Manastabal) أحد ورثة عرش ماسينيسا، ولما فارق كل من مستنبعل واخاه غلوسة (Gulussa) الحياة، استفرد ميكيبسا بالعرش، وقد تبنى يوغرطة، ويذكر ساليستيوس أن يوغرطة في مؤلفه الشهير حرب يوغرطة خصال هذا الاخير، على انه ومنذ نعومة أظفاره كان معروفا بالشجاعة، وقوته البدنية والعقلية، كما اتصف كذلك بالجمال، وبالرغم من عيشه بدار الحكم فقد كان ينئ عن حياة الترف والبذخ، ويهوى ممارسة كل أنواع الرياضة مثل ركوب الخيل ورمى الرمح، وهي كلها صفات جده ماسينيسا التي يبدو انها قد انتقلت إليه، كما كان ينتصر على من هم من اقرانه في امر ينازلهم فيه، وحتى الخوف من الوحوش لا يعرفه وهو حديث السن، فكان يطارد الأسود ويصطادها، ولما رفع عصى المعصية على روما فاقت شهرته مكان تواجده، وقد استغرقت حربه على روما مدة خمس سنوات من 111 ق.م إلى 106 ق.م، والتي مثلت استمرارية لحروب الرفض لأي شكل من أشكال الاحتلال بالمنطقة وجسدت بحق شعار " إفريقيا للأفارقة".للمزيد من الاطلاع ينظر:

Salluste, *La guerre de Jugurtha*, VI, trad. Ch. Durosoir, 1865.

غانم، م. ص.، 2010، الجزء الأول، ص ص.129-132.

81 حارش، م. ه.، 2014، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر، ص.164.

روما وإلا يزاحون بالقوة، أما آخر مرحلة فهي مرحلة الاحتلال العسكري والتوطين البشري الروماني.[82]

كانت روما كلما احتلت منطقة إلا وحددت مساحتها، والحال نفسه حدث مع سقوط قرطاجة، إذ أقدم سيبيون على فصلها عن مملكة ماسينيسا بحفر خندق (Fossa Régia)* والذي تبدأ حدوده من الوادي الكبير قرب طبرقة منحدرا نحو الجنوب الشرقي محاذيا لكل من باجة** (Vaga) أو (Béja)، ودوقة (Dougga)، منعرجا نحو الشرق وصولا إلى جبل فكيرين (زغوان حليا)[83]، ويتربع على مساحة خمس وعشرون ألف كلم مربع، ويأخذ هذا الخندق شكل هلال[84]، كما حدد القائد سيبيون والمندوبون العشرة المكلفين من مجلس شيوخ روما إلى رسم حدودها، بالإضافة إلى ضبط نظامها، والمناطق الآهلة، فعرف بقانون الولاية (Lex provinciae).[85]

حينما سقطت قرطاجة لم يعد من عائق أمام توسع روما سوى الممالك المحلية وأكبرها مملكة نوميديا*** الموحدة، لذا سعت لتدميرها، وقد استغرق ذلك قرابة القرن وانتهى الأمر لصالح روما.[86]

---

[82] غانم، م. ص.، 2006، *المملكة النوميدية والحضارة البونية*، عين مليلة، ص ص.74-75.
غانم، م. ص.، 2010، ص.146.

* قام القائد الروماني سيبيون الإميلي رفقة عشرة من الموظفين الذين أوفدهم مجلس الشيوخ إلى شمال إفريقيا، بعد تدمير ودك قرطاجة عام 146 ق.م، بحفر خندق يمتد على طول الخط الفاصل بين خليج قابس إلى طبرقة على مدى الساحل للبحر المتوسط، وهذا من أجل عزل الولاية التي أنشاها الرومان بالمنطقة عن باقي القارة، وعرفت بإفريقية. للمزيد من الإيضاح والاطلاع ينظر إلى: المدني، أ. ت.، 1986، ص.75-76.

** دعيت بباقا (Vaga) والتي تعني البقرة الحلوب، وأيضا توحي بحقول السنابل المتموجة، وهي إحدى أهم المدن التونسية التي تقع في القسم الشمالي الغربي على بعد قرابة مائة كيلومتر عن تونس العاصمة، وعلى نفس المسافة من الحدود التونسية الجزائرية، كما تعد أخصب المناطق الموجودة على مشارف جبل الخمير (Kroumirie)، وهي بذلك تمثل أهم مدن المنطقة وأكثرها إنتاجا للحبوب، يجري بالقرب منها واد مجردة وواد مليانة، وازدادت اهميتها حينما أسس بها جامع القرويين عام 674 م، تأثرت بالحروب البونيقية الثلاث خاصة خلال الحرب الثانية، وتعرضت في الفترة الرومانية إلى عملية الرومنة بشكل كبير، للمزيد من الإيضاح ينظر إلى: Maurice, B., 1886, p.21.

[83] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.ص.146-148.

[84] شنيتي، م. ب.، 1982، ص.55.

[85] قزال، إ.،1930، *تاريخ شمال إفريقيا*، الجزء السابع، ترجمة محمد التازي سعود، 2007، الرباط، ص.7.

*** تمثل مملكة نوميدية الموحدة أول دولة جزائرية ضمن حدودها الحالية تقريبا، فأول عملية توحيد تعود لعام 206 ق.م على يد الملك الماسيسيلي سيفاكس، ثم بعد ذلك أتي الملك ماسينيسا ليجسد هذا الهدف في مدة اطول عام 203 ق.م، والتي كانت قبل ذلك تتقاسمها كل من مملكتي الماسيل تحت إمرة الملك غايا، ومملكة الماسيسيل تحت حكم الملك سيفاكس. حول الموضوع ينظر: غانم، م. ص.، 2010، ص.232.

[86] جغلول، ع. ق.، 1982، ص.13.

ومما سبق يتضح لنا أن علاقة النوميد بالرومان، ما هي إلا علاقة برغماتية بالدرجة الأولى، وإنما أمهلت روما للممالك المحلية وقتا، سوى لتهيئة الظروف المواتية للانقضاض عليها ، وما أتى من بعد أكد ذلك.

3- مملكة نوميديا بعد وفاة ماسينيسا.

بحلول عام 148 ق.م يكون ماسينيسا قد انتقل إلى عالم الأموات[87]، تاركا ورائه مملكة مترامية الأطراف، تمتد من ملوشا* (Mallucha) شرقا إلى حدود المقاطعة الرومانية والسيرت الكبير، استمر حكم ماسينيسا في أبنائه الثلاث من بعده برضا من روما، لكن ابنه البكر مكوسن قد استفرد بالحكم بعد موت أخويه غلوسا (Gulussa)(G'L'SN) ومستنبعل (Mastanabal) (M'S'TN'BL)[88]، هذه الصيغة في الحكم وهو التسيير الثلاثي لدواليب الدولة أصبح مألوفا ومتداولا، فبعد وفاة مكوسن عام 118 ق.م، تقاسم الثلاث أبناء العاهل النوميدي المتوفى، هيمبصال (Hiempsal) وأدربعل (Adherbal) ومتبناه يوغرطة الحكم.[89]

هكذا فان الوضع كما هو مرسوم أعلاه قد تجاذبته الأهواء والمصالح فأقحمت المنطقة في صراعات على الحكم، وصراع مع القوى المتطلعة للسيطرة الكلية والتامة، ولهذه الأسباب أو تلك لم تهدأ المنطقة إلا وقد استسلمت للأجنبي الجديد وهذا عام 46 ق.م، ولم يبق إلا جزء منها في المناطق الغربية سيلحق فيما بعد.

وتجدر الإشارة إلى انه بالرغم من محولات إعادة رص الصفوف وهيكلة الدولة النوميدية بعد وفاة مكوسن، كمحاولات يوغرطة ويوبا الأول، لم تثمر بنتيجة بل باءت كلها

---

[87] حارش، م. ه.، 2015-2016، "الدولة الجزائرية (مملكة نوميديا من منظور المصادر الإغريقية. اللاتينية (دراسة تحليله)" ، *أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، تكريما للأستاذ محمد البشير شنيتي والأستاذ الدكتور محمد خير أورفه لي، الجزائر، ص.141.

* يذكر قزال أن وادي ملوشا (ملوخاث Molochath) هو الحد الفاصل بين مملك المور ومملكة سيفاكس أي الماسيسيليين، وأصبح يدعى في أوائل القرن الأول ق.م، باسمين هما ملوشا (Mulucha) وملوا (Malva)، وخلال عام 42 م فصلت ملوية (Moulouya) بين موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية، ويبلغ طوله 600 كلم، ينبع من الأطلس المتوسط وجبال الريف ويصب في البحر المتوسط، وهو أهم نهر بالمغرب الأقصى. للمزيد من المعلومات يعاد إلى: قزال إ.، 1930، الجزء الخامس، ص ص.86-87.

[88] شنيتي، م. ب.، 2012، ص.20.

[89] Salluste, X, XII.

بالفشل، ومما زاد في تدهور الأوضاع هو التدخل المباشر للرومان، وكذلك الجالية الايطالية المتركزة بكيرتا* (Cirta) وباجة.[90]

وواقع الأمر أن روما قد نفذت خطة لتحافظ على أمنها، على أن يكون البحر أو الأمم غير المسلحة على حدودها، ومن اجل ذلك سعت لإضعاف الشعوب المتاخمة لها وخلق ما عرف بالممالك الصامتة، أو أخرى تعرف بالحاجزة يتولى أمرها ملوك تابعين لها، وهذا خير من الحدود المحصنة.[91]

4-الحرب الأهلية ونهاية الممالك المحلية.

دفعت أسباب ذاتية يوبا الأول** (Juba I)، حيث كان أسير حقده، أن يصطف إلى جانب بومبيوس*** (C.N Pompeius)[92]، أي الحزب الارستقراطي (Optimates)، إلا أن

---

* تنطق كيرتا لان حرف (C) ينطق باللاتينة (K)، وقد ورد كتبتها على إحدى النقود الموجودة بمتحف قسنطينة، وعلى هذا الأساس فإن (Cirta) تنطق كيرتا (Kirta). وكانت تدعى كرطة من الفينيقيين والذي يعني "حصن"، ولقي التحريف من الرومان فأصبحت تدعى كيرتا، أما صغير غانم فيرى أن الأصل هو كرتن (ك ر ط ن) (Krtn) ومعناه المدينة أو القلعة المنيعة والمحصنة طبيعيا. ويورد نقود برونزية تحمل كتابة ترمز إلى اسم كرتن ولضرورة النطق اللاتيني أصبحت فيما بعد بالفرنسية بسيرتا حول الموضوع ينظر:غانم، م. ص.، 2006، ص.115-116-221

90 غانم، م. ص.، 2006، ص.73.

91 حسين، ش.، 2005، *الرومان*، مصر، ص.71.

** يوبا الأول هو الابن البكر لهمبصال الثاني، ترعرع داخل قصر والده ولازمه أثناء ملكه، ظهرت عليه ملامح التطلع الطموح إلى الحكم منذ نعومة أظافره، فكان دائما يحرص على الظهور بمنظر لائق أمام الآخرين مما يوحي بهذا التطلع المبكر، كما كان حريصا على المحافظة على العادات والتقاليد الموروثة من مجتمعه، ولم يستهويه ما كان وراء البحر، ولم يكن يقبل التقليد سواء من الرومان أو الإغريق، وهذا ما يبين تطلعاته الوطنية ويبرر ما سيقدم عليه من بعد من حربه ضد قيصر، كما عرف عنه حبه للميدان العسكري والمشاكرة في المعارك الحربية بعكس والده، تقلد الكثير من المهام الدبلوماسية في حياة والده، وهذا ما جعل الخطيب شيشرون (Cicéron) يلمح الأمير وهو في إحدى مهامه بروما، ولما تقلد الحكم سنة 50 ق.م وجد نفسه قد آلف العمل السياسي ووجد سهولة في تناوله، وكان كما ذكرنا بعيدا عن التأثيرات اليونانية أو الرومانية فكون حرسه من الأسبان والغاليين، كانت زما (Zama) عاصمة مملكته التي لم يكتفي بتزيينها بالقصور الفاخرة، بل أقام حصن ثلاثيا لتكون أكثر حصانة. حول الموضوع اطلع على: Mercier, E., 1888, V.3, p.74.

*** كينيوس بومبيوس ماكتوس (106-48 قم)، سياسي وقائد روماني، ينتمي إلى عائلة عريقة، أظهر منذ حداثة سنه مناصرته وميله لسناتوس، في حين كان يوليوس قيصر يتعاطف مع حزب الشعبيين، حينما عاد سولا (Sulla) من إفريقيا عام 83 ق.م انضم إليه بعدما كان من أنصار ماريوس، ومن حينها تخلى عنه وحاربه في كل من صقلية وإفريقيا سنة 82 ق.م، عينه سولا ماجنوس (Magnus)، ولما مات سولا راى فيه مجلس الشيوخ خليفته، عين سنة 70 ق.م قنصلا رغم صغر سنه، وبعدها اشترك في حكم روما مع كراسوس (Grachus) وقيصر، ولما مات كراسوس سنة 53 ق.م، بعدها عرف بومبيوس خلاف مع قيصر انتهى الامر بحرب انهزم فيها بوميوس ومات فيها بمعركة فارسالوس سنة 48 ق.م. حول الموضوع أنظر: حارش، م. ه.، 2008، "الجذور التاريخية لمملكة نوميديا"، *مجلة الإتحاد العام الأثاريين العرب*، العدد 10، القاهرة، ص. 285.
مصطفى، ع.، 1999، *الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية*، الإسكندارية، ص.ص. 47-50.

92 قزال، إ.، 1930، الجزء الثامن، ص.7.

ضغينته هذه على يوليوس قيصر* (Julius Cesar) (انظر الصورة رقم:1 ص.42) ستلقي به إلى حتفه، وينتصر قيصر انتصارا مؤزرا على خصومه بمعركة تابسوس** (Thapsus) 6 فبراير من عام 46 ق.م[93]، وركن يوبا الأول للهزيمة وتنكر له ذويه من أهله وعشيرته وأوصدت أمامه أبواب عاصمة مملكته زاما كما نفذ اليأس إلى قلب الملك النوميدي بعدما استسلم جميع رؤساء القبائل والقادة والجند للسيد الجديد، قيصر، فما بقى ليوبا إلا أن يعطي لنفسه حق الموت[94]، وأمام هذه الأحداث الأليمة ينقل قيصر مجريات عملية الانتحار وكيفيتها قائلا ضمن كتابه "حرب إفريقيا" :

والحالة هذه، فإن الملك الذي أغلقت كل الحواضر أبوابها في وجهه قد يئس من النجاة، واتفق مع بيتريوس (Petreius) أن يتقاتلا بالسيف كي يمنحا نفسيهما وفاة مشرفة. وانتهى الأمر بطعن بيتريوس يوبا وقتله. بعد ذلك حاول بيتريوس أن يُغمد سيفه في صدره فلم يفلح، وحصل أن قتله أحد عبيده.[95]

---

* كايوس يوليوس قيصر (CAIVS IVLIVS CAESAR IV) ولد عام 100 ق.م ومات عام 44 ق.م، أول من أطلق على نفسه لقب إمبراطور، تولى الحكم عام 49 ق.م، وكما سبق ذكره ينحدر من عائلة عريقة بروما وهي أسرة جوليا (julia)، ونظرا لشهرته وثقافته الواسعة فلقد تبنى الكثيرون بعده اسمه تيمنا بهذا القائد الفذ، عايش في شبابه الحرب الأهلية بين سيلا (Sylla) وماريوس (Marius)، استطاع يوليوس قيصر أن يلعب كل الأدوار وبجدارة فكان السياسي المحنك الذي كانت له القدرة على رفع التحديات وأن يقضي على خصومه، لعب دور العسكري البطل والمنتصر كان قائد محبوبا لدى جنده بحيث استطاع استمالتهم وربى فيهم حب الذات والاعتزاز، كما كان يشتري ولاء جنده وذممهم بالمال الذي كان يجمعه من الحروب حيث كان يقول :"إذن بالمال يكون لنا جند، وبالجند نسرق المال." حتى يبرر أعمال النهب ومنها الأماكن المقدسة، كذلك لعب دور المؤرخ، فكان من بين أشهر كتبه "حرب غالا"، كما استطاع ان يبرع في المجال العالمي حيث اخترع شيفرة سميت باسمه، كما كان تاريخه مملوء بالحروب والانتصارات سواء في غالة (La Gaule) أو اسبانيا أو إفريقيا، للمزيد من المعلومات طالع: Baudement, T., 1865, « Vie de César », *C.B.O*, Paris, p.p.158-181.

** وفق التقرير الذي قدمه السيد اوسكار داميشال (Oscar Damichel) ملحق بوزارة التعليم ومكتبي بمدينة بون (Bone)، وضع خط جغرافيا لمدينة تابسوس الذي يتوافق حاليا مع مدينة ديماس (Dimas) أو حسب قزال "برأس ديماس" وهو مرتفع يمثل زاوية تكاد تكون قائمة تتجه أضلاعها من الغرب للشرق ومن الشمال للجنوب، ومن ورائها إلى الجنوب الغربي توجد بحيرة عريضة تدعى "سبخة موكنين"، ولا تزال بقيا المدينة القديمة واضحة مثل الميناء الذي يمتد 206 متر على طول الساحل بالاضافة الى بقيا صهاريج رومانية، وتشهد هذه البقايا المترامية على عظم المنشئات والمدينة، وهي في الأصل مدينة فينيقية تتموضع بالشمال الشرقي لواد بكانس (l'Oued-Bikens)، وقعت فيها معركة حاسمة يوم 6 ابريل 46 ق.م بين يوليوس قيصر من جهة وسكيبويا ميتيللوي ويوبا الأول من جهة ثانية، بحيث انتصر قيصر على منافسيه وحطت الحرب أوزارها في إفريقيا وخلفت خسائر في محيط المدينة وتحولت بعدها تابسوس إلى مستوطنة رومانية. حول الموضوع ارجع إلى:

Damichel, O., 1921, « Thapsus », *B.S.G*, Paris, p. XXIX

93 شنيتي، م. ب.، 1982، ص.60.

94 Christa, L., 2007, « Les portraits de Juba II, roi de Maurétanie, et de Ptolémée, son fils successeur », *R.A*, N°43, Paris, p.p.65-110.

95 Pseudo-César, *La guerre d'Afrique,* XCIV, Trad. G. Budé, 1949, Paris.

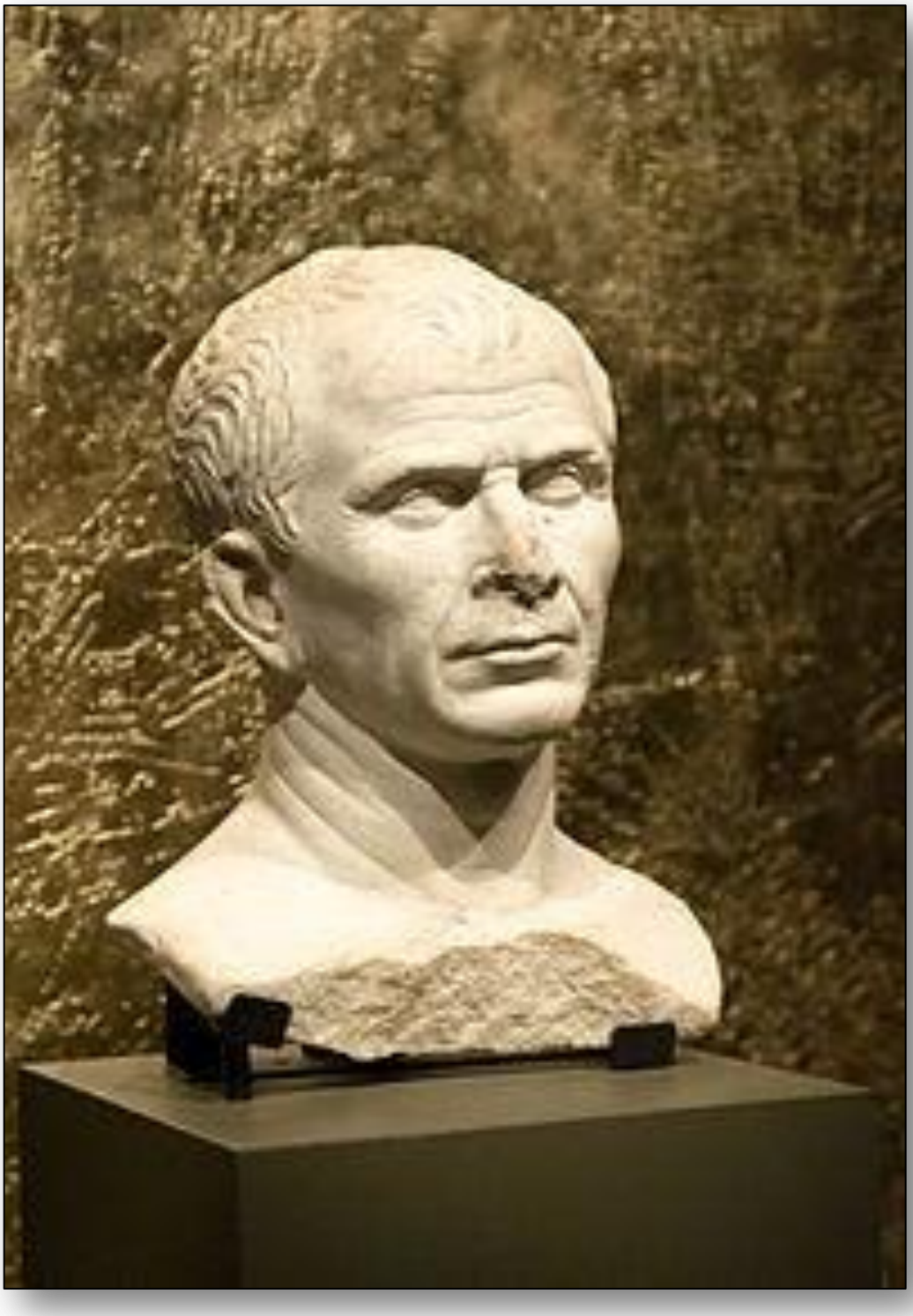

الصورة رقم: 1– **تمثال نصفي من الرخام ليوليوس قيصر**

عثر عليه في اقليم بوش دو رون بالقرب من آرل (Arles).

Beard, M., 2002, « A quoi ressemblait vraiment Jules César », Url. https://www.nationalgeographic.fr/histoire.

وفي خضم الخط الزمني لتطور الأحداث، والتي صبت كلها لصالح قيصر، ستحدد روما في شخص حاكمها الجديد مصير نوميديا، فسلم جزئها الغربي الممتد ما بين كيرتا وموريطانيا (Maurétanie)، للملك بوخوس* (Bocchus)، أما الجزء المتكون من سيرتا وميلوف (ميلة) وشولو (القل) وروسيكاد (سكيكدة) منحت لسيتيوس** (Sittius) ورفاقه، والتي عرفت بالاتحاد السرتي[96]، والتي ستلحق بالممتلكات الرومانية فور وفاة القائد سيتيوس[97]، فكان هذا العطاء السخي من قيصر جزاء وقوفهما معه، لأن قيصر كان مقتنعا بضرورة التقرب من بوخوس وبوغود (Baugod)، وذلك لخطورة الوضع بإفريقيا، وهي من العوامل التي أسهمت في فشل يوبا الأول الذي اضطر للقتال على ثلاث جبهات، الجيتول*** (Getules) من الجنوب، وجبهتين في الشمال[98]، فخب جهده وتشتت

* بوخوس ملك موريطاني (Rex) ابن الملك سوسيوس (Sosus ou Sosius)، (BQS HMMLKT)، وهوملك المور أو موريطانيا، والتي امتدت في البدء في نطاق (المغرب الأقصى الحالي)، أي من واد ملوية إلى المحيط الأطلسي، ومن البحر المتوسط شمالا إلى حدود القبائل الإثيوبية جنوبا، وستتوسع لاحقا على حساب مملكة النوميد، جزاء على ما قدمه بوخوس من إعانة لوضع حد لحرب يوغرطة، وتظهر شخصية بوكوس أو بوخوس الأول من خلال كتاب سلوستيوس "حرب يوغرطة" والتآمر الذي بدأت خيوطه تظهر باتصال منيلوس (Manilus)، علما أن الملك الموريطاني كان صهرا للمقاوم النوميدي.للاطلاع أكثر على الموضوع يعاد إلى: Majdoub, M., 1992, « Les luttes du début du Ier siècle av.J,-C. au nord de la Mauritanie », *publication de l'école française de Rome,* Lixus, Actes du colloque de Larache, p.p.235-238.

** سيتيوس من المرتزقة الرومان، اسمه الكامل بوبليوس سيتويوس (Publius Sittius)، كان من رجال المال الأثرياء بروما، اتهمه سالوستيوس نتيجة صادقته مع شيشرون بضلوعه في قضية كاتيلينا، ليكون بعد ذلك جيشا من الايطاليين الناقمين أو الذين خسروا أموالهم وثرواتهم نتيجة الحروب الأهلية، وضع جيشه تحت تصرف المتنازعين في إفريقيا فتجمعت له ثروة، وسمعة بحسن التدبير الحربي، كان من أنصار يوليوس قيصر لما حط هذا الأخير الرحال بشمال إفريقيا عام 47 ق.م في حربه ضد بومبيوس، وقد استطاع أن يلحق الهزيمة بجيش يوبا وحلفاء بومبيوس عام 46 ق.م، وجزاء ذلك منحه قيصر عند إنهاء الحرب جزء من مملكة ماسينيسا الثاني، لقي حتفه على يد اربيون ابن ماسينيسا الثاني عام 44 ق.م كانتقام لما عمله، وهذا اثر عودته من اسبانيا واسترجاع ملك والده. حول الموضع ينظر: قيصر، ي.، ص.33.

96 كامبس، ق.، 1980، *البربر ذاكرة وهوية*، ترجمة عبد الرحيم حزل، 2014، الدار البيضاء، ص.200.
حارش، م. هـ.، 2014، *التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203-46 ق.م*، الجزائر.ص ص.84-88.

97 Albertini, E., 1937, *L'Afrique romaine,* Alger, p.8.

*** الجيتول من القبائل الليبية التي تداول اسمها المؤرخون الكلاسيكيون، أمثال سالوستيوس، بلين الشيخ وبروكبيوس، وتمتد هذه القبائل البدوية جنوب ممتلكات المور والنوميد على حد سواء، كما يحدد آخرون تواجدهم خلف جبال الأطلس، وأنها تنقسم إلى قسمين: منهم المرتحلون والمستقرون، كما يجعل جون نووال فيريي (Jean-Noël Ferrié) وجيل بواتش (Gilles Boetsch)، في مقال حول جدلية أصول البربر والتفرقة بينهم والعرب، يرجعون انحدار الطوارق الحاليين في الصحراء الشمال الإفريقي إلى الأصل الجيتولي، ولم يستقر هؤلاء بالصحراء إلا في خضم التوسع الروماني الضاغط على المناطق الشمالية من بلاد المغرب القديم في فترات متقدمة من عهد السيفرسين (Des Sévères)، وفي نفس الفترة تظهر تربية الإبل التي تجعل من الممكن الترحال عبر الصحراء الإفريقية، وبدؤوا يشكلون ضغطا مستمرا على الشعوب بالشمال فاخترقوا بلاد المور والنوميد وتمكنوا من الوصول حتى سواحل البحر المتوسط في نوميديا. للمزيد من المعلومات أنظر:

قوته، وهكذا باختفاء يوبا عن ساحة التنافس، وانكساره تبخرت أحلام النوميدين في إنشاء كيان قوي ومستقل، كما قرر الديكتاتور ضم ما بقي من مملكة يوبا إلى مقاطعة إفريقيا الجديدة (Africa Nova)، تميزا لها عن المقاطعة الإفريقية والتي غير اسمها إلى إفريقيا القديمة (Africa Vetus)[99].(انظر الخريطة رقم: 1، ص.46)

ولم يخرج قيصر عن إستراتيجية روما في التوسع باعتماد أسلوب التدرج، ويقول شنيتي في صدد عملية التقسيم أنها لم تكن كما قال : "اعتباطا، إذ أنه كما حصل على وقاية الولاية من الخطر الوطني بغرسه جماعة سيتيوس في المناطق الصعبة، لا يستبعد أن قد راعى في منح المكافأة الإقليمية لبوخوس ما يتفق والمصالح الرومانية، (...)، كانت من المناطق التي لا يطمئن الرومان إلى سكانها، بدليل أن تلك المناطق ما لبث سكانها أن هبوا لداعي الواجب الوطني الذي ردده أرابيون".[100]

بعد وفاة قيصر تأجج الصراع مرة ثانية بين القيصريين والجمهوريين، وظهرت ثورة أرابيون* (Arabion)، وفي 33 ق.م لما مات بوخوس ألحق أوكتافيوس (Octave) المنطقة لسلطته المباشرة وأنشأ مستعمرات لاستقبال الجنود المُسرحين من الفيلق السابع في ايجيجلي (جيجل) صلداي (بجاية)، روزازوس (عزفون)، روسغونيا (برج البحري)، وفي كونوغو (بالقرب من قورايا) استقبلت كتيبة خيالة، وفي كارتينيا (تنس) من الفيلق الثاني، هذا في

André, P., 1930, « Histoire ancienne de l'Afrique du nord », *H.E.S*, Volume 2, Numéro 6, p.p.296-298

98 حارش، م. ه.، 2013، ص ص.36-37.

99 قداش، م.، 1993، *الجزائر في العصور القديمة*، ترجمة صالح عباد، الجزائر، ص.112.
حارش، م. ه.، 2013، *مملكة نوميديا دراسة حضارية منذ أواخر القرن التاسع إلى منصف القرن الأول قبل الميلاد*، الجزائر، ص.37.

100 شنيتي، م. ب.، 1982، ص.67.

***** أربيون ابن ماسينيسا الثاني، اتبع نهج أسلافه في مقاومة الاحتلال الروماني كمحاولة لتحقيق مآربه الوطنية، فقد استغل هذا الأخير نزاع حدث بعد مقتل قيصر سنة 44 ق.م، بين حاكمي إفريقيا القديمة (Afica Vetus)، واختار أن يصف إلى جانب الحاكم المعزول من مجلس الشيوخ سيكتيوس، إذ سجل هذا الأخير انتصارا محققا على خصمه الحاكم القديم كورنيفسيوس (Q.Cornificius)، كما تمكن تصفية سيتويوس وشتت مرتزقته من الايطاليين والايبيريين واسترجع ملك يوبا الأول، وكان اشد كرها لقيصر وأنصاره، ولما رجعت إفريقيا من نصيب القيصريين أمثال اوكتافيوس، تراجع عن التزاماته اتجاه سيكتيوس الذي دبر له مكيدة لاغتياله لما رآى الانتصارات التي حققها أرابيون، وكان من نفذ ذالك الاغتيال الملك بوكوس الذي لم يعجبه توسع نوميديا من جديد وتقلص مملكة موريطانيا.للمزيد من الاطلاع عد إلى:
غانم، م.، ص.، 2010، ص ص.196-198.

المناطق الساحلية أما بالداخل فوجدت ثلاث مستعمرات هي توبوسوبتو (تكيلات جنوب غرب بجاية) أكاكاليدا (حمام ريغة) وزوكشابار (مليانة)، ولم يستمر هذا النوع من الحكم ففي سنة 25 ق.م سيسلمها أغسطس للملك يوبا الثاني (Juba II)[101]، والذي لم يكن إلا مرآة روما تعكس صفحاتها على حكم محلي، فلقد كان هذا الأخير يدخل ساحات الوغى إلى صف الرومان دون أن يدخر أدنى جهد ضد بني جلتده، وما كان للرومان أن تكون لهم الغلبة ضد الثائر تكفاريناس* (Tacfarinas) إلا بمساعدته، أولا للوقوف في وجهه، ثم قمع ابنه بطليموس** (Ptolémée) للثورة المذكورة، كما كان يظهر فخره واعتزازه بالنصر الذي يحققه الرومان على الأفارقة، أن سجله على احد وجهي عملته عام 18م.[102]

---

101 قداش، م.، 1993، ص ص.113-115.

* ينتمي تكفاريناس إلى قبيلة موسالامس (Musulames, Musulamites) حيث وجد فيها مصدر قوته، وهي قبائل جبلية تمتد بسلاسل الأوراس، جند تكفارناس في الجيش الروماني، حيث تعلم عندئذ النظم العسكرية والخطط الحربية، والتي سيوظفها فيما بعد لمحاربة الرومان أنفسهم، وبذلك يخرج عن المألوف أن تكون فرقه جيشا منظما مثل ما يذكرها الكاتب والمؤرخ تيسديوس (Tacitus) "non inconditae turbae" معناه أن تكفاريناس لم يقد جيشا من الغوغاء، وهو ما جعل منه عدوا لا يستهان به، فلقد الحق بالرومان عدد من الهزائم، وانطوت تحت لوائه قبائل مثل الموريين والجرامنتيين (Garamentes) واشرف على تدريبها هوبنفسه على فنون القتال، وبذلك نجد ان جيشه ضم جندا من الشرق والغرب حتى من فزان (Fezzan) نفسها، بحيث اعتمد الأفارقة أسلوب ضرب المدن الآهلة بالرومان وتجريدها مما تملك ثم اللجوء إما إلى الجبال أو الصحارى، وكان يمتلك بالإضافة إلى كل ذلك إدراكه لنقاط الضعف والقوة لجيش عدوه، استغرقت ثورته مدة ما يقرب ثمان سنوات، وكانت في عهد الإمبراطور تيبريوس (Tibère)، هذا الأخير الذي رفض أي مساومة مع تكفاريناس واعتبرها بمثابة الإهانة، فجند له جيشا عرمرما بقيادة القنصل بليسوس (Blesus) الذي استطاع أن يكسر التحالف الإفريقي وياسر أخ تكفاريناس، وينتهي أمر الثائر النوميدي سنة 24 م، على يد البروقنصل دولابيلايوس (Dolabella). للمزيد من المعلومات يعاد إلى:

Victor, L. T., 1926, « Tacfarinas ou Abd El Krim sous Tibère », *La revue française de Prague*, France, p.p.173-176.

** ولد بطليموس بمدينة قيصرية عام 5 ق.م، شارك والده يوبا الثاني في الحكم منذ عام 20 م، خاصة بعد أن غادرت والدته كاليوبترا سيليني الحياة، كان مولعا باللهو والمجون، حتى انه ترك أمور تسيير الحكم لمن حوله من حاشية وعبيد محررين، كما اتسم بضعف الشخصية، وقلة الكفاءة في إدارة أمور مملكته، كما تمتع بسمعة سيئة بين رعيته، كما اظهر هو الأخر الوفاء لروما وواصل مسيرة والده في محاربة القائد تكفاريناس، ونتيجة لهذا الإخلاص، قدم له الرومان تاجا وثوبا بلون ارجواني وعصا الملك من العاج الخالص، اغتاله الإمبراطور الروماني كاليقولا، وبذلك تم وضع نهاية لأي حكم محلي بالمنطقة وألحقت بعدها موريطانيا بروما. حول الموضوع يعاد إلى: غانم، م. ص.، 2010، ص ص.201-213.

102 جوليان، ش. ا.، 1931، ص.173.
غانم، م.ص.، 2010، ص.213.

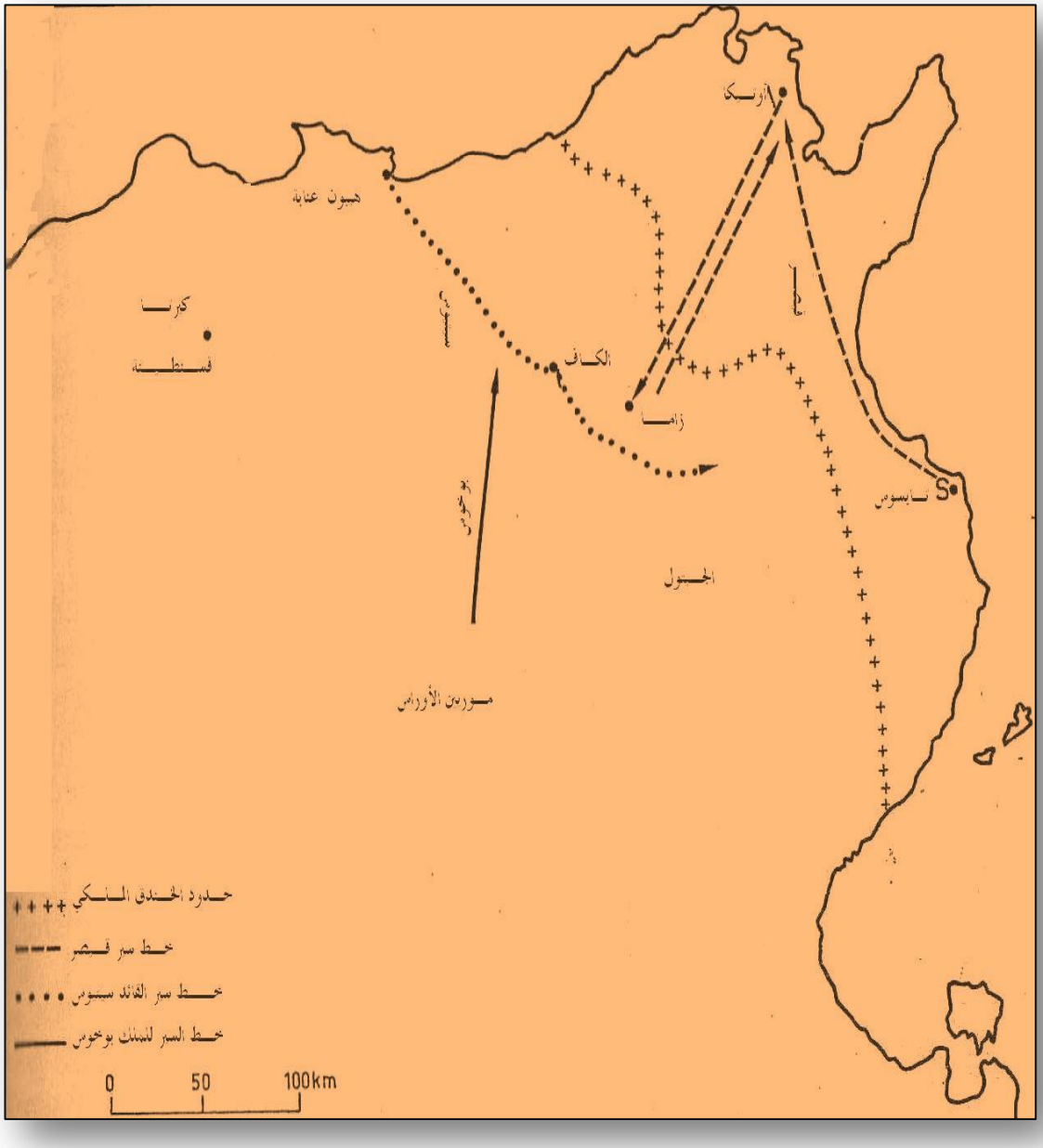

خريطة رقم:1- **حملة قيصر بإفريقيا (ترجمة الطالب).**

Berthier, A., 1981, p.86

ومع تلاحق الأحداث والسنون أزيح أي تمثيل للمحليين بعد مقتل بطليموس بأمر من الإمبراطور كاليقولا* (Caligula) عام 39 ق.م بمدينة ليون (Lyon) بغالة، وهذا رغم إخلاصه وتفانيه في تقديم كل الخدمات التي تطلبها السلطة الرومانية، وما كان لروما إلى أن تضم المنطقة بعد سلسلة من الاضطرابات التي لحقت بموريطانيا[103]، كثورة أدمون (Aedemon) التي جاءت بعد عملية الذبح التي طالت بطليموس، التي استمرت لعدة سنوات وبلغت مدينة وليلي (Volubilis)[104]، بعدها قسم كلوديوس موريطانيا إلى مقاطعتين وهي: موريطانيا القيصرية (قيصرية شرشال) وموريطانيا الطنجية (طنجة وليلي)[105]، فأصبحت إفريقيا الشمالية مستعمرة رومانية منذ 42م، إلى غاية الغزو الوندالي عام 429م، ولمدة قاربت الأربعة قرون.[106]

* الاسم الكامل كايوس قيصر كاليقولا (Caius César Caligula)، ابن جارمانكوس دراسوس (Germanicus Drusus) واونتونيا (Antonia) اصغر بنات اونتوان (Antoine)، كان والده قد حقق انتصارات ببلاد الجرمان، كما شغل قبلها منصب قنصل، عند وفاة أغسطس (Auguste)، لم يعترف بتيبريوس (Tibére) كإمبراطور، لذا سيبعد من روما ببعثه نحو الشرق لقمع التمردات، مات وسنه لم يتجاوز أربعة وثلاثون سنة من مرض يعتقد أن سببه سم تجرعه، كليقولا هو لقب أخذه من المعسكر الذي تربي فيه، وهذا بسبب مزحة من رفاقه على الحذاء الذي كان يرتديه، رافقه والد إلى سوريا، كما لقي مضايقات خلال حياته، وتزوج من جونيا كلوديلا (Junia Claudilla) إحدى بنات احد أشراف روما سيالنوس (Silanus)، والتي فقدها أثناء الولادة، ثم تعلق بزوجة احد قادة الجيش ماكرونوس (Macron)، الملقبة بأنيا نافيا (Ennia Naevia)، ووعدها كتابيا بالزواج في حالة وصوله إلى الحكم، وبحسب المؤرخين انه سمم تيبريوس، وأقدم على خلع خاتمه وهو لازال حيا فألقى عليه وسـادة وخنقه دون رحمة، عرف بتصرفاته الشاذة مع أخواته، وأعماله الإجرامية مثل عملية القتل التي طالت ابن يوبا الثاني بطليموس وهذا بالإقدام على ذبحه كما تذبح الشاة والاستيلاء على أملاكه وأمواله دون تشفع له قرابته له، لأنه حفيد الإمبراطور ماركوس اونطنيوس (Marc Antoin)، فاغرق منطقة موريطانيا في حمام من الدم، إذ جندت روما ما يقارب 20.000 جندي لإخماد الثورة، كما اتصف بالبربرية والوحشية، فقد كان يقدم السجناء للحيوانات المفترسة وهو يتلذذ بالمشاهدة، والأمثلة كثيرة على وحشيته، سيغتال في سن تسع وعشرون سنة، ويحرق جسده بعد دفنه من إخواته، دام حكمه ثلاث سنوات عشر أشهر وثمانية أيام. للمزيد من المعلومات ينظر إلى:
Suétone, *vie de Caligula*, I-LX, Trad. M. Cabaret-Dupaty, Paris, 1893.

103 غانم، م. ص.، 2006، ص.106.

104 Ait Amara, O., 2014, p.74.

105 حارش، م. ه.، 1992، ص.185.

106 جوليان، ش. ا.،1931، ص ص.173-174.

الفصل الثاني

تدهور الجيش الروماني وتراجع الليمس

1-الجيش الروماني.

أ-فرق أو وحدات الجيش.

ب- أسلحة الجيش الروماني وعدته.

ج- مهام الجيش الروماني.

2-تراجع فعالية الجيش الروماني وأثره في تدهور أوضاع الإمبراطورية.

3-الليمس خط دفاعي روماني.

4-تدهور الأوضاع وتراجع الليمس.

الصورة التي أصبحت مرسومة بعد الأحداث التي تطرقنا لها في الفصل الأول، هي أن دولة قرطاجة انتهت عام 146 ق.م، وأن مملكة نوميديا لم يعد لها وجود بعد معركة تابسوس عام 46 ق.م، وكذلك مملكة موريطانيا هي الأخرى ستختفي بعد سنة 40م، كل هذا كان بفضل الآلة العسكرية الرومانية، وما عرف عن الجيش الروماني من الاحترافية وشدة النظام فيه، كما يمثل عظمة الدولة الرومانية، حتى وإن لم يدرك الرومان مدى خطورة هذا التوسع على نظامهم السياسي والعسكري، وهو ما ألم به الكثير من حكامها مثل ما أوصى به أغسطس* (Auguste) (أنظر الصورة رقم: 2، ص.50) في شيخوخته بالتوقف عن التوسع وأن يرفض "مشروع الطمع" في إخضاع العالم بأسره[107]، وعمل بذلك هادريان[108]، حتى وإن كان هذا التمدد والتوسع نابع من قناعة روما نفسها، والتي ما فتئت تحقق حلمها بضم ايطاليا ثم أوروبا فالعالم ككل، إذا نمو وتوسع حجم الدولة الرومانية كان قانونها، ولا توسع دون خوض حروب وبالتالي الحرب أضحت حتمية لا مفر منها[109]، علما أن النظام الروماني أساسه الدستوري هو الجيش[110]، لذلك وجدنا أنفسنا أمام العديد من الإشكاليات عند معاجلة هذا الفصل، من هو الجيش الروماني؟ وما طبيعة العلاقة بينه وبين النظام السياسي؟ وما أسباب تدهوره؟ وما نتائج هذا التدهور وتداعياته السلبية؟.

---

* كايوس يوليوس قيصر اوكتافيوس (Gaius Julius Caesar Octavianus)، ولد بروما 23 سبتمبر من عام 63 ق.م، وأمه هي ابنة أخ يوليوس قيصر، كفله لوكيوس ماركوس فيليبيوس (L.Marous Philippus) بعدما تزوج والدته، ثم تبناه قيصر المغتال عام 44 قم، ومثل ما يصفه احمد على الناصري، انه شاب نحيل البنية قوي الإرادة، استطاع أن يحكم روما لمدة أربع وأربعون عاما، فعن طريق التبني كان بإمكانه أن يتقلد لقب قيصر، وقد تمكن من المطالبة بحقه في العرش، وقد احاط نفسه بأصدقاء أوفياء كان بإمكانهم التضحية من اجله، ففي السادس عشر من يناير من عام سبعة وعشرين عينه مجلس الشيوخ كحاكم لروما ومنحه لقب اوكتافيوس بأغسطس (Augustus) أي المهيب، وكذلك لقب بابن المؤله (DIVI Filius)، أوأيضا الإله والإله القيصر، ثم إمبراطورا (Imperator) وهو أول من حمل هذا اللقب، حكم من 30 ق.م إلى غاية 14م، حيث نعمت روما في عهده بالاستقرار والرفاه..للمزيد من المعلومات اطلع على: الناصري، أ. ع.، 1991، *تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري*، القاهرة، ص.22-65.

عمران، ع. الح.، 2013، "نوميديا أثناء الاحتلال الروماني"، *مجلة عصور جديدة*، العدد 10، جامعة وهران، ص.29.

107 جيبون، إ.، 1828، *اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها*، الجزء الأول، ترجمة محمد على أبودرة، 1997، مصر، ص.47.

108 تشارلز ورث، ا. ب.،1950، *الإمبراطورية الرومانية*، ترجمة. رمزي عبده جرجس، 2003، ص.40.

109 De Lamartine, A., 1874, *Cicéron*, Paris, p.28.

110 ديورنت، و.، 1975، *قصة الحضارة*، المجلد الثالث، ص.37.

الصورة رقم: 2 –**تمثال الإمبراطور أغسطس، القرن الأول ميلادي بمتحف اللوفر باريس.**

Nicolet, C., « *Auguste* Caius Julius Caesar Octavianus Augustus ou Octave (63 av. J.-C. 14 apr. J.-C.) », *Universalis*, https://www.universalis.fr/encyclopedie/caius-julius-caesar-octavianus-augustus-auguste/#PH99B047

1-الجيش الروماني..

يمثل الجيش الروماني (Exercitus Romanorum) أحد أهم الجيوش في تاريخ الحضارات القديمة، وأكثر الأنظمة العسكرية نجاحا في العالم آنذاك[111]، كما أن روما بنت إمبراطوريتها المترامية الأطراف بفضل التنظيم المحكم لجيشها وانضباطه، وكانت تعتمد اعتمادا كليا على القوة العسكرية، وتمكنت من بسط نفوذها إلى مناطق بعيدة ونشرت مبادئها فيها، وأن هذا الجيش قد ظهر إلى الوجود بظهور روما ذاتها، لان المدينة الفتية اضطرت لان تدافع عن كينونتها واستمراريتها أمام الشعوب القاطنة بايطاليا، وقد تمكنت مدينة روما أن تهزم جيرانها* وأن تمدد من نفوذها[112]، بفضل هذا الجيش المكون أحسن تكوين والمجهز بأفضل الأسلحة، والذي لم يضم في جنابته، بعد موت ريموس (Remus)، سوى ثلاث ألاف وثلاث مائة جندي، موزعين بين فئة المشاة التي ضمت ثلاث ألاف وثلاثمائة فارس، هي حقيقة جيش ركعت له أمم العالم[113]، وبقي الاعتقاد السائد لدى الرومان أن روميلوس (Romulus) مؤسس مدينة روما هو الآخر ابن اله الحرب مارس (Mars)[114]، وبذلك أمكننا القول على أن القاعدة العسكرية هي القاعدة الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم بروما، وهذا للظروف التي مرت بها، فوجدت نفسها ملزمة بالاهتمام بالجانب العسكري، حتى تتمكن من التصدي لهجمات أعدائها التي تتعرض لها من حين لأخر، وكذلك في مطاف أخر تحقيق مبتغاها لتوسيع دائرة نفوذها.

---

111 إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.116.

* في إطار بسط نفوذها أقدمت روما على التخلص من خصومها داخل إطارها الجغرافي أي شبه الجزيرة الايطالية، وكانت هذه الشعوب تنتمي إلى نفس أرومة الرومان، وكانت تسواهم في العدد والقدرة على القتال، واستغرقت هذه العملية أربعة قرون والتي انتهت عام 226 ق.م، أي مثلت أبطء عمليات التوسع الروماني وأشقها، وأول هذه الشعوب التي أخضعتها روما لسلطانها اللاتين أولا، ثم ما جاورها من هذه الشعوب ومنها المتواجدة بجنوب شبه الجزيرة، وهم الفولسكيين والايكيين ومن بعدهم الايتروسكيين والسامنتيين ثم ليمتد هذا التوسع إلى المدن اليونانية، وأما تلك التي رفضت الخنوع لسلطان روما فقد تعرضت للإبادة. للمزيد من الاطلاع عد إلى: سنيوبوس، ش.، ص.145.

112 سنيوبوس، ش.، ص.133.

113 Royou, J. C., 1824, *Histoire romaine depuis la fondation de Rome jusqu'au règne d'Auguste* Tome.1, Paris, p.15.

114 Michel, H., 2018, *La république romaine et son empire de 509 à 31 av.J.-C.*, Paris, p.105.

أ – فرق أو وحدات الجيش.

لا جدال في أن تاريخ الشعب الروماني ما هو إلا سلسلة من الصراعات والحروب، فلا يوصد باب حرب إلا وتفتح أبواب أخرى[115]، فقد كانت الطبقة الأولى في الجيش الروماني هي فرقة المشاة الثقيلة، أما الفرسان* (Equites) فكانوا يختارون من المئات الثمان عشرة الأولى، ومثلت هذه الطبقة أفضل ما في فئة الجندية، حتى أن الإمبراطور كان يختار وكلائه في الولايات الإفريقية من امهر الفرسان الموسومين بالطاعة والولاء، ويمارس هذا الأخير أي الجندي من فئة الفرسان كل السلطات المدنية والإدارية والعسكرية في المقاطعة التابعة له من اتخاذ التدابير الأمنية كإقامة الحصون وشق الطرق، وهو بذلك يمارس سلطة الإمبراطور بالمنطقة[116]، وقد أيقن أغسطس أهمية طبقة الفرسان في تمثيله بمختلف الولايات الرومانية، واستغل خبرتهم في إدارة الشؤون المالية لدى الدولة، فاستعان بهم في تسيير أجهزة الإمبراطورية.[117]

ويتألف الجيش من اصغر وحدة هي الكتيبة التي ضمت في البدء مائة جندي ثم مائتين، وتجمع هذه الكتائب في تكوين اكبر منه، يعرف بالفيلق الذي يضم إلى جانب كتائب إضافية، 300 فارس و4200 من المشاة، وفي العهد الجمهوري قسم الفيلق إلى كويكبات كل واحدة تشمل مائة فارس حتى يسهل تحريكها والتحكم فيها، أما جيش القنصل فيتكون من فيلقين، وكان لكل فيلق رايته الخاصة به (Vexillum) والتي حضت باهتمام كبير، ويعد وسمة عار ومهانة لا تغتفر إذا ما أسقطت على الأرض أو أخذها العدو أثناء المعارك، كما برع الجندي في العمليات القتالية الفردية التي تلقى عليها تدريبات طويلة منذ بداية مشواره في

---

115 طراد، ن. إ.، 2008، *تاريخ الرومانيين من بناء رومية إلى تلاشي الحكومة الجمهورية*، الجيزة، ص.190.

***** طبقة الفرسان (Ordo Equester أوEquites)، والتي كانت تطلق على كبار ملاك الأراضي الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18 و45 سنة ويعملون في الجيش الروماني على صهوة خيول تمنحهم إياها الدولة (Equites equo publico)، ثم تغير الوضع لما تطوع الأثرياء وركبوا أحصنتهم (Equites equo privato)، لتتسع هذه التسمية بعد ذلك وتشمل كبار التجار، ومنذ القرن الثاني ميلادي أصبحت هذه الطبقة اكثر تاثيرا بروما نظرا لكثرة عددها وثرائها، وبالتالي شكلت طبقة اجتماعية بارزة ومهمة في المجتمع الروماني، للمزيد من الإطلاع على الموضوع عد إلى: نصحي، إ.، الجزء الأول، ص.331.

116 عمران، ع. الح.، 2013، ص.15.

117 الناصري، أ. ع.، 1991، ص.39.

الجندية، حيث يقضى عشرات السنوات في المعسكرات أو في ساحات المعارك[118]، وهذا ما وظفه فعلا المقاوم تاكفاريناس (Tacfarinas) مستفيدا من الخبرة العسكرية الرومانية، التي تلاقها أثناء أدائه الخدمة برتبة مساعد وكان سنه آنذاك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وقد أبلى بلاءا حسنا ضد هذا الجيش الذي كان من مكوناته، كما استلهم تنظيم جيشه على الطراز الروماني.[119]

وفي نفس المضمار يبين بوليبيوس كيفية التجنيد، إذ يختار قادة الفيالق مباشرة بعد عملية انتخاب القناصل (Consul)، ويتم انتقائهم على النحو الأتي: أربعة عشر قائد من المواطنين* الذين جندوا لمدة خمس سنوات، وعشرة ممن شاركوا في عشر حملات، أو ظلوا تحت الخدمة لمدة ستة عشر سنة في فئة المشاة، أما عن الجند وهو ما كان يجري كل سنة، حيث يقوم القناصل بإعلام المواطنين الرومان عن يوم اجتماع كل الأشخاص القادرين على حمل السلاح بحيث يجتمعون في الكابيتول (Capitole)، ويقوم اصغر القادة بتولي مهمة الفرز لتشكيل الفيالق، فيشكلون هم بدورهم أربعة أفواج، لان الجيش الروماني يتكون أساسا من أربع فيالق، فالأوائل من حيث الترتيب يكونون الفيلق الأول ثم الثاني وهكذا إلى أن نصل للفيلق الرابع، بعدها تقوم القبائل الحاضرة باختيار أربع رجال متساوون في البنية والسن بقدر الإمكان، فيقوم قادة الفيلق الأول باختيار من يرونه أجدر للانضمام إليهم، ثم يأتي دور قادة الفيلق الثاني وهكذا دواليك، ثم أربع مواطنين جدد يتقدمون، وتعطى الأولوية للفيلق الثاني هذه المرة، وبالدور حتى الفيلق الرابع، ما معناه أن كل فيلق يتكون من جند

---

118 ديورنت، و.، 1975، ص.37.

119 فوكه، م.، 2014، "مناطق سهل الشلف في ظل الاحتلال الروماني في الفترة الممتدة من ق 1 ق.م إلى ق 3 م"، *مجلة عصور جديدة*، العدد 11، جامعة وهران، ص ص.13-14.

* درجات المواطنة عند الرومان اثنان:

-مواطنة رومانية: ومنحت لكل سكان مدينة روما، أو بعض المدن التي لها نفس صفة، وأصحابها يتمتعون بكامل الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

-مواطنة لاتينية: كانت تمنح للشعوب الحليفة بشبه الجزيرة الايطالية، ولكن بعد أن استوطن اللاتينيون ببعض الولايات خارج نطاق ايطاليا عممت عليهم، الا ان لهم حقوق اقل من المواطنين الرومان.

باستثناء هؤلاء فان باقي الشعوب الخاضعة للسلطة الرومانية هم في نظر القانون الروماني أجانب، باستثناء فترة يوليوس قيصر الذي وسع من دائرة الحقوق المدنية لصلح هذه الشعوب، واستمرت العملية الى غاية مقتل قيصر سنة 44 ق.م، لتعمم على كامل رعايا الإمبراطورية في عهد كاركالا عام 212م.لاطلاع على الموضوع انظر: شنيتي، م. ب.، 1982، ص.88.

يتقاربون في السن والقوة، وحينما يتم بلوغ العدد المرجو وأحيانا يصل إلى 4200 مجند ويمكن رفعه إلى 5000 في حالات الضرورة بعدها يختار الفرسان وهذا بحسب مداخليهم، ويشترط في الفارس أن يكون حر المولد ولا يقل رأس ماله عن أربع مائة ألف ستركيس روماني[120]، وكل 300 فارس يتبع بفيلق، وينتهي هذا التجمع بالقسم لكل جندي بالولاء وتنفيذ الأوامر ويرفع الشأن نفسه إلى باقي المدن الايطالية لتنفيذ التجنيد بنفس الطريقة[121]، وكان سن التجنيد هو ما بين سبعة عشر وخمس وأربعون عاما[122]، فكل شاب يتمتع بالمواطنة الرومانية قد بلغ سن سبعة عشر سنة، يمكن دعوته للجيش، إذا كان ضمن فرقة المشاة يقضي ستة عشر حملة، أما إذا كان من فئة الفرسان فيكتفي بعشر حملات وهذا لا ينفي أن تجند روما من غير مواطنيها، وتسمى هذه الفرق بالوحدات المساعدة (Auxilliarii)[123]، فلقد وجدت نصوص تنظيمية لهذا الغرض، فقبل سبع أعوام من اندلاع الحرب البونيقية الثانية أي في عام 225 ق.م كان هناك مائتين وخمسون ألف مواطن روماني من بين سبع مائة ألف رجل يمكن تعبئتهم[124]، ومع توسع دائرة الرومنة بالمقاطعات الرومانية ومنها إفريقيا التي لم تكن فيها بسهولة ما حصل بغالة في عهد كلوديوس (41-54م)، أو بهسبانيا على يد فسبسيانوس (Titus Flavius Vespasianius) (69-79م)، نتيجة تمسك سكان شمال إفريقيا بما ورثوه عن القرطاجين من تقاليد وعادات، بالإضافة إلى رفض الأهالي عمليات الاندماج، لكن منذ عهد هادريانوس أي في القرن الثاني الميلادي، تغير الوضع فوجدنا أفارقة تخلوا عن أسمائهم لصالح أسماء وألقاب رومانية وبالتالي توسعت دائرة التجنيد في صفوف الجيش الروماني من الأفارقة المحليين أكثر فأكثر، وشكلوا الفرق المساعدة.[125]

---

[120] الناصري، أ.ع.، 1991، ص.39.

[121] Polybe, VI, V.

[122] نصحي، إ.، 1978، الجزء الأول، ص.331.

[123] تشارلز ورث، ا. ب.، 1950، ص.44.

[124] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.118.

[125] Meynier, G., 2007, *L'Algérie des origines de la préhistoire à l'avènement de l'islam,* Alger, p.71.

كما اتصف الجيش الروماني بالإخلاص لقادته، ومنها ما حصل مع ك.سكريبونيوس كوريو(C.Scribonius Curio)، الذي فضل الموت أمام جند يوبا الأول على الفرار، لأنه استحى أن يظهر أمام قيصر وقد أضاع الجيش الذي وضعه تحت يده، فقتل وهو يقاتل وفصلت رأسه عن جسده لتقدم لقائد النوميد يوبا الأول، وتركت جثته دون دفن.[126]

أما عن أن عدد الجند، فقد تغير بحسب الظروف التي مرت بها دولة روما، فلم يكن عدد جنود روما في البادية سوى مائة مقاتل وعشر فرسان عن كل عشيرة تعرف بوحدة مئينية تجهز من طبقة الآباء (Patris)، ولما بلغ القبائل ثلاثون ارتفع عدد الجند إلى ثلاث ألاف من المشاة وثلاثمائة فارس تحت اسم فيلق (Legio)[127]، وأثناء حروب قيصر والتي دامت خمس سنوات ضمن سلسة الحروب الأهلية، بلغ عدد الفيالق من عشرة إلى اثني عشر فيلقا أي بمعدل ما بين 30000 و50000 جندي روماني[128]، غير أن أغسطس خفض من عدد الجند والذي قارب نصف مليون، بالتسريح، بحيث مس هذا الإجراء ثلاث مائة ألف جندي وتوطينهم في مستعمرات يقطنها الجند فقط[129]، لكن في عهد ترجان ارتفع العدد فبدل من خمس وعشرين فرقة كحد ادني إلى ثلاثين فرقة على الأقل لتغطية التوسع الحاصل آنذاك[130]، كما شهدت فترة الضعف خلال القرن الثالث إنشاء جيش من المزارعين والمحاربين القدماء للتصدي لهجمات الأهالي، وهو ما عرف بجيش الحدود (Limitanei)[131]، والتي تأخذ أوامرها من قائد حرس الحدود (Praepositus limitis)، وهي فرق وزعت على كامل

---

126 قزال، إ.، 1930، الجزء الثامن، ص.25.

127 بوساحة، الط.، 2021، "نشأة وتطور الجيش الروماني من العهد الملكي إلى الإمبراطوري (التركيبة والتجنيد)"، *مجلة الإحياء*، المجلد: 21، العدد: 28، جامعة الحاج لخضر باتنة، ص. 896.

128 François, P., 2015, « Le ravitaillement des armées romaines pendant les guerres civiles (49-30 avant J.-C.) » Thèse de doctorat de l'université Paris-Est, C.R.H.E.C, p.63.

129 الناصري، أ. ع.، 1991، ص.44.

130 تشارلز ورث، ا. ب.، 1950، ص.40.

131 بشاري، م. ح.،"أوضاع الإمبراطورية الرومانية في النصف الثاني من القرن الرابع ميلادي ثورة جيلدون 398/397"، *مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب*، العدد 13، ص.247.

التخوم، وبالمقابل تتخلى السلطة الرومانية عن حقها الضريبي اتجاههم، بالإضافة إلى امتياز الحصول على أراضي فلاحية والتي كانت تمثل أجود الأراضي الموجودة على الحدود.[132]

ولما تولى ماريوس مهام قنصل سنة 104 ق.م، أقدم على إصلاحات في الجيش، انطلاقا من فكرته أن هذا الأخير عماد الدولة، إذا صلح صلح الأمر كله وإذا فسد فسد الأمر كله، ومن جملة هذه الإصلاحات العسكرية التخلي عن التجنيد بالخدمة الإجبارية واعتماد لأول مرة أسلوب التطوع[133]، كما انفتح الجيش الروماني على الطبقة السادسة* لمواجهة حرب يوغرطة، لان التجنيد كان مقتصرا على الطبقات الخمس الأولى[134]، وفي فترة حكم أغسطس أعاد العمل بنظام إجبارية الانخراط في الجيش عند الضرورة، دون أن يتخلى عن أسلوب التطوع في التجنيد.[135]

إضافة إلى ذلك وجدت بإفريقيا الفرقة الأوغسطية الثالثة** (III Aug, Ituraerum Sagitt) (انظر الصورة رقم:3، ص.58) والتي ضمت حوالي 5500 مقاتل وهي من أقوى الفرق العسكرية[136]، وكان مقرها الرئيسي مدينة أمايدارا (Ammaedara) (حيدرة)[137]، والتي أنشئت أساسا لغرض توسيع دائرة الاحتلال وتوفير الأرض للمستوطنين الجدد بعد افتكاكها

---

[132] محجوبي، ع.، *تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني حضارات إفريقيا القديمة*، ص.483.

[133] نصحي، إ.، 1978، الجزء الثاني، ص.200.

* كان نظام التجنيد بروما يعتمد على الطبقات التي لها أملاك أو بعبارة أخرى ذمة مالية معتبرة، أي كل من يؤدي ضريبة الرأس أومن الموالي لا يدعى إلى القتال سوى في حالات استثنائية، تعرف بالطبقة السادسة، التي وضعها سربيوس توليوس، كما حرم أصحابها من المواطنة الرومانية، أي أن روما تجند فقط من الطبقات الخمسة الأولى.للاطلاع على الموضوع عد إلى: مونتسكيو، 1748، *تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط*، ترجمة. عبد الله العروي، 2011، ص.89.

[134] مونتسكيو، 1748، ص.89.

[135] الناصري، أ. ع.،1991، ص.45.

** تمثل الفرقة الأوغسطية الثالثة عمدة الدفاع عن إفريقيا الرومانية منذ فترة الإمبراطورية الأعلى، كان مركزها في البداية حيدرة (Ammaedara) منذ عهد أغسطس إلى غاية فسبسيانوس، ثم تحولت الى تبسة (Theveste) في الفترة الممتدة من 115-120م، وبعدها إلى لومباز (Lambaesis)، ثم تغير اسمها إلى نوميديا في عهد سيبتيموس سيفيروس وهي تدخل تحت إطار جيش إفريقيا-نوميديا، كما لا يمكن اغفال دور الفرق المساعدة هي الاخرى في الدفاع عن مصالح روما بالمنطقة وحمايتها. لاطلاع على لموضوع ارجع الى:

Le Bohec, Y., 1989, «Les unités auxiliaires de l'armée romaine en Afrique proconsulaire et Numidie sous le Haut-Empire », *Etudes d'antiquités africaines,* Paris, p. 7.

[136] عمران، ع. الح.،2013، ص.16.

[137] محجوبي، ع.، ص.476.

من أصحابها[138]، وكانت تابعة لحاكم الولاية أي البروقنصل، والذي ستسحب منه صلاحية إدارتها في عهد الإمبراطور كاليجولا، مما أدى إلى خلق تداخل في المهام بين قائد الفرقة والبروقنصل، حتى مجيء سبتيموس سفيروس بإقامته منطقة عسكرية في نفس الولاية في ما بين عامي 197–199م، تحت إدارة قائد الفرقة (Praeses) بتعيين من الإمبراطور مباشرة[139]، إلى جانب فرقة أخرى مكلفة بحماية البروقنصلية* (Proconsulaire)، تساويها في العدد بالإضافة إلى حاميات أخرى، والملاحظ الميزة الأكثر وضوح ان روما قد عاشت مدة أطول من سابقاتها أثينا واسبرطة، لأنها بكل بساطة قد تخلت عن "الغرور في سبيل الطموح" كما يذكر جيبون، فلم تتمسك بنظرية الحفاظ على نقاوة دم مواطنيها، بل ستتفتح باب المواطنة مع مرور الوقت لكامل سكان إمبراطوريتها، وبقيت ايطاليا مولد الأباطرة فقط، ومقرهم ومقر مجلس الشيوخ كذلك[140]، كما لا بد من الإشارة بهذا الصدد إلى التغيرات التي ألحقها سيبتيموس على الجيش، فلقد بدل وغير من هيكلته كما طور من أدائه أيضا وذلك بإضافة ثلاث فرق من ولايات الدانوب والشرق تحسبا لأي محاولة من الحرس البريتوري، فوضع إحداها على بحيرة ألبان التي تبعد روما بثلاثين كيلومترا، ويبدو أن هذا الإجراء كان فريدا من نوعه، فلم يشهد الرومان في تاريخهم وجود فرق عسكرية دائمة في ايطاليا من غير الايطاليين أنفسهم، وهذا ما سمح لغير الايطاليين التدرج في مناصب الجندية بعدما كانت حكرا على الايطاليين فقط.[141]

---

138 شنيتي، م. ب.،2003، ص.80.

139 محجوبي، ع.، ص ص.479-480.

* البروقنصلية هي الأرض التي استولى الرومان عليها بعد سقوط قرطاجة عام 146 ق.م، وكانت ذات نظام مدني نظرا لاستتباب الأمن فيها، وهي ولاية سيناتورية تتبع لمجلس الشيوخ (Senatus) نظرا لقوة السناتو ونفوذه أثناء عهد الجمهورية، وقد كان يعين على ادارتها بروقنصل (Proconsul) والذي يعني القنصل البديل، كإجراء لمنصب القنصل (Consul) الذي لا يسمح له بتمديد عهدته، التي تستغرق سنة واحدة، وهذا الاجراء يسمح بالاستفادة من خبرة القناصل الأكفاء ومنحهم مذة اطول لمزوالة مهامهم وخدمة دولتهم، إلى أن سيطر وبشكل مباشر عليها الإمبراطور أغسطس. للمزيد من المعلومات انظر: شنيتي، م. ب.، 1982، ص.79.
عمران، ع. الح.، 2013، ص.30.

140 جيبون، إ.، 1828، الجزء الأول، ص ص.60-61.

141 سامي، س. أ.، *تاريخ الرومان*، بغداد، ص.221.

الصورة رقم:3 – **الفرقة الأوغسطية الثالثة (تشكيلة دفاعية محاكاة للسلحفاة).**

Marc, O., 2019, « Tortue, tenaille, éperon, les principales manœuvres des légionnaires romains, *Géo Histoire sur Rome*, N 44.

وكما أتى ذكره سلفا فقد واكبت هجمات الأهالي على الجيوش الرومانية تغيرات جوهرية على تركيبة الجيش بخلق وحدات خفيفة قادرة على موجهات التهديدات الجديدة، والتي تتكون من وحدات المشاة والفرسان، وهم من الفلاحين المترومنين ويعيشون على مقربة من المعسكرات[142]، كما استطاع أغسطس الرفع من احترافية الجيش الروماني، وكذلك جعله جيشا دائما، فأصبح يتكون من فيالق تضم مواطنين رومان وأخرى مساعدة[143]، لكن اعتمدت روما على الايطاليين أنفسهم في الدفاع عن حدودها وحماية أمنها، إلا لثقتها بولائهم لها وإخلاصهم لسلطانها، لكن هذا لم ينفي توظيف السلطة الرومانية في أوقات متقدمة من وجودها لسواعد وقوة الأجانب في الحروب والمعارك كلما تطلب الأمر، وعادة ما كان يحدث التجنيد من القبائل الأكثر بدواة والتي ليس لها القدرة على أداء الضرائب[144]، كما أن عدد المجندين من الأفارقة قد ازداد وبشكل مطرد نتيجة لعمليات التوسع والاحتلال، لان بكل بساطة لم يكن بمقدور روما إيجاد العدد الكاف من الجند الايطاليين لتلبية ذلك، فمثلا لم يتجاوز عددهم 13000 جندي في البروقنصلية، و15000 جندي آخر لحماية موريطانية الشرقية والغربية، لكن بالمقابل بلغ عدد الأفارقة المجندين ضعف جنود الشرق في عهد هادريانوس، كما ضمت الفرق المساعدة بالولايات الإفريقية كل من الهسبانيين ولوزيتانيين وكلوكلكدونيين (Chalcidéniens) وكماجيين (Commagéniens) الذين تمركزوا بنوميديا، أما بموريطانيا فوجد بها جند من هسبانيا كذلك وساردينيا وغالا وكورسيكا وبريطانيا ودلماسيا وسيكمبريا (Sicambes) [145]، وبذلك يمكننا القول إن الجيش الروماني كان قائما على داعمتين جيش من المواطنين الرومان سواء من تمتع بها وهو منتسب إلى اللاتين أو من تحصل عليها بالانتماء من الأجانب.

---

[142] محجوبي، ع.، ص.483.

[143] Chadburn, C., 2006, « Les auxiliaires africains dans l'armée romaine au I et IIe siècle », *Limitis*.p.1.

[144] أيوب، إ. ر. ق.ال.، 1996، *التاريخ الروماني*، لبنان، ص.192.

[145] جوليان، أ. ش.، 1931، ص.191.

عندما نريد الحديث عن جيش إفريقيا تتبادر إلى أذهننا تلقائيا الفيلق الثالث الاوغسطي الذي استقر في أول الأمر شمال شرق تبسة بالذات حيدرة، ثم تبسة ذاتها، لتنتقل الفرقة بعدها إلى لمبيز، بالإضافة إلى ذلك وجدت الفرق المساعدة، على أن عملية التجنيد من السكان المحليين قد انطلقت وبشكل رسمي ومستمر بداية من القرن الثاني حتى أصبحت الفرق التابعة للخيالة كلها من إفريقيا مثل فرقة الموزولام (Cohrs Musulamorum) بموريطانيا، وفرقة الخيالة المورية أيضا (C.Maurorum) بنوميديا، ومقابل خدمات الجنود الأفارقة في صفوف الجيش الروماني لمدة خمس وعشرون عاما، يمنح هذا الجندي المواطنة ويمكن له كذلك الاستفادة من قطعة ارض[146]، هذا بالفعل ما سبق ذكره لكن الجديد في الأمر هو وقوفنا هنا أمام حالات ترومن للسكان الأصليين كانت بفعل عملية التجنيد، كما يحضرنا في هذا المقام ما ذكره عبد الله العروي بشأن لتننة الأهالي بالتجنيد قوله:"يصلح كل جيش لإدماج أبناء الشعب في الطبقة الحاكمة بما يلقنهم من انضباط وما يفرض عليهم من لغة وما يخولهم من امتيازات. كان الفرد من أهالي إفريقيا يمنح، بعد أن يقضي خمس وعشرون سنة في الجندية، حق المواطنة الرومانية، ويعطى، بصفته من قدماء المحاربين، قطعة ارض يستغلها داخل مستعمرة رسمية. هكذا كان الجيش يرومن الناس ويعمر الأرض."[147]

ومع ذلك، كل ما نعرفه عن الجيش الروماني انه يتكون أساسا من المواطن اللاتيني، كما يلاحظ من جهة أخرى أن السلطة السياسية التي تدير شؤون الدولة، بالإضافة إلى المواطن الجندي يعملان كلاهما من اجل هدف واحد هو تحقيق مصلحة روما في كل الأحوال، مثل ما مثلت الفيالق الرومانية للجندي الروماني عائلته الثانية التي يقضي بها جل حياته[148]، وهذا لربما هو سبب تفوق الجيش الروماني عن غيره من الجيوش في تلك الفترة غير انه في فترات لم يبقى هذا الجيش يستمد قوته ويجري عملية التعبئة من الشعب اللاتيني

146 قداش، م.، 1993، ص ص.167-168.

147 العروي، ع.، 1984، *مجمل تاريخ المغرب*، الجزء الأول، الدار البيضاء، ص.63.

148 Béliard, J., 1854, *Souvenirs d'un voyage en Algérie .Les monts Fel-Fela et leurs carrières de marbre blanc,* Vanves, p.7.

فحسب، بل سيدخل نظام المرتزقة* (Mercenariat) بشكل قوي وواضح، وتتغير تلك الصورة النمطية عن الجيش الروماني انه جيش من المواطنين الايطاليين فقط، وقد حدث هذا التغيير منذ الحرب البونيقية الثانية.[149]

ب – أسلحة الجيش الروماني وعدته.

أما عن عدة الجندي الروماني ومنها اللباس، فيتكون ردائه من واق للجسم من الزرد**، بإضافة خوذة من البرونز، وخف قصير واسع يلبس فوق خف أخر ويدعى (جرموق) [150]، ونجد تصنيف ألبسة الجيش بحسب ترتيبهم عند الباحثة ويزة أيت عمارة ضمن كتابها "جنود حنبعل"[151]، ففرقة المشاة والتي هي بدورها تنقسم إلى ثلاث أقسام، الخفيفة منها (Les vélites) وهي في الحقيقة تشكل من القبائل الحليفة كالليجوريين، ومن المرتزقة الكريتيين، بعدما كانت تقتصر على المواطنين الرومان[152]، وبالإضافة إلى الشباب المبتدئين (Les hastats) الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18 و25 سنة وهم اقل خبرة ويشكلون مقدمة الجيش، تأتي بعدها مباشرة فرقة القادة والمحاربون (Principes) الأكبر سنا، وأعمارهم ما بين 25 و35 عاما وأخرى تدعى (Les triaires) وهم قدامى المحاربون تأتي في آخر الصف وتتكونان ممن له حق حمل المواطنة[153]، فالأولى أي (Vélites) وهي المشاة، خفيفي العدة معروف عنها سرعة الحركة لخفة ما تحمله سواء اللباس والسلاح، يضع جنودها خوذة بسيطة

---

* يعرف الجندي المأجور (Misthophoroi et mercennarii) على انه جندي محترف، وتصرفاته هي تنفيذ لأوامر مأجوريه، وهذا تحت طائل المنفعة المادية، وقد كان نظام المرتزقة معروف منذ القرن الرابع لدى الإغريق والقرطاجيين، وقد أصبح المرتزقة مكون أساسي في جيش الإغريقي بعد عهد الاسكندر، كما نجد أن عشية الحروب البونيقية قد شكل المرتزقة غالبية جندية قرطاجة، ولابد ان نذكر هنا بمحنة ثورة المرتزقة بقيادة ماتوس (241-237 ق.م) وتاثيرهاعلى قرطاجة بعد الحرب البونيقية الثانية، وقد تبنى الرومان هم أيضا هذا النوع من التجنيد ضمن مكونات جيشهم، غير أن المصادر تبقى صامتة فيما يتعلق بحصصهم المالية باستثناء تيتوس ليفيوس. للاطلاع أكثر على الموضوع ارجع إلى:. Napoli, J., 2010, « Rome et le recrutement de mercenaire », *R.H.A*, Paris, p.p.68-77.

149 Napoli, J., 2010, p.68.

** حلقات من الحديد تنسج مع بعضها ليصنع منها قميص يلبسه المقاتل، فتحميه من الضربات التي يتلقاها، وقد تعرف الرومان على النوع من الرداء إثناء خوضهم معارك مع الغاليين شمالا، لكن بعد ذلك تخلوا عنه ليستعملوا درع الكلاليب (Lorica Hamata). لاطلاع على الموضوع انظر: ويكيبيديا، "درع الزرد"، https://ar.wikipedia.org/wiki

150 ديورنت، و.، 1975، ص.37.

151 Ait Amara, O., 2009, p. IX.

152 نصحي، إ.، 1978، الجزء الثاني. ص. 200 .

153 Napoli, J., 2010, paris, p.68.

مغطاة أحيانا بجلد ذئب أو حيوان أخر، وهذا لكي يتميزوا عن بقية الفرق، ودرع دائري الشكل (Parme)، بالمقابل نجد الفرقة الثانية بحسب ما جاء سابقا، وتتموضع في مقدمة الجيش، يضع جنودها على الركبة طماق أو واق (Jambière)، وواق الجسم وخوذة، ودرع اكبر حجما يأخذ شكل مستطيل ومنحني نوح الداخل من الجوانب لحماية أفضل للبدن، مدعم بالوسط لتلقي الضربات (Scutum) يصل طوله إلى 120 سم وعرضه 75 سم، عادة ما يحمل شعارات تدل على اسم ورقم الفيلق الذي ينتمي إليه الجندي، أما الفرقة الثالثة فيرتدي جندها لباس واق من حلقات من المعدن تصد ضربات الخصم، وخوذة اكبر حجم وتحمل زينة من الريش[154]، وارتدى الفرسان وشاحا أرجوانيا فوق عباءة (Tunica).[155]

كما يسلح الجندي بسيف (Gladius)، ورمح خفيف (Pila) أو طويل يدعى (Hatae)[156]، بالإضافة إلى ذلك قد يحمل الجندي خنجر وحربتين، أما بعضهم وهم من الطبقة الخامسة فلم تكن لهم إلا المقاليع والحجارة، وتستخدم سيوف قصيرة في العمليات القتالية الثنائية، أما فرقة الفرسان فأسلحتها لم تختلف عن مثيلتها الإغريقية، غير أنهم في البدء كانوا يقاتلون دون واق للجسم (Cuirasse)[157]، بالإضافة إلى ذلك وظف الجيش الروماني المجانيق الخشبية في عملية الحصار، إلا أن ماريوس قام بتوحيد سلاح الجند الرومان، فأصبح كل واحد منهم يحمل سيفا وحربة طويلة (Pilum)[158]. (انظر الصورة رقم:4، ص.64)

[154] Polybe, VI, V.
Ait Amara, O., 2009, p. IX.

[155] الناصري، أ. ع.، 1991، ص.40.

[156] Ait Amara, O., 2009, p. IX.

[157] Polybe, VI, V.

[158] نصحي، إ.، 1978، الجزء الثاني، ص.200.

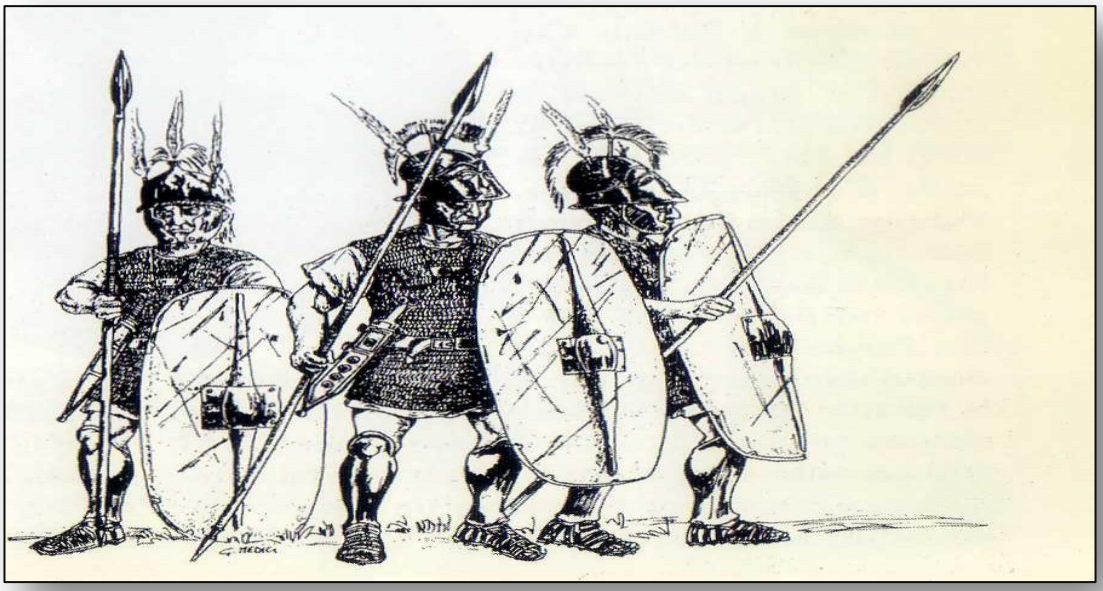

الصورة رقم:4- **جند من فرقة المشاة (les triaires).**

Ait Amara, O., 2009, p. IX.

وهناك في كلام بولبيوس إشادة بصفات الجيش الروماني المميزة، فامتدح عمليات التجنيد والتعبئة، وانه جيش صلب لا تثنيه المسافات الطويلة على بلوغ هدفه، كما انه لا يتوقف إلا بإقامة مخيم يليق بمقامه، يضمن له السلامة والأمان فيحيطه بمنحدر وخندق[159]، كما أشاد كذلك بالاقتباس الذي عرف عن الرومان قوله:" لأنه من بين كل الشعوب هو الوحيد الذي يتخلى بكل سهولة عن عاداته ليستبدلها بأفضل منها."[160]، فقد فضل الرومان أسلحة غيرهم على أسلحتهم، لما أظهرته من مرونة في التعامل وصلابة في صد الضربات، ومنها الخنجر القصير عن الأيبيريين، وعن الإغريق اخذوا الترس والدرع والرمح، والترس المحدب عن الغاليين، ولا ننسى في هذا المقام اقتباسهم للسفن القرطاجية وتعويض قلة خبرتهم

[159] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.115.

[160] Polybe, VI, V.

في مجال البحر، باختراعهم لآلة الغراب التي حولت المعارك البحرية إلى معارك شبه برية.[161]

أ-مهام الجيش الروماني.

ما لا يجب إغفاله في هذا العنصر، أن العقيدة الحربية هي ما يؤمن به المواطن الروماني، إذ اعتبر كل المهن الأخرى كالتجارة أو الحراثة، أنها من نصيب العبيد، ولذلك لم يتقن سوى مهنة القتال و"صناعة الحرب"، والتي يرى فيها مجده وسؤدده، ومثل ما يقول مونتسكيو:"احتفظ بخصاله القتالية حتى بعد أن فقد كل خصلة سواها".[162]

فبالإضافة إلى مهارة القتال، والحفاظ على الأمن مثل ما كان منوط بالقوات الرابضة قرب أوتيكا والتي كانت في حدود 30.000 جندي[163]، فقد عرف عن الجندي الروماني إسهامه في انجاز بعض من الهياكل القاعدية مثل الطرقات، الحمامات والقنوات وبالتالي شارك في الحياة العامة للناس، ويمتلك هذا الجيش الأدوات والمعدات* المناسبة لأداء تلك المهام، فيقدم على إنشاء هياكل ذات جودة، تحقق الهدف المرجو، وهذا لربما يفسر في كثير من الأحيان سر تفوقه.

ومن المعلوم بالضرورة، أن الجيوش قد وجدت من اجل القتال لا أكثر، فما لم يعلمه الكثير عن الجيش الروماني تميزه بعبقرية فذة في مجلات مختلفة، ففي مجال الهندسة مثلا قام كربيلو (Cnaeus Domitius Corbulo) جنرال للجيش الروماني في القرن الأول ميلادي

---

161 إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص. ص.114-115.

162 مونسكيو، 1748، ص.97.

163 المحجوبي، ع.، 2001، ص. 61.

* ساعدت الأدوات والمعدات لانجاز أشغال تحتاجها الجندية مثل إقامة المخيمات، مثل تسوية الأرضية كاجراء أولي، بالاضافة الى فنيات ومهارة نجارة الخشب، وهذه الأدوات إما ان تكون بسيطة فتكون من الخشب أو المعدن، أو قد تكون من مواد اكثر تعقيدا، فيضطر الجند احيانا وفقا لاحتياجاتهم الى صقل الصخور والحجارة، أو يقومون بقياسات ضرورية بأداة تعرف ب(Groma)، وتمثل هذه الأخيرة أهم الأدوات التي يجب أن يملكها الجيش في حله وترحاله، كما عثرنا في العهد الإمبراطوري على آلات للإنشاء والبناء مثل التي استعملت لرفع الجسور، والتي ذكرها قصير في أحد مؤلفاته، للمزيد من المعلومات انظر: Barbouille, J., 2010, « L'importance du génie militaire dans l'armée romaine à l'époque impériale », *R.H.A*, Paris, p.p. 84-85.

بإنشاء جسر على نهر الفرات (L'Euphrate)، وفاسبازيانوس (Titus Flavius Vespasianus) كان له مهمة اختيار مكان المخيم* (Metator)، بالإضافة إلى أربع وسبعون مشروعا أنجزته الفرقة الأوغسطية الثالثة في إفريقية تشهد عليها النقائش، ومنها بناء الحمامات والمدرجات وقنوات لنقل المياه[164]، والأمثلة منثورة عبر تاريخ الجيش الروماني تكفلت فيه قيادته بإدارة أعمال عمرانية ضخمة، كما كان بين ثنايا الجيش جنود حرفيين[165]، كما ظهرت مهمة إحصاء الأراضي الرومانية بالولاية الإفريقية، وبالتالي وجدنا بين الجيش ما يعرف بالمساحين العسكريين (Gromatici)[166]، مثلما شكلت فرق موسيقية أيضا، ففي القرن الثالث للميلاد ما بين عامي 202 و205م وجدت في مقاطعة لمبيزي العسكرية فرقتين موسيقيتين تعملان إلى جانب الفرقة الأوغسطية الثالثة، إحداها للجوق (Tubicines) وأخرى للخيالة (Curnicines)[167]، وبالمناسبة يمكننا القول أن الجيش الروماني فاق كل التوقعات وهذا لربما ما يفسر الحظوة التي تفرد بها لدى جل الباحثين في هذا المجال.

وخارج هذا الإطار، يذكر شنيتي أن الحروب التي لازمت يوميات الشعب الروماني أصبحت مع مرور الوقت تشكل ملاذا من المشاكل الاجتماعية التي بدأت تعصف بروما التي ضاقت بالعاطلين عن العمل والمتسولين، فلذلك كانت روما من خلال الخدمة العسكرية تصبو إلى تحقيق هدفين هما:

---

* المخيمات العسكرية نوعان: إما صيفية غير دائمة تنجز بمواد سريعة التلف أويتم نقلها، وتحتاج المخيمات بصفة عامة بعد سلسلة من أشغال يقوم بها الجنود بمتابعة ومراقبة القيادة العسكرية، كتسوية الأرضية، وصنع أعمدة الخيام، أما المخيمات الشتوية الدائمة (Castra statiua)، فتكون عادة ضمن المناطق المؤمنة، مثل التي كانت متواجدة بغالة الناي وميرابو(Aulnay et Mirebeau)، وتنجز بمواد صلبة، وتكون أكثر اتساعا مثل التي وجدت بـــ (Aulnay-de-Saintonge) تربعت على مساحة 292 متر / 217 متر، أي ما يفوق خمس هكتارات، وتحتوي مرافق متعددة منها السكنات ومصحة ومستودعات وورشة وأحيانا حمام، وبإمكانها استقبال من 1500 إلى 2500 جندي من الفيلق III الاوغسطي. لاطلاع على الموضوع عد إلى: Barbouille, J., 2010, p.88.

164 بشاري، م. ح.، 2002، "السياسة المائية الرومانية في منطقة الهضاب العليا"، *حولية المؤرخ*، العدد الثاني، الجزائر، ص.46.

165 Barbouille, J., 2010, p.p.79-80.

166 شنيتي، م. ب.، 2012، *نوميديا وروما الإمبراطورية تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال*، الجزائر، ص.77.

167 عمران، ع. الح.، 2013، ص.16.

1-امتصاص البطالين، والهاء الشعب بانتصارات خارجية وهذا ديدن كل الأمم التي ترغب في التستر وغض نظر شعوبها لما يوجد من نقائص بداخلها.

2-السيطرة على الشعوب المجاورة، وتأمين الحدود.[168]

وقد تمثلت مهمة الجيش الروماني في إفريقيا الشمالية في الحفاظ على المستعمرة، وهذا بصد هجمات القبائل الغير القابلة للوضع المفروض من الاستعمار الروماني، مع إدراك السلطة الرومانية أن هاته الشعوب البدوية لم تكن لتقبل بفرض السيطرة إلا عن طريق إظهار قوة الجيش الروماني، كما اقتصر عمل الجيش في المناطق التي تطلب تواجدها خدمة لمصالح روما دون المغامرة خارج تلك المناطق الحيوية.[169]

في بعض الحالات استعملت السلطة الرومانية الجند المسرحين الذين خدموا لمدة تراوحت ما بين خمسة عشر وخمس وعشرون سنة في عمليات الاستيطان والتعمير، إجمالا لما تنتهي خدمة الجندي بحسب المدة المحددة، يخير هؤلاء بين الرحيل أو البقاء، ولذلك يكمن القول أن الجندي هو مقاتل وفي الوقت نفسه بعد انتهاء الخدمة قد يستغل لغرض التوطن ورومنة الأماكن المستعمرة، حتى وصل عددهم عام 27 ق.م ثلاث ألاف محارب[170]، إذ بلغت هذه العملية حدا كبيرا في عهد نيرون، أي ما بين عامي 54 و68م، أثنائها تم مصادرة اغلب الأراضي الفلاحية والضيع التي كان يحوزها الأهالي[171]، وقد وردت هذه المستعمرات العسكرية تحت اسم أيوليا أوغسطا (Iulia Augusta)، منها ستة على الساحل وهي صلداي (Saldae) (بجاية) وايجيجلي (Igilgili)، وسيدي إبراهيم (Gunugue) ورأس ماتيفو (Rus Guviae)، وازوان (Porte Gueyson) وأخيرا تنس، وثلاثة داخلية كحمام ريغة

[168] شنيتي، م. ب.، 1982، ص ص.50-51.
[169] Dumaine, J., 1843, *De la colonisation en Afrique, par un paysan du Danube*, Paris, p. 10.
[170] فوكه، م. 2014، ص.12.
[171] عمران، ع. الح.، 2013، ص.16.

(Aqualcidae)، وتيكلات التي تبعد عن عنابة (Tubusuptu) في جنوبها الغربي ب 92 كلم.[172]

2- تراجع فعالية الجيش الروماني ودوره في تدهور أوضاع الإمبراطورية.

يحق لنا أن نتساءل عن أسباب تراجع أقوى جيوش العالم في تلك الفترة، والحقيقة تقال أن من كان من وراء تدهور الجيش الروماني، والسمعة غير المشرفة للآلة العسكرية الرومانية، والتي كانت فخر الإمبراطورية والمواطن الروماني، كما لا يجب أن ننكر أن الجيش الروماني كان سبب رئيسي في رفاهية المواطن، ومن أسباب السلامة والأمان[173]، لكن شهدنا تحول هذا الجيش إلى أداة إفساد، وشكل خطر يهدد من كان واجبه حمايتهم، والراجح كما يذكر الباحث مومسن (Mommsen)، هي سوء تسيير الشؤون المالية، ففي ظل الأزمة الاقتصادية التي عصفت بروما لم يعد الجندي يتقاضى راتبه كما كان في السابق بل قد يتلقى أجرا زهيدا لا يغطي بأي حال مصارفه، أو أحيانا يسدد له جزء منه فقط، فلذلك كانت هذه الفرق المحرومة من حقها من المال، تضطر للجوء إلى نهب القرى والمدن، أو قد تلجأ بين الفينة والأخرة إلى التمرد والعصيان كتعبير عن حالات التذمر.[174]

وبهذا اتضح ضعف هذا الجيش واتضحت معالم تدهوره، أكثر فأكثر خلال الحروب، إذ أصبحت هذه الفرق لا تقدر أن تقف أمام أعدائها بل لربما لا يمكنها أن تدفع عن نفسها الضرر، وباتت لا تملك القدرة أيضا على خوض معارك حقيقية، فكانت تتجنب المواجهة وتفضل الانسحاب من ساحة القتال، مثل ما حدث مع ماركوس بيسو (Marcus Pison) بمقدونيا (Macedonia) سنة 57 ق.م[175]، فأصبح هذا الجيش لا يتماهى وخط سير الإمبراطورية الرومانية.

---

[172] غانم، م. ص.، 2010، ص.198.
[173] تشارلز ورث، ا. ب.، 1950، ص.38.
[174] Mommsen, T., 1863, *Histoire romaine,* tome.5 Trad. Alexandre, C. A., Paris, p.94.
[175] Mommsen, T., 1863, p.94.

ولما كان الوضع كما رسمناه آنفا، ينذر بما لا يحمد عقباه، علمه أغسطس واستدركه، ففي مبادرة فريدة من نوعها، أعطى لنفسه صلاحيات القائد الأعلى للقوات العسكرية مدى الحياة، فأصبح يسيطر على الحرس البريتوريانى* (Garde prétorienne)، وكذلك الحاميات الرابضة بالمعسكرات، والأفواج العسكرية الموجودة بشبه الجزيرة الايطالية، وبالتالي استطاع أغسطس أن يفرض سلطته على كامل الإمبراطورية بالتحكم في أهم مكونتها وهو الجيش[176]، حتى احتفالات النصر** تم التخلي عنها، ولم يعد فال الحرب من نصيب قائد الحملة بل انتزعه الإمبراطور وألحقه بنفسه[177]، وبالتالي لن يكون لأحد فضل غير الإمبراطور في تحقيق أي مكسب لروما أو التباهي به واتخاذه كمطية للتمرد، وبهذه الإجراءات قضى على كل محولات الخروج عن سلطة الإمبراطور والانقلاب عليه، وقد بلغ الجيش الروماني في عهده مبلغا عظيما من القوة.

بدأت بوادر التراجع والانهيار تلوح في الأفق، لما أقحم الجيش في تنصيب الحاكم وتقرير مصير الإمبراطورية، وهذا منذ عهد الأسرة السيفيرية، فأضحت عملية تولية الحكم في روما من قبل الجيش الروماني، فينزع هذا عن الحكم ويضع ذاك دون تدخل من سلطة احد حتى ولو كان من مجلس الشيوخ الذي بات دوره صوريا لا أكثر، وهذا كله بمقابل مالي ومنفعة شخصية[178] ، وكما يذكر مونتسكيو مستشهدا برسائل خطيب روما شيشرون

---

* تمثل فرق الحرس البريتوريانى صفوة الجيش الروماني، وتتكون من تسع كتائب، ومدة خدمتهم ستة عشر سنة، مهمته حماية الإمبراطور ليل نهار وفي أي مكان والصهر على سلامته، والإمبراطور وحده من يلقنهم كلمة السر، وقد جند أغسطس القوات الرومانية، كحرس خاص، وتخضع هذه الفرقة الخاصة لقائدين برتبة بريفيكتوس (Praefectus)، وق تم توحديها في معسكر واحد خارج أسوار مدينة روما في عهد تيبريوس (Tiberlus)، كما تدخلت هذه الفرق في تنصيب الأباطرة لما لها من نفوذ وقوة. للاطلاع على الموضوع انظر: تشارلز ورث، ا. ب.، ص. 42-43.

[176] سفينسيسكايا، إ.س.، 2007، *المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية خفايا القرون*، ترجمة. حسان ميخائيل اسحق، دمشق، ص.13.

** كان الاحتفال بالنصر يأخذ منحى يفوق التصور، وذلك بالمواكب التي تستعرض أمام الرومان في مدينتهم المقدسة روما، وأيضا تقام حفلات المصارعة بين الأسرى داخل الملاعب والذين تلقوا تدريبيات على ذلك من قبل، أو قد يدفع هؤلاء إلى الوحوش التي تلتهمهم أمام أعين المتفرجين، ولما كانت هذه الاحتفالات تقام بشكل كبير، فإنها تستنزف مالا معتبرا، وتكون مصارف تلك الاحتفالات الضخمة على عاتق القائد المحتفي الذي يكون قد جمع ثروة كبيرة من الغنائم أثناء المعارك، كما تسمح تلك الاحتفالات باكتساب الشهرة والمجد اللذان يحملانه إلى تقلد مناصب مهمة بالدولة. لمعلومات اكثر انظر: ماسون، إ.، *الإمبراطور الرهيب تيبيريوس*، تعريب. جمال السيد، 1985، القاهرة، ص.33.

[177] مونتسكيو، 1748، ص.124.

[178] حسين، ش.، 2005، ص.74.

(Cicéron)، عن دور شيوخ المجلس الروماني قوله :"لم يعد للشيوخ وظيفة محددة، إلى وقت قريب كانت كلمتهم نافذة في المعمورة كلها، وإذا بها لا تكاد تسمع حتى بين جدران مكتب واحد."[179]، كما مثل الجيش أكثر الوسائل نجاعة للوصول إلى الحكم، مثل ما كان وصول سبتيميووس سفيروس* (Lucuis Septimius Severus) إلى عرش روما بالاعتماد على الجيش مقابل عطائه السخي، فضمن سفيروس ولاء الجيش وإخلاصه له، ولما أصبح الحال على هذا النحو لم يعد الجيش يضم ذلك الجندي المخلص لواجب وطنه، وكانت لبنة هذا جيش قوية قهرت أمم كثيرة، بل نجده قد حاب عن هذا المنحى وأصبح همه الوحيد هو جمع المال وطلب العطايا[180]، فكان بالإمكان حينها شراء ثورة، وشراء ثورة مضادة بثمن أكثر من العطاء الأول، وهذا ما أثار مخاوف المواطنين وحكامهم أمثال أغسطس، حيث حسب تعبير جيبون أن الجيش الروماني أصبح سفيها[181]، أي بعيدا عن ما عرف عنه، من القوة والبطولات التي حققها، وأصبح نذير فناء لا أداة وحدة وفخر للرومان.

وتجدر الإشارة إلى أن الانضباط الذي كان اسمنت الجيش الروماني، وهو في نفس الوقت بانفلاته سيكون احد أسباب تراجع هذا الجيش، فشهدنا انعدام النظام فيه، وخاصة في ظل التهديدات التي باتت تتربص بالدولة الرومانية من شعوب البرابرة التي وصلت إلى حددوها، وأمام تخلي الجيش عن مهامه، استعملت السلطة الرومانية قبائل البرابرة من اجل حراسة الحدود، التي كان من واجب الجيش التصدي لها ومقارعتها.[182]

---

[179] مونسكيو، 1748، ص.110.

* لوكيوس سبتيميوس سفيروس من أصول ليبية ولد بـ11افريل 146 م بلبدة الكبرى (Leptis Magna)، لم يكن يحسن اللغة اللاتينية، وكان ينتمي لطبقة الفرسان، درس الفلسفة بأثينا والحقوق بروما، تجنس بالجنسية الرومانية (Romaniser)، تقلد عدة وظائف في مناطق مختلفة ومنها إفريقيا وسردينا، ولما كان بسوريا تزوج هناك من امرأة سورية ابنة كاهن حمص (Emissa) تدعى دومنا (Domna)، ولما عين على أقوى الفيالق الرومانية وهو الفيلق الإليري، وظف نفوذه في التأثير على الجيش لحمله على العرش، من ذريته كراكلا وإيليا جباليوس والإسكندر سيفوس. للمزيد من المعلومات انظر: غانم، م. ص.، 2010، الجزء الأول، ص.204.
شنيتي، م. ب.، 2012، ص.30.

[180] شنيتي، م. ب.، 1982، ص.93.

[181] جيبون، إ.، 1828، الجزء الأول، ص.94.

[182] الحويري، م. م.، 1995، *رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية*، القاهرة، ص.21.

وما لا يجب إغفاله في هذا العنصر، دور الحروب الأهلية (Bellum civile) التي أخرجت الجيش من دائرة مهمته الأصلية[183]، فلا اخطر على دولة، بذاتها وحتى جيرانها، من الحروب الأهلية التي تمزقها، وتنشر الفوضى في أرجائها، فيذهب الأمن وتتشتت الجهود وتعصف بكل الانجازات وتهدر القوى البشرية الفاعلة في المجتمع، فيشغل الناس بالحرب وقد يكونوا هم من ضمنها، فيتحول التاجر والمزارع والصانع إلى محارب، وبالتالي تتحول الدولة، من دولة مواطنين إلى دولة مقاتلين[184]، فلقد زعزعت الحروب الأهلية المتتالية على المجتمع الروماني استقراره وأركانه، فانتشرت الفوضى في أرجاء الدولة كالنار تلتهم الهشيم، وذهبت ثقة المواطن أدراج الرياح، وبدلت باليأس الذي تملك قلوب الرعية، ومنها ثلاث حروب اندلعت خلال عامي 90 و30 ق.م.[185]

ومن مظاهر هذا العجز الذي ألم بالجيش الروماني، ما حدث بإفريقيا، حيث لم يقدر هذا الأخير من أن يضع حدا لتهديدات القبائل الرافضة خارج حدود المناطق التي سيطرت عليها روما، ودفعت هذه الهجمات روما أن تخلت عن جزء كبير من الأماكن لصالح القبائل التي لم ترضى بالوجود الروماني وفضلت الاستقرار بالمناطق الخارجة عن سيطرتها، فلم تجد السلطة الرومانية بدا سوى الاكتفاء بمناطق محدودة من الولاية وهي ما عرف بـ"إفريقيا المفيدة"[186]، كما لا يفوتنا ربط كل ذلك بتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية والتي أسهمت مثل ما يقول محمود الحويري "في تشويه بنائه."[187]

وفي هذا الصدد يرسم بشاري محمد الحبيب الصورة القاتمة التي آلت إليها الإمبراطورية في نهاية القرن الثالث الميلادي، والتي أثرت بطريقة أو بأخرى على الجيش قوله:

---

183 Bloch, G., *L'empire romain évolution et décadence*, Paris, p.285.

184 مونسكيو، 1748، ص.107.

185 تشارلز ورث، ا. ب.، 1950، ص.11.

186 بشاري، م. ح.، ص.247.

187 الحويري، م. م.، 1995، ص.21.

دخلت الإمبراطورية الرومانية ابتداء من نهاية القرن الثالث ميلادي مرحلة خطيرة من تاريخها تميزت بتردي أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، واهتزاز استقرارها السياسي وانتشار حركات التمرد والثورات في مختلف مقاطعاتها، وولت هيبة جيشها الذي استطاع في الماضي إخضاع كل شعوب البحر المتوسط والسيطرة على أراضيه، فلم يعد يرهب أحدا ولا قادرا على الدفاع عن حدود الإمبراطورية من الأخطار الخارجية، ولا حماية أمنها واستقرارها من حركات التمرد في الداخل.[188]

فظهرت عدم قدرة الجيش الروماني للتصدي حتى لأضعف الشعوب في نظرهم وهم سكان شمال إفريقيا، فأمام كثرت الاضطرابات التي ما فتئت تنتهي حتى يلهب فتيلها مرة أخرى، ابتداء من 18م، ثم عادت عام 289م، فكثرت من يومها التخليات في الجيش وبشكل مطرد وملفت، مما دفع بالقرى والمزارع إلى التحصن في غياب من يحميهم[189]، كما لا يفوتنا هنا الاستشهاد بأخطر انهزام عرفه الجيش الروماني طيلة تاريخه الحافل بالانتصارات، هي تلك الانتكاسة المخزية عام 260م أمام الفرس وانتشر خبر اسر الإمبراطور فالريانوس (Valerianus) كسابقة خطيرة شهدها التاريخ الروماني إذ لم يحدث وأن اسر إمبراطورا رومانيا من قبل.[190]

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى تردي الجيش، ما يسوقه مونتسكيو عن مغادرة الجيش لأرض الوطن الأم أي ايطاليا لسنون وأعوام، فعبرت جحافله البحر واجتازت الجبال فضعفت رابطة الوطن، وأدرك القادة ما بأيديهم من قوة فاستقلوا بجيوشهم، ففي السابق كان الجيش وقادته تحت عين مجلس الشيوخ وتحت رقابته[191]، لكن بعد اتساع دائرة النفوذ افلت

---

188 بشاري، م. ح.، ص.246.

189 أندري، ب.، أندري، ن.، إيف، ل.، 1960، *الجزائر بين الماضي والحاضر*، ترجمة اسطنبولي، ر.، ومنصف، ع.، 1984، الجزائر، ص.80.

190 المحجوبي، ع.، 2001، ص.172.

191 مونسكيو، 1748، ص.89.

الجيش وقادته من قبضة من كانوا يراقبونه، وبات هؤلاء يخدمون مصالحهم ليس إلا، بعدين عن خدمة الإمبراطورية، بل قد يهددون كيان دولتهم، إما بالتمرد أو الثورة عليها، ومثال ذلك ما حصل قبل أغسطس وبعد كومودوس* (Lucius Arelius Commodus)، أي طيلة مائتين وعشرين سنة، بَعُد خطر الجيش، لكن بعد وفاة نيرون** (Néron)، قتل بحد السيف أربع أمراء في مدة ثمانية عشر شهرا، وأدرك الجيش ضعف السلطة السياسية وما لديه من قوة ضاربة يمكن استعمالها لخدمة مصلحته والتحكم في دوالب الحكم[192]، كما هلك على يد الجيش بعد مقتل كركلا كلا من ماركوس اورليوس أونطونيوس والكسندر سيفريوس، فالأول انهمك في ملذاته وانشغل عن الجيش، أما الثاني فأراد أن يرجع سلطة الحاكم وعزم على معاقبة كل من يخالف النظام[193]، ومما اضعف كذلك من قدرة الجيش أن أصبحت الخدمة العسكرية وراثية وإجبارية[194]، كما لا يفوتنا هنا ذكر ما أل إليه جند الحرس البريتوري الذي بلغ ما بين عشرة ألاف وخمسة عشرة ألف جندي درجة من الطغيان، مما دفع جيبون إلى تسميتها "العصابة البريتورية" التي ألقت الرعب في نفوس الناس فكان هذا أول سمات تراجع

---

* في يوم 31 أوت من عام 161م ولد كومودوس بمدينة لنيفيوم (Lanuvium)، من الإمبراطور ماركوس اورليوس (Marc Aurèle) وفستين (Faustine de la Jeune)، ، وقد حقق عند انتصارات عسكرية مما سمح له بتقلد ألقاب (Germanicus et Sarmaticus) في الأعوام 172 و175م، وفي عام 176م تقلد منصب إمبراطور، وتحصل في عام 177م على لقب أغسطس بممارسة الحكم إلى جانب والده، وعند وفاة ماركوس في17 مارس من عام 180م، عين كومودوس بدلا عن والده من مجلس الشيوخ حكما جديدا، وقد سجل عنه عدد من العيوب مثل التفاخر والكسل وانعدام الرحمة، بالإضافة لإسرافه في النفقة وتزمته لرأيه، كما اتهم أيضا بالرشوة وضعف الشخصية مثل ما يصفه ديون كاسيوس، انتقل إلى عالم الأموات عام 193م.لمعلومات أكثر ارجع إلى: Koch, E., 2016, *Portrait d'un tyran :Commodus Hercules Romanus, le prince gladiateur*, Paris, pp. 1-91.

** ولد نيرون بأنتيوم (Antium) يوم 15 ديسمبر عام 37م، تسع أشهر بعد وفاة تيبريوس (Tibère)، وهو ابن دوميتيوس (Domitus Aenobarbus) وأغريبين (Agrippine)، تقلد السلطة عام 54م، كان عهده حافلا بالاغتيالات والتخلص من من يشك في اخلاصه، ولوكان من اقرب الناس له كما حدث مع والدته عام 59م، وهذا يندرج في اطار إشباع رغباته الجامحة في ممارسة سلطة مطلقة، ولعل أبشع هذه الأفعال حرقه لروما عام 64م وتلفيق التهمة للمسيحيين، عرف بالحاكم المختل وغير المتوازن نفسيا بممارسة علاقات جنسية مع والدته، كما عرف بتعطشه لسفك دماء الغير، فكان اقرب إلى شخصية كليجولا منه إلى غيره، وفي بداية عام 68م وأمام تخلي الجميع عنه وفي مقابلة عدد من الثورات أقدم نيرون على الانتحار في يوم 9 جوان من نفس العام. للمزيد من المعلومات عد إلى:

Suétone, *Vie de Néron*, VI, VII, VIII, LVII, trad.M.Cabaret-Dupaty, 1893, Paris.

Clavé, Y., 2017, *Le monde romain VIII siècle av. J.-C.-VI s. apr. J.-C.*, Malakoff, p.p.174-175.

[192] جيبون، إ.، 1828، الجزء الأول، ص ص.94-95.

[193] مونتسكيو، 1748، ص.152.

[194] محبوبي، ع.، ص.483.

الإمبراطورية[195]، ولذلك أدرك كل من انتقل إليه الملك ما مدى أهمية الجيش في الحفاظ على منصب الإمبراطور، وبذلك كان الواحد منهم يطلق يده بالعطايا ويسعى لإرضاء عناصره، مثل ما جاء في وصية سبتيميووس سفيروس لعقبه قوله: "أيها الأبناء ارضوا الجند واهزؤوا بمن بقي."[196]، كذلك فعل ابنه كركلا عملا بوصية والده، بإجزال العطاء للمحاربين وإثرائهم دون أن يأبه لما سواهم من الرعية[197]، فلم تبقى قاعدة في تولي الحكم بروما غير إرادة الجند.

وبصدد الحديث عن مساوئ الجيش الروماني التي انتشرت هنا وهناك فعلمه العدو والصديق وأصبحت حديث العامة من الناس، ما وجده ميتيلوس (Metelus)، عام 110 ق.م من ألوان عدم الانضباط، انصراف هذا الجيش للتجارة في السوق السوداء، وبذلك حاد عن مهامه الأصلية، وهذا كان من ضمن أسباب انهزامه أمام جيش يوغرطة في معركة سوتول (Suthul)[198]، كما مس الفساد جوهرة جنود روما وهي طبقة الفرسان حيث قلدوا النبلاء، لما تجمعت لهم ثروة كبيرة، فانغمسوا في حياة البذخ والترف والمجون ومثال ذلك الفارسين ماركوس غايليوس روفوس (Caelius Rufus) وجايوس سقريبونيوس قوريو.[199]

ولكن ما يهمنا هنا هي أخبار إفريقيا ومألاتها في ظل هاته التطورات، فلقد تأثرت هي الأخرة بما لحق بجيش الإمبراطورية، مثل ما يذكر جوليان أن الفرق العسكرية هناك قد فقدت الكثير من "مرونتها وحزمها"، فتحولت من أداة لاستتباب الأمن وتثبيت النظام، إلى أداة إفساد وإثارة للفوضى والشغب، ومما زاد من تردي أوضاع الجيش أن لجأت روما إلى التجنيد في صفوف الفلاحين بإجبار الملاك على تزويدها بالجند أو شرائهم من المتاجرين، وهذا لما تعذر التجنيد بالتطوع، فكان أسوء جيش لدى روما، بالإضافة لانعدام الإخلاص لدى هؤلاء وترقب أي تصرف ينافى مصلحة وامن الإمبراطورية[200]، ولهذا تعرضت إفريقيا الرومانية في الثلثين

[195] جيبون، إ.، 1828، الجزء الأول، ص.117-118.
[196] سنيوبوس، ش.، ص.187.
[197] مونتسكيو، 1748، ص.152.
[198] غانم، م. ص.، 2010، الجزء الأول، ص.158.
[199] نصحي، إ.، 1978، الجزء الثاني، ص.732.
[200] جوليان، ش. ا.، 1931، ص.278.

الأخيرين للقرن الثالث ميلادي إلى حالة من لا استقرار وتفسخ كبيرين لم تشهدهما المنطقة جراء الحروب الأهلية التي كانت إفريقيا طرفا فيها، في مدة الخمسون سنة، اتسمت بالفوضى من 235 إلى 285م، حيث أن الجيش انقسم على نفسه وأصبحت كل فرقة تنادي بتنصيب إمبراطور يلائمها، وفي عام 238م حُمل إلى العرش بإفريقيا قورديانوس (Marcus Antonius Gordianus Sempronianus Romanus Africanus) والذي ستتخطفه الموت في خضم الحروب الأهلية ولم يدم حكمه سوى شهرا واحدا، كما حُلَ الفيلق الإفريقي واختفى من الساحة مدة خمسة عشر سنة من 238 إلى253م، واستمرت حالة الفوضى هاته مرات ومرات خلال سنوات 258–260م، وعشرة سنوات أخري ما بين عامي 289 إلى 298م[201] ، وبقيت الإمبراطورية تحت رحمة الشعوب المجاورة لها، فخلال عامي 250 و280م أقدم القوط الشرقيون على خراب المدن المطلة على بحر ايجة، ومن جهة هسبانيا أثخن الفرنجة في مدنها، وعلى جبهة بريطانيا بدأت المناوشات من الايرلنديين والسكسونيين، مثلما ظهر أيضا الخطر الداخلي يهدد أواصل الإمبراطورية، فتكالب كل طامع في المطالبة بالحكم، فبرز في تدمر فابالاثوس (Lucius Julius Aurelius Septimus Vaballathus Athenodorus) مطالبا بالعرش، كما اطل من جهة بلاد غالة بوستموس (Marcus Cassianus Latinius Postumus) معلنا نفسه إمبراطورا لروما في صيف عام 260 إلى جوان 269م.[202]

3- الليمس خط دفاعي روماني.

يعرف الليمس في القواميس على أنه التسمية التي أعطاها المؤرخون المعاصرون على مجموع التحصينات المقامة على بعض من الحدود الرومانية، والتي تفتقد تحصينا طبيعي[203]، مع العلم أن القرطاجيين لم يسيطروا سوى على قرطاجة وثلث شمال شرق تونس الحالية، وبعض المحطات من تينجيس (طنجة) حتى ليبيا أي منطقة المدن الثلاث طرابلس

[201] Albertini, E., 1937, p.p.63- 64.

[202] تشارلز ورث، ا. ب.، 1950، ص.191.

[203] Delacroix, F., et autres, 2014, *Le petit Larousse*, Paris, p.666.

(Oea)، صبراتة (Sabratha)، ولبتيس ماغنا (لبدة)، ما معناه أن ما تبقى من المناطق كان خارجا عن سيطرة قرطاجة، مثل المور القاطنين بالمناطق الجبلية، غير أن هذا لم ينفى وجود مناطق عازلة أقامها القرطاجيون تمثلت في الخنادق، وقد استغلت روما هاته التحصينات فيما بعد[204]، وتمثل المنظومة الدفاعية لخط الليمس (Limes, Limitaei) أي الحدود، حدا فاصلا بين ما حققته روما من مكاسب ترابية بشمال إفريقيا، وأراضي الشعوب المعادية لها في المناطق الجنوبية وخاصة قبائل الجيتول (Getules) التي كانت تمثل خطرا حقيقيا ودائما على الرومان ومصالحهم.[205]

وبهذا يكون الليمس حزام أمني، يمثل مناطق عازلة يصل عرضها أحيانا ستون كلم ويشمل ثلاث عناصر أساسية، أضيفت لها عناصر أخرى مع الزمن لزيادة فعاليته واستدراك النقائص، وهي أولا الخندق (Fossatum) مضاف إليه مراكز للمراقبة وحصون وأبراج مشيدة إما بالطوب أو الحجارة، ثانيا قلاع وأبراج محصنة إما أن تكون أمام الخندق أو وراءه وبالتالي فهي منعزلة، وآخرها سلسلة من الطرق تسهل حركة الجيش فيسهل عليه التدخل عند الضرورة، وتسيطر روما أكثر على المناطق المرومنة، وقد تم تشييد هذا الخط الدفاعي بإفريقيا الشمالية خلال القرنين الأول والثالث على مراحل، ففي البداية كان اتجاهه شرق–غرب ثم شمال–جنوب، حينما استكملت روما سيطرتها على الشمال الإفريقي[206] فطابقت حدوده الحدود الحالية لتونس وليبيا والجزائر الشرقية، وقد يكون إما نهائيا في أماكن أو وقتيا في أماكن أخرى، على حسب تحقيق الهدف المسطر من عدمه، ولذلك فحسب التصور الذي يسوقه شارل جوليان انه ليس خطا دفاعيا فقط، مثل ما اعتبره جل الباحثين، بل بحسب الوصف السابق على انه جهاز معقد، كما أن الليمس يوجد قبل تنفيذ عمليات الاستعمار

[204] Richardot, P., 1996, « Le plus vieux limes: la défense de l'Afrique romaine", *CFHM*, Toulouse, p. 851.

[205] مسرحي، ج.، 2009، "المقاومة النوميدية في الجنوب الشرقي الجزائري، ثورات الاوراس والتخوم الصحراوية نموذجا"، مذكرة لنيل درجة ماجيستر في التاريخ القديم، جامعة منتوري قسنطينة، ص.3.

[206] فوكه، م.، 2014، ص ص.10-11.

فيوضع أولا ثم يشرع في الاستعمار ثانيا[207]، ولعلنا نذكر هنا أول تحديد للمناطق الرومانية من ما سواها من الأراضي التي لم تدخل في دائرة الإمبراطورية، هو الخندق الروماني المقام من سيبيون بعد وفاة ماسينيسا، إلا أننا لاحظنا من خلال تتبعنا للأحداث أن روما لم تكتفي وتتوقف عند هذا الحد، بل واصلت توسيع دائرة نفوذها إلى مناطق ابعد، و يمكن لنا أن نذكر في نفس السياق قول الباحث الفرنسي بول دبروست (Paul-Augustin Deproost) :"إذا أرادنا يوما أن نجد العلامة التي تبين حدود الإمبراطورية الرومانية، لربما لن نجد العبارة التالية"هنا تنتهي الإمبراطورية الرومانية" (Hic finit imperium Romanum)، لكن من المرجح أن نجد بدل ذلك "هنا لا تنتهي روما" (Hic non finit Roma)"[208]، وفي نفس السياق يذكر بواسييه (Gaston Boissier) في كتابه إفريقيا الرومانية، أن الجند الفرنسيين خلال عملية الاحتلال للجزائر قد تعجبوا بوجود اثر للجيش الروماني في كل المناطق التي وطئوها مهما بعدت الشقة وتوحشت الطبيعة، فمثلا الجنرال سانت أرنو (Saint-Arnaud) في إحدى رسائله يوم 7 جوان 1850م لشقيق له، لما بلغ مع جنده احد أصعب الممرات بسلسلة الأوراس واصفا إياها بشبيه للمخروط محاط بصخور بعلو خمسمائة متر ونعتها وكأنها نهاية العالم، وكان ينوي تخليد مروره هناك بوضع أسماء الأفواج العسكرية وقادتها على الصخور، لكن في الأيام اللاحقة يكتب مغيرا رأيه ومندهشا لما وقع بين يديه، انه عثر على نقوش تدل على مرور الفيلق السادس الروماني في عهد انطنيوس بيوس[209]، وهذا يعني أن روما لا تعرف في عرفها حدا لإمبراطوريتها.

ولزيادة فعالية هذا الخط الدفاعي، تم تعزيزه بتشييد مدن في المناطق المحصنة حتى يسهل حراستها وتكون بمثابة مناطق إنذار أولي، ولقد كانت هاته المدن مرتبطة بالطرق الرئيسية، وهذا كله يدخل ضمن تحصينات الليمس سواء خلال القرن الأول أو الثالث للميلاد،

[207] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.184.

[208] Deproost, P. A., 2004, « Hic non finit Roma. Les paradoxe de la frontière romaine », *FEC*, numéro 7, Bruxelles, p.29.

[209] Boissier, G., 1912, *L'Afrique romaine promenades archéologiques en Algérie et en Tunisie*, Paris, p.p.90-91.

خاصة لما كثرت هجمات المحليين على المزارع والمدن مستغلين ضعف الدولة الرومانية خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي[210]، وبالتالي فان الليمس لم يكن سوى منطقة محروسة، كما أن الحواجز التي وضعت لم تعرقل حركة جيش الدورية[211]، ولم يكن أبدا حدا غير قابل للتواصل بين عالمين احدهما متحضر والأخر متوحش، مثل ما يصف سالوستيوس (Sallustius) بعض شعوب شمال إفريقيا بالوحشية، وهي نظرة جل الرومان اتجاه الشعوب الأخرى، وهذا ما يدفع إلى استخلاص حقيقة الشعب الروماني بوجود نظرة استعلائية وعنصرية كامنة بنفوسهم قوله:"الجيتول أمة متوحشة وفضة يجهلون من هم الرومان."[212]

ونجد مناطق للتعامل الاقتصادي بين تجار المنطقتين[213]، كما مثلت شبكة الطرق المقامة أهم عنصر من عناصر المكونة لهذه المنظومة، فكانت "أداة سيطرة واستغلال اقتصادي" بحسب تعبير محفوظ قداش، ولقي انجاز الطرق عناية كبيرة من السلطة الرومانية، فأنجزتها بطريقة جيدة وبنظرة جمالية فائقة، كما كانت في كثير من الأوقات واسعة تصل إلى 7.20 م بالنسبة لطريق (قسنطينة سكيكدة)، وكثرت بها الجسور المنمقة بالعقد التي فاق طولها عشر أمتار، وقباب ثلاثية الأضلاع منحوت على مدخل قبته العليا رأس حصان، بالإضافة إلى تجويفات مزينة بنجيمات، وزودت الطرق بعلامات ألفية تشير إلى المسافات، ونقوش تؤرخ للمنطقة، ويضيف قداش في عرض حديثه عن الطرق الرومانية بإفريقيا وأهميتها ووظائفها على أنها:"سمحت بتقدم جبهة الاحتلال من تيفاست إلى تاموقادي ومن سيتيفيس إلى أوزيا ومن غادوم إلى تاسوكورا وألبولا ومن هوهوس بروكوروم إلى نوميروس سيروروم."[214]، كما اعتبر خط الليمس حسب تعبير العروي :"وسيلة لتوسيع وتركيز عملية التعمير، هكذا يراه اليوم اغلب الباحثين."[215]، كما أن خط الليمس قد تموقع في أماكن

[210] عمران، ع. الح.، 2013، ص.16.
[211] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.185.
[212] Salluste, , LXXX.
[213] Deproost, P. A., 2004, p.32.
[214] قداش، م.، 1993، ص.168.
[215] العروي، ع.، 1984، الجزء الأول، ص.63.

إستراتيجية من تراب الشمال الإفريقي قصد تسهيل رؤية معالم هذا القطر ومراقبته عن كثب من خلال هذه المؤسسة[216]، مثل ما عرف الليمس بنظام التحكم العسكري، الذي يحول بين الرحل ويطوق الجبال.[217]

ويعرفه شنيتي أيضا، بأنه حزام دفاعي، أقيم على الحدود، ولقد تطور مداه مع تطور التوغل الروماني بالمنطقة جنوبا أو غربا من قرطاجة بعد دكها سنة 146 ق.م، ولقد تضمن منطقة يتراوح عمقها بين خمسين إلى مائة كيلومتر، تتوسطه سلسلة من الطرق والقلاع المحصنة، والتي اختير مكانها بعناية فائقة لترصد حركة القبائل النوميدية والموريطانية على حد سواء، وكذلك من مهامه الدفاع أيضا، كما وجدت فيه مستعمرات قدماء المجندين الرومان (Vétérans)، وجملة من الخنادق والأسوار، ولم تكن حدوده ثابتة، بل يزداد حسب الانجازات العسكرية المحققة، وكان بمثابة نظام عسكري واقتصادي، ولقد خضع لجملة من التعديلات بزيادة التحصينات بحسب اشتداد المقاومة آنذاك، ويتكون الليمس من ثلاث عناصر أساسية الخندق، الأسوار والطرقات، ولقد شكل حدا بين التحضر الذي يمثله العنصر الروماني المحتمي داخل أسوار الليمس، والتخلف الذي مثله البدو خارج تلك الأسوار، كما ظهرت أهمية المستعمرات الرومانية كضرورة أمنية، بحيث أنشئت من حول المدن الكبرى مثل سيقا (Siga)، وليكسوس (Lixus)، وولايلي (Volubilis)، ويول (Iol)[218]، غير أن الرومان اعتبروه عكس ما عرف عند الكثير من الباحثين، باعتباره حدا محصنا وهذا بالرغم من أن الحقائق الأثرية تؤكد هذا المسعى، على انه طريق عسكري لا أكثر[219]، كل هذا يجرنا للقول أن خط الليمس بكل إضافاته وتعديلاته مثل حدا بين كل ما هو روماني وغير روماني، وعبر

---

216 رحماني، ب.، 2016، "الجزائر في ظل الاحتلال الروماني أو نحو التأسيس لكتابة تاريخنا الوطني القديم"، *مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر، ص.73.

217 صحراوي، ع. ق.، 2011، ص.35.

218 شنيتي، م. ب.، 1982، ص ص.113-137.

219 Jérôme, F., 2013, *Le haut-empire romain 44 a.c.-235 p.c,* Paris, p.40.

بشكل لا يدعو إلى الشك عن عنصرية كامنة في نفوس الرومان، ونظرة استعلائية اتجاه الشعوب الأخرى، وهذا بالرغم من محاولات إثبات عكس ذلك.

وتبدوا أهمية الليمس، في مراقبة تحرك القبائل المحلية نحو التل والمناطق الزراعية وهذا بفضل ما يتوفر عليه من أسوار وخنادق نصبت أمام المعابر، وزودت المرتفعات بقلاع للرصد والمراقبة، واستحكمت الحصون بالحاميات العسكرية وحصنت المزارع، وبذلك استطاعت روما بتوظيف هذه الحزمة من التحصينات متمثلة في منظومة دفاعية معقدة أن تضل بالمنطقة أربع قرون[220]، كما زُودَ هذا الخط بجنود تحرس حصونه على الدوام[221]، مما يوحي بانعدام الأمن وكثرت خروقات القبائل الإفريقية الخارجة عن طاعة روما.

كما يمكن لنا أن نلخص دور خط الليمس في ثلاث ادوار رئيسية وهي أولا دور دفاعي بحماية المكاسب الإقليمية للدولة الرومانية بشمال إفريقيا وضمان استمراريتها بالمنقطة، ثانيا دور اقتصادي بتحقيق تواصل تجاري مع القبائل المتواجدة خارجه وإغناء هذا التبادل، ثالثا دور ترابي يمثل حدا بين منطقتين متمايزتين أحداها رومانية وأخرى غير رومانية أي ممارسة سياسة عنصرية ضد السكان الأصليين، كما عبر هذا الخط عن التوجس والخوف للرومان والاحتياط لكل الاحتمالات، وعليه يمكننا القول أن الليمس قد شكل مؤسسة معقدة المكونات ومتكاملة الأدوار.

على أن إحدى حواصل هذا الإنشاء للطرقات وإتباعها بالأسوار والقلاع وكذا الخنادق والمدن المحصنة قد اضعف وبشكل واضح تحركات القبائل البدوية التي وجدت نفسها محاصرة وتقلصت مساحة نشاطها الاقتصادي، كما أن المستقرين منهم بعد مصادرة أراضيهم إما لصالح المدنيين من الرومان أو المسرحين من الجند، قد وجدوا انسفهم مشردين دخلوا عن غير رغبة في دائرة البداوة.

---

[220] عقون، ع.، 2010، *الامازيغ عبر التاريخ: نظرة موجزة في الأصول والهوية*، الرباط، ص. 39.
[221] جوليان، ش. غ.، 1931، ص.277.

كما وظفت بعض المدن لمراقبة دواخل المغرب القديم، وهي في حقيقة الأمر مستوطنات، فمثلا انتصبت مدينة تيكلات (Tubusuptu) كالحارس بجبال جرجرة، وأشرفت كل من مليانة (Zucchabar) على واد الشلف (Chylinath)، وتامنتفوست (Rusguniae) على الطريق المؤدي لنفس الوادي عبر حمام ريغة (Aquae Calidae)، ويعود إنشائها إلى فترة تولي أغسطس الحكم بغرض مراقبة موريطانيا في المدة التي أعقبت وفاة الملك بوخوس الثاني عام 33 ق.م.[222]

ومن بين مكونات هذا الخط الدفاعي والتي ظهرت بخط الليمس النوميدي:

1-المراكز الدفاعية الأمامية والتي هي عبارة عن قلعة (Castellum) كالتي وجدت بمنطقة بير جفير البعيد عن برج سعادة جنوبا بـ12 كلم ويمر به طريق تقرت، ويعتقد انه كان في الأصل محطة راحة (Caravansérail).

2-خط داعم مثل الليمس الممتد على ضفتي واد جَدي.[223]

كما شيد في عهد سبتيموس سفيريوس (193-211م) خط يمتد من طباكاي (Tapacae) قابس، حتى طرابلس من اجل حماية المناطق المفيدة منها الحواضر والأماكن الفلاحية وليس بعيدا عنها ببضع عشرات من الكيلومترات على امتداد هذا الخط انتصبت مراكز عسكرية لمراقبة مناطق العبور والآبار[224]، وعلى هذا الأساس يمكن الفصل في دور الليمس الذي لم يكن قد اقتصر على حماية الثغور بل تعداه إلى لعب دور في عمليات التوطين واستغلال الأراضي.

---

[222] صحراوي، ع. ق.، 2011، *التحصينات العسكرية بنوميديا و موريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني 46 ق.م-284 م*، عين مليلة، ص ص.24-23.

[223] عقون، ع.، 2016، "الليمس النوميدي نظرة موجزة في الخطوط والمراكز الأمامية للتوسع الروماني في الجنوب النوميدي"، *مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر، ص ص.193-192.

[224] Lugan, B., 2016, *Histoire de l'Afrique du nord (Egypte, Lybie, Tunisie, Algérie, Maroc) des origines à nos jours*, Monaco, p.90.

4- تدهور الأوضاع وتراجع الليمس.

تغير خط سير الليمس تبعا لقوة روما وتنفيذا لخططها الاستعمارية، فلم تكن خطوطه قارة وثابتة بل اتسمت بالمرونة متبعة خط سير الجيش الروماني، ففي القرن الأول اكتفت روما باحتلال بعض الأماكن الواقعة شمالا، منطلقة من قرطاجة، وهذا كله في إطار الاحتلال على مراحل، ففي ليبيا لم يتعدى الاحتلال الشريط الضيق للساحل، ثم توسع في تونس ووقف غربي قابس* على شط الفجاج، ويتخذ خطا نحو الشمال بقفصة** (Capsa, Sufetula)، وتلابت (Thelepte) (فريانة)، وتيفست*** (Theveste) (تبسة)، ثم يتعرج حول جبال الاوراس، وصولا إلى سيتيفيس (Sitifis) (سطيف) ومجانة (Castellum Medianum)، ويصل إلى الغرب مرورا بالبرواقية، ثم أوبيدوم نوفو**** (Oppidum novum)، فمدينة

---

* قابس (Tacape, Tacapae ou Tacapes)، مدينة تعود أصولها إلى فترة ما قبل مجيء الفينيقيين بما يوجد بين ثناياها من بقايا أثرية دالة على ذلك، تشغل مدينة قابس موقعا مميزا ضمن خريطة تونس، هي مدينة ساحلية تقبع على هضبة صخرية في الجنوب التونسي، بين البحر المتوسط وشط الجريد بعمق السرت الصغير، فهي مدينة تجمع بين كونها واحة وميناء، كما تزخر المدينة ببقايا أثرية تعود إلى الفترة ما قبل التاريخية، ففي الشمال هناك واد اكاريت وبالجنوب منها مارث، سقطت بيد الاغليد ماسينيسا سنة 162 ق.م، ثم تحت الحكم الروماني ستحظى بصفة مستعمرة رومانية منذ القرن الثاني ميلادي. لاطلاع على الموضوع انظر: Ben Ramdhane, Kh., "Gabès", La Tunisie antique et islamique: Patrimoine archéologique tunisien, Tunisie.

** تقع قفصة على بعد 35 كلم من مدينة القصرين (Cillium) في الجهة الشمالية الغربية، لا تذكرها المصادر القديمة لكن المدينة تعرف أزهى عصورها في أواخر الفترة البيزنطية، وخاصة مع بدأ الفتوحات الإسلامية، لكن ما هو معروف تاريخيا وتؤكده الكشوف الاثرية بوجود سبع كنائس مما يوحي الى ظهور المسيحية بها وهذا منذ عام 256م. لاطلاع على الموضوع انظر:

Bejaoui, F., 1994, « Sufetula chrétienne », La Tunisie antique et islamique: *Patrimoine archéologique tunisien*, Tunisie. p.64.

Moreno, S., 2020, « Sbeitla, la splendeur de la chrétienté africaine », *Histoire et Archéologie chrétienne*, Tunis, p.p. 3-42.

*** تيفست هو الاسم اللاتيني خلال فترة الاحتلال الروماني، وقد عرفت باسم هيكتامبيلوس، وتعد من أقدم المدن اللوبية، وسميت كذلك تشبيها لها بمدينة طيبة المصرية ذات المائة باب، وتؤكد المصادر التاريخية بوجود كثافة سكانية معتبرة بها تفوق 3000 عائلة استنادا إلى عدد أسرى حانون القرطاجي، مما يدل على غنها مثل ما يؤكده ديودور الصقلي، وقد تأثرت أيضا المدينة بالحضارة القرطاجية مثلما جاء عند قزال من خلال التنقيبات الأثرية، واستمرت المدينة في لعب دور مهم خلال الحقبة الرومانية إذ أصبحت نقطة اتصال تجارية مفصلية بين الشمال والجنوب، وكذلك لأهمية موقعها المشرف على المنطقة الشرقية الأوراسية، فقد استقرت بها الكتيبة الثالثة الرومانية لمواجهة التحديات بالمنطقة التي عرفت بشدة المقومات فيها. حول الموضوع ينظر: غانم، م. ص.، 2010، الجزء الثاني، ص ص.190-199.

****تتبع حاليا ولاية عين الدفلى، ويعني اسمها (Oppidum Novum) المدينة الجديدة، وهي تقع على تله تطل من الشرق على نهر الشلف، ويقابلها جبل دوي وعريب، أنشأت المدينة ما بين عامي 42 و43م في عهد الإمبراطور كلوديوس، كانت مستعمرة للجيش الروماني حيث سكنها المتقاعدون، ومن المفترض أنها احتوت ثكنة عسكرية (Praesidium)، وبالتالي فهي إحدى النظم الدفاعية المعززة لخط الليمس، ولذلك شهدت تشييد شبكة من الطرقات، ومنها الطريق القادم من صلداي (Saldae) متجها نحو افونترايا (Ephantaria) (موزاية)، وحمام ريغة (Aquae Calidae)، وهناك طريق أخر يصل حتى موريطانيا الطنجية (Mauritanie Tingitane)، أخذت أوبيدوم صفة مستوطنة في عهد ترجان، وتدل الآثار الموجود على تطور مزدهر لها في تلك الفترة، كالمعبد وبقيا لجسر روماني وخزانات لقنوات كانت

كاستليوم تانجتانيوم (Castellum-Tingitanum) (الشلف)، ويصل إلى حدود نهر ملوشا فيشقه في الشمال عند المصب، ومنها يبدأ خط أخر من تينجيس (Tingis) (طنجة)، وصولا إلى سلا، أي أن مناطق كثيرة كانت بعيدة عن قبضة روما، منها جل البلاد الليبية، وقسم من التل الجزائري، وجزء من المغرب الأقصى كالريف مثلا[225]، (انظر الخريطة رقم:2، ص.83)

ولم يعد هذا الخط الدفاعي الذي عولت عليه كثيرا السلطة الرومانية في الحفاظ على مكتسباتها الاقتصادية والثقافية بالمنطقة، فقد تسللت قبائل محلية إلى ما بعد الليمس وساهمت في تراجع وتدهور مشروع الرومنة شيئا فشيئا بشكل أو بأخر مثلما حدث أثناء ثورة القائد الموري فيرموس (Firmus)، مما أبان عن ضعف مراكز الدفاع الروماني.[226]

تجلب الماء من جبل دوي، كما ظهر بها اثر المشرق بوجود قبور على شكل صناديق حجرية منقوشة. للاطلاع على الموضوع انظر: Moukraenta, K., 2016, « Al-Hadra l'antique Oppidum Novum », *Rewiew Ossour*, 30-31, Oran, pp.8-14.

[225] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.185.

[226] Kotula, T., 1976, « Les africains et la domination de Rome », trad. M. Michalak, *Dialogue d'histoire ancienne*, vol. 2, p.349.

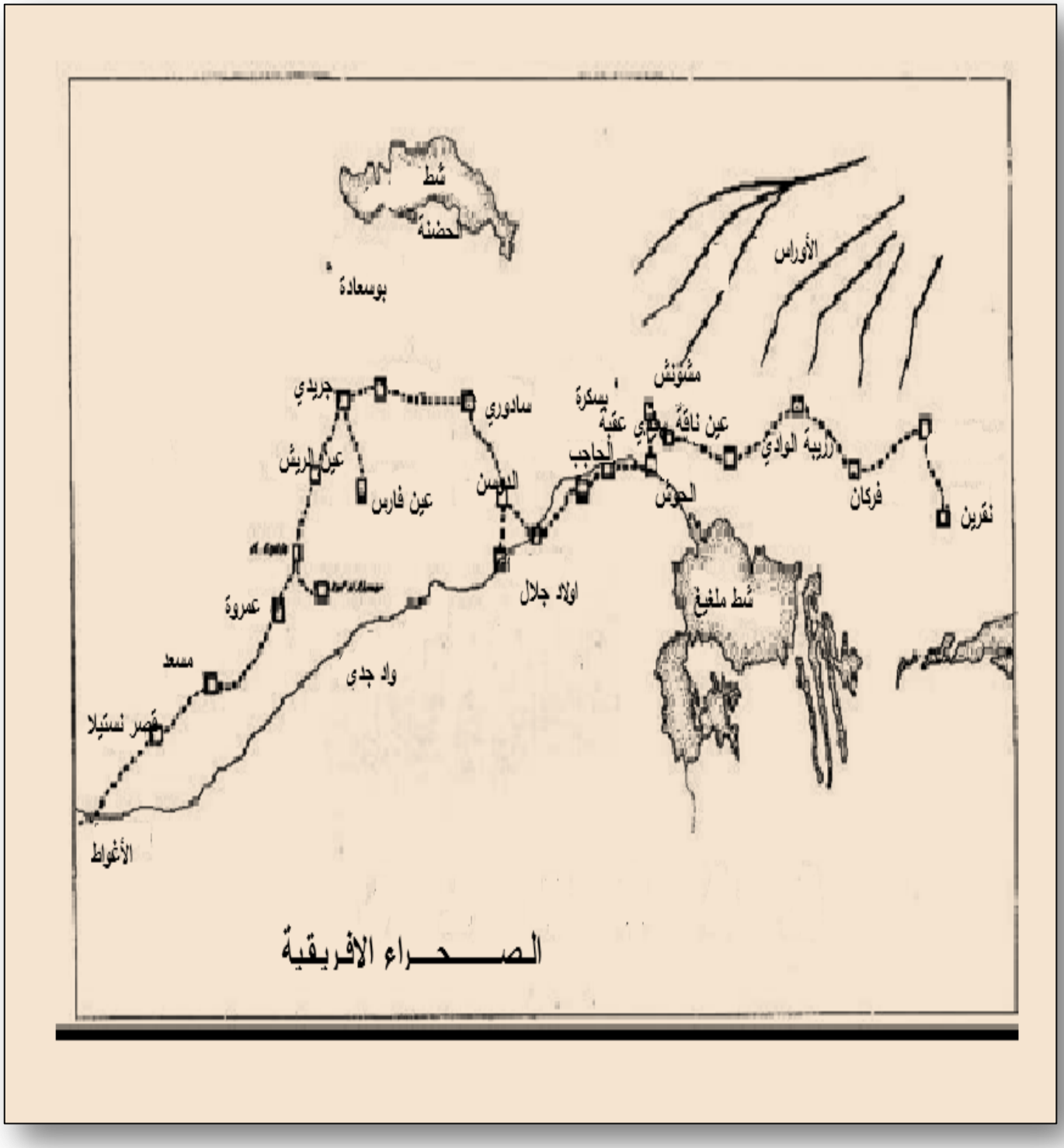

الخريطة رقم:2- **بعض من بقايا الليمس الروماني بإفريقيا الشمالية (ترجمة الطالب).**

Laporte, J-P., 2014, *Les confins méridionaux de l'Afrique romaine*, Limoges, p.527.

ومن المنطلق السابق يتبين لنا أن الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي قد تميز بالصراع غير المنتهي والمتواصل، بحيث لم تنعم المنطقة بالأمن والاستقرار طيلة أربعة قرون، بين السكان المحليين والوافدين من الأجانب والرومان، وذلك منذ سقوط قرطاجة عام 146 ق.م، فمثلا اندلعت في مستهل القرن الأول الميلادي ثورة الجيتول، فانتفاضة المزالمة (Musulames) مما تطلب إعادة رسم الحدود لأكثر من مرة وزيادة الاستحكامات لخط الليمس، إلا أن المقاومة لم يخبو فتيلها وبقيت مستعرة ضد التواجد الروماني إلى مجيء الوندال عام 429م عبر أعمدة هرقل.[227]

صفوة القول أن خط الليمس يتمدد ويتقلص على قدر قوة روما ونفوذها، فلقد بلغت حدود الامتداد الروماني بالعمق الإفريقي أقصى حد له في عهد السيفيريين، خاصة عند نهاية حكمهم عام 235 م، لكن ما يلاحظ أن الحركة التوسعية بالمناطق الجنوبية التي قام بها الأباطرة الانطونيون منذ أواخر القرن الثاني ميلادي، قد أدخلت على خط الليمس جملة من التغيرات[228]، وظهر خط الليمس في بدايته كحزام يلف الإمبراطورية للمراقبة العسكرية، تسهر على حمايته الفيالق الرومانية، وهو غير ثابت، ومنطقة وثوب للجيوش الرومانية للتوسع على حساب غيرها من الشعوب المجاورة بشبكة من الطرق، لكن حينما توقفت الحركة التوسعية لروما، تحول الليمس إلى خط دفاعي محصن.[229]

---

[227] العود، م.الص.، 2010، *التحولات الحضارية في شمال إفريقيا في الفترة الوندالية 429-534 م.*، قسنطينة، ص ص.37-46.

[228] حارش، م. ه.، 1992، ص ص.186-187.

[229] Deproost, P. A., 2004, p.31.

الفصل الثالث

انحلال السلطة السياسية والإدارية وفشل الإصلاحات

1-الأنظمة السياسية المتداولة على حكم روما: بوادر الضعف والانحلال.

أ-روما تحت حكم الملوك.

ب-استقرار النظام الجمهوري بروما.

ج-النظام الإمبراطوري.

2-انحلال السلطة السياسية والإدارية.

3-الإصلاحات وفشلها.

لا يصح لنا أن نتصور تدهور الآلة العسكرية الرومانية دون ربطها بتراجع وانحلال السلطة السياسية والإدارية، وبدت سمات هذا الانحلال منذ أن تولى حكام رومان السلطة بشراء ذمم جنود الدولة، والحفاظ على هذا الوجود بنفس الطريقة، وهذا ما أتى ذكره بشيء من التفصيل في الفصل الثاني، فتراجعت سلطة الحاكم، وانبثقت اثر ذلك سلطات محلية تدير الولايات بعيدة عن رقابة السلطة المركزية بروما[230]، فانتشرت الفوضى في أرجاء الإمبراطورية، وأصابها الوهن، وبات سقوطها أمرا لا مفر منه، فسارع بعض حكامها إلى استدراك الموقف، بجملة من الإصلاحات، وهذا ما يدفعنا لمعالجة الموضوع من الزاوية سالفة الذكر، كما يجدر بنا، ونحن نستعرض لهذا كله، أن نعمد إلى سرد أشكال النظم السياسية التي مرت على الدولة الرومانية، ثم نبين مظاهر التفسخ الحاصل في أعضاء كيان الدولة، ليأتي في آخر المطاف جملة محاولات الإصلاح التي اعتمدها ملوك وحكام الرومان، وقد أصاب الإمبراطورية "يد التبديل" في القرن الثالث، بالانتقال من مظاهر القوة إلى سمات التدهور والضعف، مما انعكس سلبا على جميع أطوارها[231]، كما لا يفوتنا أن نبين اثر هذا الضعف على باقي المستعمرات التابعة لها بما فيها مستعمرة شمال إفريقيا.

1-الأنظمة السياسية المتداولة على حكم روما: بوادر الضعف والانحلال.

لم يعرف اللاتين نظاما مركزيا يجمعهم تحت راية دولة موحدة، بل تشير الأدلة على أنهم انقسموا إلى وحدات مستقلة، وأطلق على كل منها شعبا يتموقع في رقعة جغرافية محددة تتوسطه مدينة محصنة (Oppidum)، وقد كان عددها خمس وستون وحدة، لكن سرعان ما اندمجت في الوحدات الأقوى منها وهذا قبل القرن السادس قبل الميلاد، كما توحدت في رابطات دينية سرعان ما تحولت إلى عصبة سياسية[232]، وبظهور روما* ودورها بالمنطقة

---

[230] الحويري، م. م.، 1995، ص.6.
[231] الحويري، م. م.، 1995، ص. 14.
[232] نصحي، إ.، 1978، ص.56.

* ظهرت روما بحسب اغلب الباحثين عام 754 ق.م، ويرتبط ظهورها بأسطورة التوأمين روميلوس وروموس (Remus)، فبعد خلاصهما من حتمية الموت قررا إنشاء مدينة، وأدى اختلافهما حول من له أحقية تسميتها بتحكيم الآلهة التي منحت لروميلوس هذا الامتياز فكان من سمها بروما وبني جدرانها، وقضى على غريمه روموس، فكان أول ملوكها،

تشكلت وحدة سياسية بدأت تتسع على حساب جيرانها، كما برزت إلى الوجود أنظمة سياسية تعبر عن تطلعات شعوب المنطقة وتتوافق مع الزمن والمتطلبات، بيد أن المتتبع لتاريخ الرومان يجد نفسه أمام حقائق مذهلة، كالصراعات على السلطة، واستعمال حكامها لشتى الوسائل من اجل الحفاظ على مكاسبهم ولو كان ذلك بقتل اقرب الناس كالأخ مثلا[233] أو الأب كمقتل يوليوس قيصر على يد ابنه بروتوس (Marcus Junius Brutus)[234]، أو خدم الحاشية كخنق نارسيس (Narcisse) العبد للإمبراطور كومودوس (Caesar Marcus Aurelius Commodus Antoninus Augustus) داخل حمامه[235]، وأصبح الشك هو المؤشر الحقيقي لإعمال الموت في الأشخاص، وليس ببعيد ما حصل للخطيب الروماني شيشرون* (Cicéron) مع ماركوس انطونيوس الذي طلب من عدوه المستقبلي أغسطس أن يسلمه إياه للانتقام منه.[236]

والحقيقة تقال أن الإمبراطورية الرومانية نشأت على أنقاض عدة شعوب منها الاتروسك (Etrusque) من جهة، ثم القرطاجيين والغاليين من ناحية أخرى، والتي غُلبت على أمرها وسحقت أمام الآلة العسكرية الرومانية[237]، وتبعتها أقوام وأمم أخرى كالمطلة على حوض

وقد حدد بحسب عادة الاتروسكية إطارها الجغرافي حول هضبة البلاتين (La colline du Palatin) وهي أول التلال السبعة التي عرفت الاستيطان آنذاك، بخندق تلطخ بدم أخيه التوأم، والتلال السبعة هي (Aventinus, Palatinus, Capitolinus, Quirinalis, Viminalis, Esquilinus). للمزيد من الاطلاع انظر: تيتوس ليفيوس، *تاريخ روما العتيقة*، I. 6، ترجمة: المصطفى حميمو، الرباط.

Duruy, V., 1890, *Histoire romaine*, Paris, p.19- 20.

[233] طراد، ن. إ.، 2008، ص.5.

[234] سنيوبوس، ش.، ص.172.

ماسون، إ.، *الإمبراطور الرهيب تيبيريوس*، تعريب. جمال السيد، 1985،مصر، ص.13.

[235] Jérôme, F., 2013, *Le haut-empire romain 44 a.C.-235 p.C.*, Paris, p.88.

* شيشرون أعظم خطباء روما على الإطلاق، ولد بمدينة اربينوم (Arpinum) جنوب شرقي روما، تلقي أفضل تعليم، وأتقن اللغة الإغريقية، كما كان شغوفا بالعلم فلم تفته دروس الإغريق الزائرين لروما، واستمع لأشهر خطبائها أمثال ماركوس انطونيوس أو كراسوس، والتحق بعد ذلك بأثينا لمواصلة الدراسة، وزاول المحماة منذ 81 ق.م وبرع فيها، انتخب قنصلا عام 63 ق.م، وكشف عن مؤامرة كاتيلينا (Catilina) عام 60 ق.م، لاقى أتعابا من مناوئه، وكان شيشرون مرآة عصره، ومؤلفاته حافلة بالأحداث، لا غنى لأي مؤرخ عنها، ويمكن تصنيفها في خمس مجموعات : الخطب، كتابته في البلاغة، الرسائل، كتاباته في السياسة والفكر السياسي، مؤلفاته في الفلسفة والأخلاق، وبذلك حاز على رتبة أغزر الكتاب إنتاجا في العصور القديمة. للمزيد من المعلومات انظر: الزين، م.،1981، *شيشرون*، الموسوعة العربية، المجلد الحادي عشر، دمشق، ص. 875.

[236] سفينسيسكايا، إ. س.، 2010، ص.10.

[237] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص ص.17-97.

المتوسط أو غيره، وانصهرت في بوتقة واحدة وتحت مضلة واحدة هي روما، وكلهم أسهموا بشكل أو بآخر في تكوين الحضارة الرومانية، وإزاء هذا التفوق يشهد تيتوس ليفيوس (Tite-live) بقوله:"لكن الصدف اقتضت على العالم نشأت مدينة روما التي كانت أعظم مدينة، وإرساء قواعد إمبراطورية، تمثل اقوي إمبراطورية بعد قوة الآلهة مباشرة."[238] ، فكانت الإمبراطورية التي استطاعت أن تمد نفوذها على مساحة واسعة من المعمورة، ما بين الدانوب (Danube) شمالا إلى صحراء النوبة جنوبا، ومن الفرات شرقا إلى الجزر البريطانية غربا، فجمعت بين ثناياها أمم ذات حضارة وأخرى ضاربة في التخلف[239]، وهذا المنحى يؤكده الباحث أحمد الناصري قوله :

> *وجدير بالذكر أيضا أن تراث الإمبراطورية الرومانية لم يكن من خلق الشعب الروماني وحده ولا من خلق الفكر والتراث الهللينستي فحسب، بل هو مساهمة بين التراث الإغريقي الروماني وتراث الشرق الأوسط القديم، (...)، وخلاصة القول استطاعت روما في عصر الإمبراطورية أن تستوعب كل تجارب شعوب الشرق الأوسط السياسية والحضارية ثم مزجها بتراثها الإغريقي الروماني.*[240]

أ-روما تحت حكم الملوك.

يورد نصحي إبراهيم دليل وجود العهد الملكي بروما، وهو العثور على النقش الوحيد مسجل على عمود من حجر اسود يعود للقرن السادس قبل الميلاد، مكتوب عليه كلمة ملك (Rex)، مما يبين أن هذا النظام قد ساد مدينة روما منذ نشأتها[241]، فمن الواضح حسب الأساطير الرومانية أن روميلوس (Romulus) هو أول ملوكها، والذي دامت مدة حكمه سبع وثلاثون سنة بعد مفارقته الحياة عن عمر ناهز 55 ربيعا[242]، وينحدر هذا

---

238 Tite-Live, *Histoire romaine*, I, 4,1, trad. M. Nisard, 1864.

239 أشرف، ص. م.، 2008، *تيبريوس ثاني الأباطرة الرومان (42 ق.م-37م)*، بيروت، ص.10.

240 الناصري، أ. ع.، 1991، ص ص. 5-6.

241 نصحي، إ.، 1978، ص.66.

242 Royou, J. C., 1824, tome. I, Paris, p.p.17-46.

الأخير من سلالة الآلهة وبالذات الإله مارس (Mars)، وبالتالي يعتقد الرومان أنهم من تلك الآلهة، فكانت تصرفاتهم تصب في ترسيخ هذا الاعتقاد، فظهر ملكهم الثاني نوما (Numa Pompilius) على نفس شاكلة العظماء وأنصاف الآلهة فحفظت ذكراه الأساطير الرومانية[243]، ويمتد النظام الملكي على الفترة من عام 753 إلى غاية عام 509 ق.م، أي ما يقارب القرنين ونصف القرن، ومن سمات هاته المرحلة من التاريخ الروماني، أن روما بقيت خاضعة لنظام قبلي بسيط[244]، ولا يشبه النظام الملكي بروما على الإطلاق النظم الملكية القائمة على مبدأ التوريث للعرش، بل على تصويت من شيوخ القبائل والشعب الروماني وهو بذلك أقرب لشيخ قبيلة أكثر منه لملك، ولما كانت الغلبة في أول الأمر لشعب الأتروسك* حكم منهم روما ثلاث ملوك لوكيوس تاركينوس (Lucius turquinius)، وتاركينيوس برسكس (turquinius Priscus)، مطلق السلطان المدعو تركين أو لوكومون (Lucume) مثل ما جاء في الأساطير الرومانية، وأخيرا لوسيوس تاركينيوس سوبربيس** (T.Lucius turquinius superbus) أي الفخور وهو أخر ملوك روما و كان حاكما متسلطا[245]، وبالرغم من الإغفال الذي مس هذه الفترة من التاريخ الروماني رغم طول مدة حكم الملوك الاتروريين التي تجاوزت أكثر من مائة عام، إلا أن الشواهد المادية لتاريخ لتلك الفترة يبرز أكثر من ثمانية

---

243 تشارلز ورث، أ. ب.، 1950، ص.9.

244 مصطفى، ع.، 1999، ص.ص.33،11.

***** أُختلف في أصل شعب الأتروسك فهيرودوت يرى أنهم من آسيا الصغرى وهو رأي الكثير من الباحثين الحاليين، واخرون يرون على أنهم من طروادة أتوا إلى شبه جزيرة الابينس (Apennins) وهذا ما تثبته العناصر الموجودة داخل تركيبة حضارتهم من الإجيين وكريتو-ميسيين، وحتى اسمهم تضاربت فيه الأقوال منهم من يسميهم كاليونانين "تيرين"، أما المصريون يسمونهم "تورش"، والرومان فـ"توسي"، لكن الأتروسك أو التسكان يسمون أنفسهم بـ"رازيني"، كما أن لغتهم تبقى مجهولة بالرغم من وجود عشرة ألاف نقش، ومن مدنهم التي عرفت ازدهارا منذ القرنين السابع والسادس هي كل من تاركيني، فييس، كار، فتولوني وغيرها، ولقد استطاع الاتروريين أن يبسطوا نفوذهم على كامل اللاتيوم (Latium) بما فيه مدينة روما وحوض البو الأوسط، ودانوا لثلاث آلهة هي جوبيتر ومينرف وجونون. للمزيد من الإطلاع عد إلى: دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، *الحضارات القديمة*، الجزء الثاني، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، 2000، دمشق، ص.464-468.

****** لوسيوس تاركينيوس سوبربيس هو أخر ملوك روما، كان مستبدا ومتجبرا لحد انه لقب بالمتكبر أو المتعالي (Superbus)، وهو من أصول اتروسكية، طرد احد الحكام والده دمراتس (Demaratus) من بلدته كورنث فلجأ إلى إقليم اتروريا (Etruria) بمدينة تاركويني (Tarquinii) المعروفة حاليا بكرنيتو (Corento)، ثم هاجر ابنه لوسيوس إلى روما، ولهذا السبب بالإضافة إلى تسلطه وطغيانه نبذه الشعب الروماني باعتباره غير لاتيني ولا يستحق حكمهم، ومن أعماله التي اتصفت بالوحشية صلبه المواطنين في الساحات العامة، والحاقه العار بطبقة الأحرار حيث فرض عليهم أعمال السخرة وقلل من شأنهم، فلما سمحت الفرصة وتقوى الشعب أطاحوا به مع النظام الملكي عام 509 ق.م. للاطلاع على الموضوع عد إلى: إبراهيم، ر. أ.، 1996، *التاريخ الروماني*، لبنان، ص ص.25-26.

245 دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، الجزء الثاني، ص ص.461-466.

ألاف نقش ناهيك عن أعمال فنية وأدبية من مسرحيات وشعر[246]، كما أمد هؤلاء الملوك الأتروريين لروما كيفيات تنظيم الجيوش وتكوينها لأنهم شعوب محاربة خبروا هذا الميدان واحترفوه[247]، وهذا ما يفسر التفوق العسكري للإمبراطورية الرومانية، كما يجمع الملك كل من السلطة السياسية والعسكرية والقضائية، وهي سلطة مطلقة (Imperium)، ومنها إعطاء الحق في تسليط عقوبة الموت على المواطنين، ولعل هذا الاستبداد كان وراء سقوط النظام الملكي، إلا أن الغالب على الملك هو الصفة الدينية فهو يتولى تقديم القرابين للآلهة، ويضع التقويم السنوي بما فيها الأعياد بمعية كبار رجال الدين (Pomtifes)، ويتخذ بيتا (L'exregia) قريبا من المعبد (Vesta).[248]

وكما ذكر سالفا أن النظام الذي ساد روما قبل النظام الملكي هو النظام القبلي، وهذا حوالي مائة عام قبل ميلاد روما، على شكل وحدات قروية وتدعى (Pagus)، وتتجمع عند الحاجة كالحروب أو أيام الأعياد في اتحادات اكبر مثل تلك الموجودة عند اللوكانبيين أو السامنيين أو الاومبريين، وتنتظم هذه التجمعات في شكل دستور غير مكتوب قائم على العرف يعرف بـ(Luspetiale)[249]، وترامت هذه التشكيلات السياسية الأولية بين نهر التيبر (Tibre) وخليج نابلي (Naples) على شكل دويلات مدن متحاسدة فيما بينها، وكان أكبرها ألبا لنجا (Alba Longa) المتواجدة عند حافة جبل ألبان (Mont Alban)[250]، وكان هذا النظام القائم على الاصطفاف في شكل قبائل (Tribus)، كما كان سكان روما يتوزعون على ثلاث قبائل هي لوقرس (Luceres) من الاتروسك، رمنس (Ramnes) وهم اللاتين وتيتيس (Tities) من السبيني، وهذه القبائل بدورها تنقسم إلى وحدات (Curiae)، ومن هذا النسق تختار روما ما تحتاجه من مال ورجال تحت إشراف الملك وتأطير من نقيب القبيلة

[246] ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.7.
[247] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، ص.38.
[248] إبراهيم، ر. أ.، 1996، ص.25.
[249] إبراهيم، ر. أ.، 1996،ص.24.
[250] ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.15.

(Tribunus)[251]، فنجد ثلاث ملوك من السابينين وثلاث اتروسك بالإضافة لروميلوس كأول ملك، أي في المجموع سبع ملوك حكموا روما.[252]

مثلما وجدت وحدات تمثل القبائل المنضوية تحت راية روما وضمن سلطتها بفضل قوة عسكرية ضاربة تكسب معاركها مهما كانت العقبات والظروف[253]، هو مجلس قادة القوم وهي بمثابة مجلس كبار القبائل الرومانية، حيث أقدم تليوس هوستيليوس (Tullus Hostilius) ببناء مكان للاجتماع بمحاذاة الكابتول (Curia hostilia)[254]، والذي عرف فيما بعد بمجلس الشيوخ، وكانوا في البدء مائة ثم ازداد إلى ثلاثمائة وبالتالي فقد وجدت ثلاث أركان للسلطة وهي: الملك، مجلس الشيوخ ومجلس الشعب.[255]

وعلى كل حال فلقد كانت نهاية النظام الملكي بسبب تسلط ملوك تلك الفترة خاصة من كانوا قد امسكوا زمام الأمور في آخر عهده مثل تاركوينيوس برسكس الذي قُتل بعد ما ضاق بيه الرومان ذرعا، لكن من خلفه كان أسوء منه وهو ابنه تاركينيوس سوبربيس، قتل الأشراف في الساحات العمومية، وعامل الرعية بوحشية وفظاظة، فأراد أن يكسب ود الشعب وتغطية أعماله الفاسدة بتحقيق انتصارات حربية فوجه حملة على الفلشيين (Volscians) والوتليين (Rutili)، فما كان على مجلس الشيوخ إلا أن اغتنم فرصة انشغاله في الميدان وأعلن نزعه عن العرش، فصار هذا بحسب تعبير ديورنت :"كان ذلك انقلابا خطيرا في تاريخ روما." عام 508 ق.م[256]، فبات لزاما على الرومان احد الوجهين إما الإبقاء على نمط

[251] نصحي، إ.، 1978، الجزء الأول، ص.74.
[252] عكاشة، ع.، الناطور، ش.، بيضون، ج.، 1991، *اليونان والرومان*، الأردن، ص.155.
[253] بوساحة، الط.، 2021، ص. 895.
[254] Bertrand, L., 1995, *L'état romain,* Paris, p.16.
[255] دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، الجزء الثاني، ص ص.461-462.
[256] ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.19.

الحكم السابق بكل مساوئه أو تغيير نظام الحكم[257]، فكان هذا آخر عهد روما بسيطرة الأتروريين.[258]

ب-استقرار النظام الجمهوري بروما.

توطن النظام الجمهوري بروما منذ عام 509 ق.م، وهي لا تزال مدينة بحدودها الضيقة التي لا يزيد عدد قاطنيها عن بضع ألاف في سهل اللاتيوم، خلاله تطور النظام القبلي وعرف باسم "الجمعية القبلية" (Comitia Tributa)[259]، وما إن خلع تاركينيوس عن الحكم حتى أسرع من كانوا ضمن الجمعية إلى اختيار بدل الملوك مدى الحياة قنصلين لمدة عام واحد فقط، متساوين في السلطة، ويراقب الواحد الأخر، وأول القنصلين هما بروتس (Lucius Junius Brutus)، وكلاتنس (Lucius Tarquinius Collatinus)، وبعد استقالة هذا الأخير استبدل ببلوس فالريوس (Valirius Publius) الذي لقب فيما بعد بصديق الشعب ببليكولا (Publicola)، لما قدمه من قوانين كانت القواعد الأساسية لدستور روما وتصب لصالح الشعب ومنها: أن من يأخذ منصبا دون رضاء الشعب يفصل رأسه عن جسده والمصير نفسه لكل من يعلن نفسه ملكا[260]، والحكم الفعلي كان لمجلس الشيوخ لا القناصل[261]، وأمام غياب سلطة الملك بات ضروريا تعويضها بمؤسسات تكفل بسد تلك الثغرة وتتمثل في:

1-خلق منصب الكاهن الأكبر لتولي مهام السلطة الدينية للملك (Rex sacrum).

2-إسناد إدارة شؤون الحكم لقنصلين متساوين في الدرجة، وعدم تجاوز مدة حكمهما بسنة واحدة غير قابلة للتجديد.

---

[257] مونتسكيو، 1748، ص.24.
[258] السعدني، م. إ.، 1997، *معالم تاريخ روما القديم منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي*، القاهرة، ص.119.
[259] مصطفى، ع.، 1999، ص.33.
[260] ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.20.
[261] ماسون، إ.، ص.39.

3-إنشاء منصب ديكتاتور، وهي وظيفة مؤقتة محدودة المدة لا تزيد عن ستة أشهر لحالات خاصة وحرجة قد تمر بها الدولة تخول له سلطات واسعة، ويسانده في ذلك قائد الفرسان (magister equitum)، ويعتبر تيتوس لاركيوس (Titus Larcius) أول من تولى مثل هذا المنصب في حوالي عام 500 ق.م.[262]

ويجب أن يلاحظ أن النظام الجمهوري لم تتضح معالمه ويستقر نهائيا بروما مباشرة بعد سقوط الملكية فيها، بل سيأخذ وقتا كافيا لإرساء قواعده، على أن هذا الانتقال الذي شهدته المنطقة من تغيير نظام حكمها، لم يكن كافيا لان النظام السابق كان مستمرا كنظام مغلق يتحكم فيه مجموعة من القادة من الأسر الارستقراطية، والذي تغير هو ذهاب الملك فقط، لتشهد الفترة الممتدة من 509 إلى غاية عام 449 ق.م ميلاد جمهورية ثانية [263]، كما يرى آخرون أن هذا الوقت كان أطول بكثير بحيث استغرق قرابة القرنين من الزمن، تخللها أزمات حادة في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد منها الاصطدام بين طبقة النبلاء (Patricii) والعامة (Plebs) أي منذ حوالي عام 494 ق.م وانتهى في عام 287 ق.م[264]، وتكلل هذا النضال إلى الاعتراف بحقوق الشعب منها:

1-تأسيس جمعية القبائل ومجلس العامة(Concilium plebis) وخلق مناصب كنقباء العامة (Tribuni plebis).

2-أصبح لهم تمثيل عام 300 ق.م نصف أعداد الجماعات الدينية ككبار الكهنة والعرافين (Augures).

3-عام 276 ق.م تولى منهم العشرات منصب قنصل، ووصلوا إلى عضوية مجلس الشيوخ في المدة ما بين366 حتى 265 ق.م.

[262] Clavé, Y., 2017, pp.43-44.
[263] Clavé, Y., 2017, p.40.
[264] Bertrand, L., 1995, p.21.

4-شاركوا في سن القوانين والتي كانت من اختصاص الأشراف دون غيرهم مثل قوانين سولون (Solon)، وسميت اللجنة المشرفة على ذلك بلجنة العشرة (Décemvir).[265]

ومن أسباب انهيار النظام الجمهوري في روما هو الانقسام الطبقي الحاصل في المجتمع والحياة السياسية، وهو ما كان متزامنا مع ظهور الجمهورية، وكما بدأ هذا النظام بثورة وطنية انتهى بمجموعة من الحروب الأهلية والنزاعات الحزبية، والذي دام قرابة خمس قرون[266]، وكان مقتل يوليوس قيصر هو المؤجج الحقيقي لنار الفتنة بين المدافعين على النظام الجمهوري ومنهم بيروتوس وكاسيوس، وفي الشق الأخر أنصار قيصر مثل ماركوس انطونيوس وليبيدوس واوكتافيوس المعرفون باسم "المنتصرين"، ولقد دامت هذه الحرب المستعرة ثلاثة عشرة سنة، وكانت الضربة القاضية لأنصار النظام الجمهوري في معركة فيليبي عام 42 ق.م، حيث لقي كل من بيروتوس وكاسيوس مصرعهما، فكان النصر حليف المنتصرين وبذلك فقد الجمهوريون أي أمل في استعادة نظامهم.[267]

تحققت خلال العهد الجمهوري أهم الفتوحات العسكرية نتيجة سياسية مجلس الشيوخ، حماس الجيش، وتسابق القناصل على تحقيق انتصارات عسكرية، ولذا نعت المؤرخون القرون السبع الأولى بقرون تتابع الانتصارات السريعة[268]، ولم يبقى للأباطرة سوى الحفاظ على هذه المكاسب الترابية المحققة كثمرة من ثمار مجلس الشيوخ.[269]

[265] السعدني، م. إ.، 1997، ص ص.71-74.
[266] مصطفى، ع.، 1999، ص ص.11-34.
[267] ماسون، إ.، 1985 ، ص.14-16.
[268] جيبون، إ.، 1828، ص.47.
[269] Gibbon, E., 1828, p.25.

ج-النظام الإمبراطوري.

يعتبر انتصار اوكتافيوس في معركة أكتيوم* (Actium) عام 31 ق.م مؤشرا على وقوع تغير قريب في وضع روما، وهذا ما كان فعلا بالانتقال من عصر الجمهورية إلى عصر الإمبراطورية عام 27 ق.م، كما كانت معظم الظروف تصب لصالح الحاكم الجديد، ومنها تمتعه بلقب قيصر عن طريق التبني، ثم قرانه بليفيا** (Drusilla Livia) فأصبح يجمع بين أسرتين عريقتين هما آل ليفيوس (Livii)، وأسرة آل كلاوديوس (Claudii)[270]، فكان لقب قيصر امتيازا نابع من الأسرة أما لقب أغسطس فهو امتياز شخصي منحه إياه مجلس الشيوخ ونابع من الطبيعة التي اصطنعها اوكتافيوس لنفسه والشاملة للطهر والسلم[271]، كما أن الحروب الأهلية ومنها ثلاث خلال الفترة الممتدة من 90 إلى 30 ق.م قد دفعت إلى تبني نظام قوى والتخلي عن النظام السابق، فكان حكم أغسطس من 31 ق.م إلى 14م أي ما يقارب الخمسون سنة من الأمن والاستقرار.[272]

وعليه يمكننا القول أن الإمبراطورية قد أطلت على العالم الروماني كما جرى بقلم كل من أندري إيمار وجانين أوبوايه "نتيجة الاختبار والتجربة وليس نتيجة التجريد ونظر

---

* توصف معركة أكتيوم أنها اكبر واهم معارك تلك الفترة، كما إنها تضاف إلى المعارك الفاصلة في عالم ذلك الزمان، وقد كانت رحى المعركة تدور بين سفن انطونيوس مدعومة من كليوباترا من جهة ومن جهة ثانية سفن اوكتافيوس بالقرب من سواحل اليونان على حواف الشاطئ الغربي، ويكمن تلخيص عوامل الانهزام أنطونيوس إلى جملة من الأسباب وهي: -ترك كليوباترا تأخذ بزمام أمور المعركة فاستغل الوضع اوكتافيوس ليحرك في الجنود نخوة الوطنية، -انسحاب كليوباترا من المعكرة فتبعها انطونيوس تركا الجند دون قيادة، فلهذا وذاك كانت المعركة قصيرة ومفصلية، وبحلول سنة 30 ق.م دخل اوكتافيوس الإسكندرية منهيا حكم البطالمة الذي دام ثلاث قرون. للمزيد من المعلومات عد إلى: الناصري، أ. ع.، 1991، ص.18-20.

** دروسيلا ليفيا (85 ق.م-29م)، ينتهي نسبها إلى اعرق عائلات روما الكلوديان (Claudian)، اتصفت بالجمال ورقة المشاعر كما تصفها المصادر التاريخية، كما اتصفت بالتواضع والبعد عن ما يريبها وينقص من قدرها أمام الناس، اقترنت بتبيريوس كلوديوس نيرو الأكبر، وهو من المقربين من يوليوس قيصر، تقلد عدة مناصب ومنها قائد أسطوله البحري، أنجبت ثاني أباطرة روما تبيرويس وعمرها ثلاثة عشر سنة، وبعد مقتل يوليوس عام 44 ق.م، هاجرت بتبيريوس مع زوجها إلى مدينة بيروجيا، وفي عام 38 ق.م طلبت ليفيا من زوجها الطلاق حتى تتمكن من الزواج باوكتافيوس، للمزيد من المعلومات انظر: أشرف، م. ص.، 2008، ص.12-14.

[270] الناصري، أ. ع.، 1991، ص ص.18-21.

[271] جيبون، إ.، 1828، ص.92.

[272] تشارلز ورث، أ. ب.، 1950، ص.12.
رمضاني، أ.ه.، 2018، "روما وسياسات الإصلاح: يوليوس-قيصر أغسطس-ديوقليسيانوس أنموذجا"، *أفكار وآفاق*، جامعة الجزائر 2، المجلد 6، العدد 1، ص.57.

الفلاسفيين، استدعى وجودها وطلوعها، الرغبة الصادقة في قطع الطرق على الحروب الأهلية، وما تجره في ثناياها ومطاويها: من شرور وويلات وأهوال، والرغبة، من جهة أخرى، في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج."[273]

في العهد الأغسطي، اتخذ أغسطس من الشعراء ومن ضمنهم الشاعر فيرجيليوس* (Vergilius) مطية للترويج لنظام حكمه، وظهر مصطلح الأغسطسية (Augustanism) للدلالة على فلسفة الحكم الجديد[274]، لذلك نجده اشد حرصا لكسب ود الشعب الروماني وتأييده له بعكس يوليوس قيصر الذي تجاهل ذلك واعتمد بشكل كلي على الجيش[275]، والجدير بالذكر أن أغسطس لم يلغ النظام السابق بحذافيره بل أبقى على هياكل النظام الجمهوري كما هي، إنما استحدث منصب المواطن الأول واتخذه لنفسه (Princeps civitatis)، فكانت جميع السلطات بيده وبذلك أصبح الرجل الأول والمتصرف في شؤون الدولة[276]، وهكذا تمتع أغسطس بسلطة أعلى ممن سواه (Maius imperium) فلا ينازعه فيها أيا كان.[277]

كما أمتدح الكثير من المؤرخين القدامى والمحدثين على هذه الفترة باعتبارها أفضل فترة للإمبراطورية الرومانية، وتحدد بالحقبة الممتدة من 27 ق.م إلى 235م، لكن تعتبر الأكثر شحا في المصادر التي تناولتها[278]، ومن هؤلاء المؤرخين ادوارد جيبون الذي أثنى على النظام الإمبراطوري واصفا إياه بالنظام الذي يكرس مصلحة الشعب والحكام، مثلما يصفه على أنه :"ملكية مطلقة مستترة وراء إطارات جمهورية."، كما ابتعد جل الأباطرة عن

---

[273] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، المجلد الثاني، ص. 292.

* فيرجيليوس من أعظم شعراء العهد الروماني، اشتهر بملحمته الاينيادة (Eneide) والتي كتبها بأمر من أغسطس، وتتمحور مواضيعها حول قصة تأسيس روما القائمة على أسطورة قديمة، إلا أن الهدف من ذلك إظهار فضل أغسطس في إعادة الحياة لروما بعدما كادت الحروب الأهلية أن تعصف بها، وبالتالي فقد مثلت الاينيادة الالتزام السياسي آنذاك. لاطلاع على الموضوع عد إلى: مصطفى، ع.، 1999، ص.19.

[274] مصطفى، ع.، 1999، ص ص.18-19.

[275] السعدني، م. إ.، 1997، ص.144.

[276] العبادي، م.، 1999، ص.11.

[277] عفاف، س. ص.، 1982، *الإمبراطورية البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان*، القاهرة، ص.6.

[278] الناصري، أ. ع.، 1991، ص.13.

مظاهر الأبهة والتفاخر، وأنهم منفذون لأوامر مجلس الشيوخ ومقاسمين لهموم وانشغالات رعياهم، لكنهم مثل ما يذكر جيبون خرجوا عن ما هو معروف عنهم من تواضع وهو تقديس الرعية لهم لدرجة العبودية ووصفهم أنهم آلهة رومانية[279]، ومع ذلك إيانا والمغالاة، فالعُجب وحب التسلط كامن في نفوس البشر، وهذه المثالية التي يرسمها بعض من المؤرخين عن الأباطرة الرومان ما هي إلا تجاوز للحقائق، ومن هذا نذكر ثاني أباطرة روما تيبريوس* (Tiberius) الذي كانت نزواته تفوق الواقع الذي رسمته أيدي المؤرخين، إذ بلغ الأمر أن أصبح تعذيب الغير من نزوات الإمبراطور(السادي)، كما عرف بكثرة المجون، ورسخت في ذهنه أفكار خاطئة مثل "ومن بعدي فلتأكل النيران الأرض."[280]

والحقيقة تقال أن القرون الأولى من عهد الإمبراطورية وخاصة القرنين الأول والثاني تميزا بالسلم والازدهار[281]، فنعمت الإمبراطورية بالأمن والاستقرار وتوقفت الحروب الأهلية وعرف هذا العهد بسلام أغسطس[282]، كما يجب أن ننوه إلى أن النظام الإمبراطوري الروماني لم يشبه على الإطلاق الأنظمة المشابهة له من حيث التوريث إذ لا تؤخذ بعين الاعتبار روابط الدم أو القرابة لإسناد الحكم، لكن عن طريق التعيين وتزكية الشعب، فالعوامل المذكورة سابقا كالقرابة تلعب دورا أساسيا للتأثير على المواطن الروماني والجيش لاختيار الإمبراطور، مثال ذلك ما حصل مع الفلافيين (Les Flaviens) والسيفريين (les Sévères)، بحيث أن عملية الاستخلاف تتهيأ داخل دائرة أسرة الإمبراطور قبل أن يفضى بها إلى العلن فيعلمها الخاص والعام، ويسعى الإمبراطور إلى فرض اختياره، ليزكى من

---

279 جيبون، إ.، 1828، ص.90.

* ولد تيبريوس في 16 نوفمبر من عام 42 ق.م، ينتمي عن طريق أبويه لأعرق الأسر الرومانية (Claudian)، انجبته أمه ليفيا وسنها لم يتجاوز ثلاثة عشر عاما، توفي والده وعمره تسع سنوات، ثم انتقل مع والدته لقصر أغسطس بحيث ارتبطت هذه الأخيرة بإمبراطور روما بعد طلاقها من ابن عمها، حيث سيتلقى كل فنون العلم والمعرفة ويظهر براعته فيها، كما اظهر تفوقه في أساليب الحرب والمصارعة، فكان أهلا للقيادة، وبعد زخم من الأحداث المتتالية على شخصيته، مات أغسطس 19 أوت 14م، وقرأت وصتيه التي تضمنت منح العرش لتبريوس وبذلك يكون ثاني أباطرة روما. للمزيد من المعلومات ارجع إلى: أشرف، ص. م.، 2008، ص.ص.12-31.

280 أشرف، ص. م.، 2008،ص ص.21-22.

281 الحويري، م. م.، 1995، ص.11.

282 تشارلز ورث، أ. ب.، 1950، ص.ص.36-37.

الشعب ومجلس الشيوخ والجيش، وكما اشرنا أن رابطة القرابة الدموية ليست جوهرية، بل التبني أصبح السمة البارزة، مثل تعيين تيبريوس من أغسطس[283]، كذلك في وقت متأخر تبنى ديوكليسيانوس للقائد ماكسميانوس (Marcus Aurelius Valerius Maximiamus) وحمله على تقاسم عرش روما مع متبناه في ما بين (286– 305م) [284]، ومن بين المحاسن التي أقدم عليها أغسطس تطهيره لمجلس الجيوش من العناصر التي دخلت إليه إثناء الحرب الأهلية، الأولى عام 28 ق.م بحذف مائتي عضو، ثم قائمة تطهيرية ثانية عام 18 ق.م، وثالثة عام 12 ق.م، وبهذا أمكنه السيطرة على السناتوس وضمان دخول عناصره المخلصة فيه.[285]

غير أن النظام الإمبراطوري كما رسمه أغسطس لم يبقى على حاله بل طرأت عليه تعديلات جوهرية في الدين والنظم، لذا يقسم المؤرخون هاته الفترة من تاريخ الرومان إلى مرحلتين متمايزين، المرحلة الأولى من 27 ق.م إلى 284م، والمرحلة الثانية ما بعد 284م وهو ما يتوافق مع بداية حكم ديوكليسيانوس (Dioclétien)، الذي يعتبر منشئ الفترة الثانية من عمر الإمبراطورية بما جاء به من إصلاحات، لكن مجموعة أخرى من الباحثين يفضلون الانطلاق من عام 324م لتحديد بداية الفترة الثانية لاعتبارات عقائدية بتبني الإمبراطورية للديانة المسيحية في عهد قسطنطينوس والتخلي عن الوثنية كدين رسمي للدولة.[286]

283 Jérôme, F., 2013, pp.17-18.
284 Clavé, Y., 2017, p.293.

285 رمضاني، ا. ه.، 2018، ص.61.
286 مصطفى، ع.، 1999، ص.12.

2-انحلال السلطة السياسية والإدارية.

بدأت سلطة روما تعرف تراجعا، نتيجة للنقص السياسي الذي كرسه عجز مجلس الشيوخ في إدارة دواليب الدولة بعدما ترامت أطرافها شرقا وغربا، اثر الفتوح الخارجية مما ساهم في الفساد الإداري من الحكام أنفسهم، إذ لم تبق روما مركزا العالم، بعد أن عصفت بها رياح الانحلال والتفسخ منذ القرن الثالث الميلادي، وخاصة إثر تأسيس قسطنطينوس عاصمته القسطنطينية في القرن الرابع للميلاد في الشرق.[287]

والجدير بالإشارة في هذا العنصر أن روما بدأت تظهر عليها بوادر الأزمة منذ عام 235م حتى مشارف عام 284م ما يتزامن وعهد ماكسيمينوس ثراكس (Caesar Gaius Iulius Maximenus Augustus)، أي ما يقارب الخمسون سنة من الفوضى والحروب الأهلية والتدهور والانهيار الاقتصادي، وهو ما صادف المرحلة الأخيرة للعهد الإمبراطوري الأعلى والتي ستبلغ أقصاها عام 260م لما وقع الإمبراطور فاليريانوس (Publius Licinius Valerianus) أسير لدى الساسانيين في معركة الرُها ومات هناك، مما يبين مدى العجز الذي بلغته روما، كما نشير إلى احد أهم مظاهر انعدام الاستقرار السياسي الذي سيصبح سمة واقع الحياة اليومية للشعب الروماني، أن تداول على الحكم في مدة لا تزيد عن خمسين عاما أربعون إمبراطورا[288]، إلا أن الحقيقة التاريخية تثبت أن جذور الأزمة بدأت قبل ذلك بكثير، حيث أن تبعات الاتساع السريع والمطرد لرقعة الجمهورية خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد قد خلف آثار كثيرة منها ازدياد الثروة وعدد أسرى الحروب والعبيد، كما نتج عن ذلك ظاهرة خطيرة على دوام وسيرورة الإمبراطورية، وهو ما عرف بالفساد المستشري في كيانات الدولة والاختلالات في إدارة حكم الولايات التابعة لها، مما يفسر توالي سلسلة من النكبات في القرن الأخير للجمهورية والفشل في مواجهة هذه

[287] الحويري، م. م.، 1995، ص.5.

[288] Clavé, Y., 2017, p.p.277- 278.

التحديات الجديدة[289]، وبما أن السلطة الفعلية كانت بيد مجلس الشيوخ فقد قوبل ذلك بتصدي كبير خاصة بعد ظهور تيبريوس جراكوس (Tiberius Sempronius Gracchus) ولم يتوقف هذا التحدي إلا بزوال النظام الجمهوري[290]، كما يجب الإشارة على أن الضعف بدا يلوح في الأفق مع تولي السيفريين للحكم بحلول عام 193م، لما فتح الإمبراطور سبتميوس سيفيروس الباب على مصراعيه للجنود بتولي مناصب حساسة، ما لبث أن اغرق روما بالعسكر ووضع ثقته فيهم بدلا من مجلس الشيوخ حيث أعدم 29 عضوا ونفى ما يقارب 34 آخر من روما، فاستغل الجند هذه الامتيازات ليثخنوا في فسادهم الذي اضر كثيرا بحياة الناس[291]، حتى وان كان هذا الأخير قد حقق توسعا لا مثيل له بنهاية ولايته عام 211م، فكانت حدود الإمبراطورية تترامى على كل من بريطانيا، الراين، الدانوب، بلاد الرافدين وسوريا، شمال إفريقيا، وكان توزيع الوحدات العسكرية حسب أهميتها الإستراتيجية فمثلا الراين وبريطانيا قد فقدتا أهميتهما منذ القرن الأول الميلادي، وأخذت بلاد الجرمان الأهمية القصوى بإلحاق ثمانية فيالق عسكرية، لينتقل مركز الرعاية والاهتمام الرومانيين بعد مرور أربع قرون إلى منطقة الدانوب والمشرق، لأن هذه المنطقة منذ القرن الثاني للميلاد كانت مركز تواجد الخصوم التقليديين للرومان.[292]

ومن بين المؤسسات التي طالتها يد التبديل في الإمبراطورية الرومانية على مستوى أعلى هرمه السياسي: هو مجلس الشيوخ، حتى وان كان قد لعب دورا استشاريا، إلا أنه في كثير من القضايا كان الفيصل خاصة في العهد الجمهوري، إذ كان صاحب القرار في الأمور الداخلية والخارجية على السواء، فكان يُختار من بين أعضائه القناصل ورجال الدولة الكبار كما حدث في عهد أغسطس بشراء ود المجلس بإبرام هذه الصفقة، والذي لم يعد يقوم بمهامه في التسيير، بعد أن آل شأن الولايات الرومانية إلى قادة الجيش، وخرج هذا

289 نصحي، إ.، 1978، الجزء الأول، ص. ص.297-298.
290 حافظ، أ. ع.، 2007، ص.26.
291 حسين، ش.، 2005، ص.148.
292 Jérôme, F., 2013, p.99.

المجلس عن ما أنيط به من مهام، فتم توظيفه في قضايا تخدم الحكام وتنشر بين الرعية الذعر والخوف، كتلك التي حصلت مع الإمبراطور تيبريوس الذي أصيب بوساوس اتجاه الكل وشك دائم، فَفُعل قانون الخيانة العظمى (Lex de Maiestate)، وانتشرت المحاكمات بشكل واسع ساهم مجلس الشيوخ فيها[293]، ولئن حافظت هذه المؤسسة على بريقها ووزنها السياسي لأنها بقيت تجمع بين جدرانها أهم الشخصيات الرومانية، غير أن دورها بقي صوريا ولم يعد بمقدورها الاعتراض على أي قرار يتخذه الإمبراطور[294]، مثلما عبر عنه برتراند (Bertrand) في قوله :"في العهد الإمبراطوري المتأخر، لم تعد الدولة تستلهم من إرادة مجلس الشيوخ والشعب الروماني، بل أصبح ذلك كله ذكرى يستأنس بها المواطنون لا أكثر." فحتى رمز هذه المؤسسة (S.C) قد اختفى من على وجه النقود الرومانية بداية الثلث الأخير من القرن الثلاث للميلاد[295]، والمتتبع لتاريخ هذه الهيئة يرى أنها تبدلت لأكثر من مرة، ففي العهد الجمهوري وبالذات عام 81 ق.م أقدم سولا (Sylla) بتغير في التركيبة العددية لمجلس الشيوخ فرفع عدده من ثلاثمائة إلى الضعف أي ستمائة بإلحاق مناصريه، وفي عام 49 ق.م قام قيصر برفع العدد إلى تسعمائة بعد مغادرة مناوئه من البومبيين، بإدراج نواب من المقطعات الأخرى من غير الايطاليين فحسب، مما أعطى للكثير من الرومان الإحساس بالامتعاض من ذلك، ويصل العدد إلى رقم خيالي خلال الحكم الثلاثي الثاني (Second Triumvirate) لكل من اوكتافيوس وماركوس انطونيوس وماركوس أميليوس لبيدوس* (Lepidus Aemilius Marcus)، بعد مقتل قيصر إلى ألف عضو عام 31 ق.م، مما سيدفع بأغسطس إلى إعادة النظر في أهم هيئة رومانية بعد مرور سنتين من توليه

---

293 السعدني، م. إ.، 1997، ص.179.

294 Jérôme, F., 2013, p.21.

295 Bertrand, L., 1995, p.73.

***** أشتهر ماركوس أميليوس لبيدوس كونه من أنصار قيصر، وعلى هذا الأساس كان من بين قادته العسكريين ما بين عام (47-45 ق.م)، وأصبح حاكما لاسبانيا منذ عام 48 ق.م تحت لقب براتور، ثم تقلد منصب قنصل عام 46 ق.م، وبعدها ضمه مجلس الشيوخ إلى الحكم الثلاثي الثاني عام 43 ق.م، إلى أن يستبعده أغسطس وتتوفاه المنية عام 13 ق.م، لاطلاع على المعلومة ارجع إلى: حجازي، ع. الع. ع. الف.، 2007، *روما وإفريقيا من نهاية الحرب البونية إلى عصر الإمبراطور أغسطس*، مصر، ص.121.

الحكم[296]، وهذا ما يظهر ما مدى هشاشة الإدارة الرومانية وخضوعها لمصالح وأهواء حكامها في تلك الفترة.

وكنتيجة للتصدع السياسي الذي أصاب الإمبراطورية بداية من القرن الثالث، فقد اندلع صراع مرير بين الأباطرة ومجلس الشيوخ حول مسألة القيادة، كما برز تهديد الجيش مثلما اشرنا في الفصل السابق، فأصبح هو المسيطر على مقاليد الحكم، وبات القادة هم من ينصبون الأباطرة ويعزلون غيرهم، مما زاد في إشعال نار الفتن والثورات التي هددت تماسك الإمبراطورية ووحدتها[297]، فمثلا بعد موت نيرون عام 68م تعاقب على كرسي العرش الروماني أربع أباطرة في مدة لا تزيد عن سنة واحدة نتيجة تدخل الجيش، عرفت بعام الأباطرة الأربع وهم غالبا (Servius Sulpicius Galba)، أوثو (Marcus Saluius Otho)، فيتليوس (Aulus Vitelius Germanicus) وفسبازيانوس (Titus Flavius Caesar Vaspasianus)[298].

والى جانب ذلك أدت سياسية روما في التعامل غير المتساوي بين الولايات التابعة لها فكانت الأقاليم الواقعة في شرق المتوسط تتحدد العلاقة معها بموجب اتفاقيات ثنائية ومعاهدات صداقة وتحالف، أما تلك الواقعة غربا فإنها تلحق مباشرة لروما، بمعنى أن الأولى لا تخضع لنظام ضرائبي مجحف مثل غريمتها في الغرب، مما خلق جو من التذمر لدى أهالي تلك المناطق وولدت لديهم نوعا من الشعور بالتمييز والظلم فزادت ضغائنهم اتجاهها، حيث اعتبرت الولايات المستعمرة في شمال إفريقيا مثلا، مصدر كسب للمال لا أكثر، فلم تحد فكرة "إفريقيا البربرية مستعمرة استغلال بالنسبة لروما"[299]، حتى إن المستعمرات الإفريقية نفسها لم يكن فيها عدل في إدارة الضرائب، والتي اشرف عليها كويستور (Questor)، فلم تكن كلها ملزمة بدفع الضريبة فقد أعفيت المدن الحرة التي منحت

[296] Bertrand, L., 1995, p.63.

[297] عفاف، س. ص.، 1982،ص. 7-8.
[298] عكاشة، ع.، الناطور، ش.، بيضون، ج.،1991، ص.205.
[299] قداش، م.، 1993، ص.169.

الدستور الايطالي[300]، ومما زاد في تفاقم معضلة الضرائب في الولايات الرومانية أن المديرون لأمرها لا يتقاضون مرتبات إنما يستفيدون من مكفآت لسد نفقاتهم الشخصية، فكانت فرصة تولي هذا المنصب لجمع الثروة[301]، وهذا ما يصفه بصدق الباحث السعدني بقوله :"لقد اعتمدت روما – ككل القوى القديمة في حوض المتوسط– على المبادئ الأخلاقية القديمة، قبل أن يكون هناك قانون وضعي، وحققت بذلك نجاحات تلو نجاحات. ولكنها بمجرد أن سارت في موكب الإغراق في الماديات وتناست مبادئ الانطلاقة الأولى تقلص الصالح العام، وتضخمت "الأنا" عند القادة والزعماء ودخلت روما في حرب أهلية، دفعت ثمنها غاليا."[302]، ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الرومان ومنذ أن رست أقدامهم بإفريقيا الشمالية، سعوا لوضع أساس إداري روماني يتماشى وطموحاتهم في تثبيت أقدامهم والاستفادة مما تحوزه المنطقة، وهذا لا يتأتى إلا بتوطيد الإدارة لخدمة ذاك الغرض، لكن وبعد تمحص وإمعان بما هو انفع لهم، لم يجدوا خيرا مما وجدوه أيام القرطاجيين، فأبقوا عليه وأجازوه، وبالتالي أصبحت منطقة الشمال الإفريقي تشمل:

1– إفريقيا، تخضع لسلطة روما الفعلية، وهي قرطاجة سابقا، تمتد من قفصة إلى غاية طبرقة ثم تنتهي جنوبا إلى صفاقس.

2– مملكة نوميديا، ما لبثت أن تمزقت بعد وحدة لم تعمر كثيرا بعد موت العاهل ماسينيسا، فعصفت بها رياح الفتنة والصراع على الكرسي.

3– موريطانيا، كانت محصورة بين نهر ملوية والأطلسي وشهدت أكثر من توسع على حساب نوميديا كعربون اعتراف من روما للخدمات المقدمة من ملوكها.[303]

[300] المحجوبي، ع.، 2001، ص.106.
[301] أيوب، أ. ر.، 1996، ص ص.192-193.
[302] السعدني، م. إ.، 1997،ص.15.
[303] المدني، أ. ت.، 1986، ص ص.79، 80.

وفي المقابل ما حدث في إفريقيا يندرج ضمن تصفية حسابات الرومان بعضهم بعضا، وهذا ما وقع فعلا أثناء حكم أسرة غرديانوس عام 238م، الذي اتسم بكثرة الاضطرابات ليس فقط في إفريقيا بل في كامل الإمبراطورية، ولعل ابلغ وصف لما آلت إليه الأوضاع ما خطه جوليان بيده في كتابه الشهير "تاريخ إفريقيا الشمالية" بقوله:" فبدأ الصرح الضخم الذي بناه أغسطس واهيا أمام ضربات الزمان. ذلك أن النظام السياسي الذي لا يرتكز على دستور بل على عزيمة الجيش الذي يسانده، مصيره الحتمي أن يصبح لعبة في يد الجيش."[304]، وهذا ما سيحصل بعد حكم سيبتيموس سيفيروس إذ تحولت الإمبراطورية إلى دكتاتورية عسكرية، مثلما عمد هذا الأخير إلى جعل الخدمة العسكرية إلزامية لكن دون مشاركة سكان ايطاليا فيها، وبالتالي أصبح جنود المقاطعات الرومانية هم من تحدد على أيديهم مصير الإمبراطورية، وبذلك لم تعد روما تلعب دورها في تسيير شؤون الدولة[305]، ومن السمات المميزة لهذه المرحلة أن أضحى التقاتل بين نفس الجيش هو الصورة الغالبة رغم التهديدات التي كانت تحدق بحدود الدولة من الشعوب المتوحشة، فلقد تنافس في نفس الفترة على اغتصاب الحكم ثمانية عشر طاغية*، مما سيكون مؤشرا بقرب اجل الإمبراطورية الرومانية ونهايتها الحتمية.[306]

حيال الأزمة الخانقة للقرن الثالث الميلادي، بدت روما أكثر هشاشة من ذي قبل فقد تفككت أواصر المجتمع، واتجهت الإمبراطورية إلى حالات اللااستقرار امني، وتراجع المستوى الثقافي بشكل ملفت للنظر، كما أن الولايات التي أصبحت خارجة عن سلطة روما

---

304 جوليان، أ. ش.، 1931، ص. 270.

305 ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.323.

***** سماهم مؤلفو (Historia Augusta) بالطغاة الثلاثين، وهذا لربما للمقارنة بينهم وبين الطغاة الثلاثين لأثينا، حيث قاد هؤلاء حركات انفصالية ضد السلطة في روما وكانوا من الحرس البرايتوري الذي عاث فسادا في أرجاء الإمبراطورية واستحكمت قوته، ومن ضمن هؤلاء القادة العسكريين زنوبيا وماكرينوس وكريداس وباليستا في الشرق، أما في الغرب وبلاد الغال نذكر لوليانوس وبوستوموس الذي ادعى لنفسه العرش وضرب عملة باسمه واستطاع أن يمد نفوذه على اسبانيا وبريطانيا، كما لقي شعبية لدى الجيش بسبب ما تمتع به من عدل وأنصاف ودفاعه عن الحدود من هجمات الجرمان، وبعد تعرضه للذبح عام 267م بسبب رفضه سلب مدينة موجانتاكيوم (Mogontiacum)، خلفه فيكتوريانوس وأمه فيكتوريا وتوتيكوس وماريوس. للمزيد من المعلومات ارجع إلى: حسين، ش.، 2005، ص.89.

306 جوليان، ش. أ.، 1931، ص.270.

وتحت رحمة العساكر المنشقين، قد حمل مواطنوها على عاتقهم مسؤولية حماية أنفسهم بعدما تخلت السلطة المركزية عنهم، وباءت بالفشل كل محاولات مجلس الشيوخ إنقاذ تفعيل السلطة المدنية وما تبقى من دستور روما[307]، وهذا كله لا يعدوا بعيدا عن ما يحدث في إفريقيا بل هو لصيق بها ويؤثر بشكل أو بأخر عليها، خاصة وأنها على مرمى حجر من روما.

3-الإصلاحات وفشلها.

القارئ لخطى سير الإصلاحات الرومانية يظهر له أن بعضها لم يدم طويلا وأن البعض الآخر لم يحقق أهدافه، كتلك التي وقعت في أواخر العهد الجمهوري عام 133 ق.م، حيث انتهت بثورات ضد الطبقة الحاكمة ومن ضمنها جماعة مجلس الشيوخ، كما لم لبثت هذه الشرارة أن أوقدت نار الحرب الأهلية فيما بعد والتي أنهت حياة النظام القائم[308]، ويشهد المؤرخون على هذا الوضع المتعفن مثل ما جاء به نصحي إبراهيم بقوله:" أصبح عجز الطبقة الحاكمة عن حسن إدارة شؤون الدولة أمرا جليا واضحا، وأصبحت رائحة فساد هذه الطبقة تزكم الأنوف برز في القرن الأخير من عهد الجمهورية زعماء مصلحون، تحدوا الأوضاع القائمة تحديا خطيرا."[309]

ونظرا لعبث الجيش وتسلطه على مجريات الحكم، لم تسلم حتى محاولات الإصلاح الجادة والتي أتت أكلها، ومنها التعديلات التي أقدم عليها برتيناكس (Caesar Publius Heluius Pertinax Augustus) مباشرة بعد تنصيبه من مجلس الشيوخ عام 193م اثر مقتل كومودس، فملأ الخزينة العمومية بالمال المستخلص من مبيعات مقتنيات القصر الإمبراطوري وزهد فيها، كما خفف من عبء الضرائب التي أثقلت كاهل الشعب الروماني وفي هذا الصدد يسوق ديورانت شهادة ديون كاسيوس عن نزاهة برتيناكس بقوله:"والحق أنه

[307] Bloch, G., 1922, pp.159-160.

[308] نصحي، إ.، 1978، الجزء الثاني، ص.7.
[309] نصحي، إ.، 1978، الجزء الأول، ص.314.

فعل كل ما يجب على العاهل الصالح أن يفعله."، لكن المسار الذي اتخذته هذه الإصلاحات لم تعد تصب في مصلحة الحرس الإمبراطوري، فبعد مدة قصيرة من توليه الحكم لا تتعدى ثلاثة أشهر اقتحم ثلاثمائة جندي القصر وقُتل الإمبراطور الجديد وفصل رأسه عن جسده، وأعلنوا نيتهم بمنح التاج لمن سيكون عطاءه أكثر للعسكر.[310]

إن الحديث عن الإصلاحات يجرنا بالضرورة إلى شخصيتي ديوكليسيانوس* (284–305م)، والذي تمكن من الصمود على عرش الإمبراطورية مدة عشرون سنة، وهذا الأمر لم يحدث منذ نهاية عهد سيبتيموس سيفيروس[311]، وقسطنطينوس** (Flavius Valerius Constantinus) (306–337م) الذي واصل درب الإصلاحات وعمقها، حيث تتحدث المراجع التاريخية عن الجهود المبذولة من قبل كل من الإمبراطوريين في إعادة تماسك الإمبراطورية بعد الفوضى التي مرت بها خلال القرن الثالث للميلاد[312]، ولئن كان الأمر وقتيا فقط وزاد في عمر الإمبراطورية أمدا، فهذا لم يمنع من أن تلقى مصريها المحتوم.

---

310 ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.321-322.

* ولد جايوس أوريليوس فالريوس ديوكليسيانوس وهو ديوكليس في سلوناي (Salona) عام 245 م، ينتمي إلى طبقة فقيرة في إقليم دالمتيا (Dalmatia) تولى منصب قائد الحرس البرتوري ثم حكم روما بعد وفاة الإمبراطور غالنويس (Gallineus) في 284م، وأثناء حكمه قضى على ثورة كانت تهدف لغزو ايطاليا قام بها الألمان (Alamani)، كما انتصر على الملكة زينوبيا (Zenobia) في تدمر (Palmary)، وعرف خلال توليه حكم الإمبراطورية الرومانية بإصلاحاته الإدارية والعسكرية والمالية، وبذلك استطاع إنقاذ روما من زوال محتوم وأطال في عمرها، كما تميز عهده بالاضطهاد العظيم للمسيحيين، مات عام 316 م، وموته ينتهي عهد الإليريين. للاطلاع على الموضع عد إلى: حافظ، أ. غ.، 2007، ص.81.
خليل، أ. ع.، 2011، "الدولة الرومانية في عهد ديوكلتيانوس: 284-305 م"، *Encyclopaedia Britanica*.

311 Clavé, Y., 2017, p..292

** قسطنطينوس الكبير من مواليد 28 أوت من عام 280م، بمدينة نيش (Nis) بصربيا حاليا، وبعد وفاة والده قسطنطينوس الأول تقلد الحكم يوم 26 جوان عام 306م وتلقب بلقب قيصر، اختار فوستا (Fausta) أبنت مكسيميانوس قرينا له، واعتنق المسيحية عام 312م، وبهذا منح للمسيحية حق وجود شرعي، ويقال أن هدفه لم يكن الدين في حد ذاته بل خدمة أغراضه السياسية، فشيد الكنائس ومنح رجال الدين امتيازات، وفي عام 325م أصبح حاكم الشرق والغرب لما غزى روما وافتتحها قام بنقل العاصمة إلى الشرق عام 326م، وقبل أن يموت اقدم عام 335م على تقسيم ملكه على أبنائه الثلاثة وهم قسطنطينوس وهو الابن البكر منحه القسطنطينية، وقسطنطينس أعطاه مصر والشام وأرمينيا وبلاد الرافدين، وقنسطنس ظفر بروما، فارق الحياة عام 337م. للمزيد من الاطلاع على الموضوع عد إلى: عارف، ع.، 2005، *المفصل في تاريخ المقدس*، بيروت، ص.139.
أحمد، م. ح.، 2017، *تاريخ بيزنطة السياسي والحضاري (330-1403 م)*، عمان الأردن، ص ص. 34-35.

312 مصطفى، ع.، 1999، ص ص.11-12.

ومن ضمن ما قدمه ديوكليسيانوس لإزالة الفساد الإداري وإعادة بعث الإمبراطورية، كفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية[313]، إذ اسند مهمة تولي الجيش لأفراد يُختارون من الفرسان عوض مدنيين كان يختاروهم مجلس الشيوخ، وهذا ليكون الأداء أفضل في التصدي لهجمات البرابرة[314]، ولا يجب أن نتغاضى عن دور قسطنطينوس في تقليم أظافر الحرس الإمبراطوري الذين كانوا يمارسون سلطات واسعة عسكرية ومدنية وذلك بتجريدهم منها[315]، وليتمكن ديوكليسيانوس أيضا من تحسين إدارة المقاطعات ومراقبة ولاتها بث عيونه، ورفع عددها إلى سبعا وثمانين مقاطعة، فكان عددها في إفريقيا ثمانية بدلا من أربعة، فعلى سبيل المثال أُنشئت موريطانيا السطيفية باقتطاع الجهة الشرقية من موريطانيا القيصرية سنة 288م، وفصلت موريطانيا الطنجية عن إدارة إفريقيا وأُلحقت بهسبانيا، أما البروقنصلية فقد قسمت إلى ثلاث ولايات عام 295م، على أن هذه الإصلاحات لم تأتي دفعة واحدة بل على مراحل[316]، والغرض العام الذي دفع بالإمبراطور ديوكليسيانوس إلى إعادة تنظيم الولايات والقيام بالمزيد من التقسيمات هو لتفادي ما كان يقوم به الجنرالات من محاولات سلب أجزاء من الإمبراطورية التي ترامت إطرافها شرقا وغربا ولربما تبادرت لديه فكرة "قسم وأحكم"[317]، فأنشئت على إثر ذلك المقطعات التالية:

1–قسمت نوميديا عام 303م إلى منطقتين نوميديا كيرتا، وأخرى عسكرية ومقرها لمبيز، إلى حين ظهور الفارس برايسوس وتوحيده لهما واتخذ من كيرتا مقرا لها.

2– إلحاق موريطانيا الطنجية بهسبانيا (شبه الجزيرة الإيبيرية)، والقصرية جزئت إلى مقاطعتين انطلاقا من واد فيلتون فكانت قيصرية وسطيفية.

---

[313] إبراهيم، خ. إ.، 1996، *دراسات في تاريخ مصر البيزنطية*، مصر، ص.7.
[314] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.275.
[315] مونسكيو، 1748، ص ص.157-158.
[316] Ferrère, F., 1897, *La situation religieuse de l'Afrique romaine depuis la fin du IV siècle jusqu'à l'invasion des vandales(429)*, Paris, p.5.
جوليان، ش. أ.، 1931، ص ص.275-276.
[317] الناصري، أ. ع.، 1991، ص.410.

3-برونقنصلية أوزغوان عاصمتها قرطاجة والتي جمعت دوقيات قرطاجة وبنزرت.

4-أُخضع إقليم طرابلس الممتد من جنوب الجريد إلى أعماق سيرت لبيرايسوس المقيم بلبدة.

5-المناطق الموجودة في دواخل تونس من أراضي الإستبس وكانت تعرف بالمزاق وهي دوقية حضرموت تقبع تحت سلطة حاكم من مجلس الشيوخ (Consularis).[318]

كما لا يمكن لنا تناسي اقتسام ديوكليسيانوس السلطة مع إمبراطور ثاني عرف بالحكم الثنائي (La Dyrarchie)[319]، مثلما اشرنا سابقا بالإضافة إلى استحداث منصب قيصرين إلى جانب الإمبراطورين في مهام تسيير شؤون الإمبراطورية المترامية الأطراف*[320]، وهي من المحامد التي تحسب لديوكليسيانوس، فتقاسم الأربع الإمبراطورية (Tetrarchia)، تحت مسمى مغاير (Préfecture)، وهي بدورها تنقسم إلى وحدات اصغر، مع فرض سلطة مركزية ورقابة شديدة على مختلف المقاطاعات[321]، فكانت إفريقيا وايطاليا تحت إدارة ماكسميانوس، أما ما كان من وراء جبال الألب ألحقت لقسطنطنيوس كلوروس (Marcus Flavius Constantius Herculius Augustus)، ثم وضعت إليريا (Illyria) (سلوفينيا حاليا) إلى غاية البحر الأسود (Pont-Euxin) تحت إشراف غاليريوس (Caius Galerius Valerius Maximianus)، أما ما تبقى من الإمبراطورية فعاد إلى ديوكليسيانوس[322]، لكن هذا الإجراء سيفتح الشهية للانفصاليين ليستمدوا شرعيتهم منه، وهذا ما بدا خلال حكم خلف قسطنطينوس[323]، كما رأى البعض الأخر من الباحثين مثل و.ج. دي بورج أن إصلاحات

---

318 حارش، م. ه.، 1992، ص.175.

319 رمضاني، أ.ه.، 2018، ص. 65.

* كانت الصيغة البروتوكولية التي تأتي على رأس المراسلات الرسمية أو الشفوية كالتالي:"إمبراطورانا المتبصران جدا، الأوغسطان ديوكليتسيانوس ومكسيميانوس، والنبيلان جدا، القيصران كونسطانس ومكسيميانوس..."، ولئن كان الأمر مألوفا لدى الأباطرة الرومان قبل ديوكليسيانوس أن شهدوا تقاسم السلطة نظرا لشاسعة الإمبراطورية، فمثلا ماركوس أوريليوس (161-180 م) عين رفيقا له (Consort)، واقتسم فاليريانوس (254-260 م) حكم مع ابنه جالينوس.انظر: شنيتي، م. ب.، 2012، ص. ص.60.
الحويري، م. م.، 1995، ص.34.

320 مونسكيو، 1748، ص.157.

321 رمضاني، أ.ه.، 2018، ص.67.

322 Clavé, Y., 2017, p.294.

323 Bloch, G., 1922, p.159.

ديوكليسيانوس قد دفعت أكثر الأمور إلى التعقيد والارتباك ومنها إلى التدهور والانهيار عام 476م.[324]

كما أن بعض الإصلاحات التي حلت بعضا من المعضلات التي عانت منها روما داخليا، قد انعكست بالسلب على المستعمرات ومنها إفريقيا، كالتي أقدم عليها الإمبراطور أغسطس من سياسية امتصاص للأعداد الكبيرة من الجنود المسرحين بإنشاء المستوطنات حول أهم المدن مثل سيقا (Siga) ويول وطنجة وليكسوس (Lixus) وولیلي (Volubilis)، قد زج بالمنطقة في دوامة من الوضعيات المعقدة والسيئة قابلها السكان المحليون بجملة من التمردات قمعتها روما تحت غطاء حملات التأديب والسيطرة، فلم تنتهي سنة 40م حتى استحوذت روما على أجود الأراضي ومنحتها للمعمرين.[325]

إذا العهد الروماني ببلاد المغرب القديم قد امتد على طول أربعة قرون من 40 إلى 429م، تميز بوجود مرحلتين متباينتين، فترة ازدهار شملت القرنيين الأولين وبالذات من 40 إلى 238م عرفت بفترة العهد الإمبراطوري الأسفل، وهو عهد حكم الانطونيين والسيفيريين، تضاعف خلالها عدد السكان نتيجة تحسن ظروف المعيشة وازدهرت المدن وكثر عددها وارتفعت المباني التي تحاكي تلك الموجودة بروما، لكن منذ تاريخ 238م دخلت روما ومنطقة شمال إفريقيا التابعة لها في دوامة من المشاكل، منها الثورات التي اشتعل فتيلها من الاضطرابات والإنفلتات الأمنية وانتفاضة الأهالي مما ساهم في إضعاف الإمبراطورية شيئا فشيئا ودفع إلى النتيجة الغير منتظرة وهي خسارة إفريقيا وارتمائها في أحضان الو ندال منذ عام 429م.[326]

ومما مر بنا من أحداث تاريخية سواء في روما أو خارجها، علينا التوقف عند أمر مهم، أن ما كان يحدث إما في الوطن الأم ونعني بذلك شبه الجزيرة الايطالية أو بعيدا عنها

[324] حسين، ش.، 2005، ص. 155.
[325] شنيتي، م. ب.، 1982، ص ص.136-137.
[326] Albertini, E., 1937, p.p.18-19.

لا يمكن عزله بأي حال من الأحوال عن باقي الأوطان التي وضعت الإمبراطورية اليد عليها بما في ذلك إفريقيا، سواء كان الشأن من باب النفع أو الضرر، والعكس صحيح وهذا كله في إطار إعمال القاعدة الشهيرة ضمن عملية "التأثير والتأثر".

الفصل الرابع

الأزمة الاقتصادية والاجتماعية

1-مظاهر وتبعات الأزمة الاقتصادية.

أ-وضع الاقتصاد في فترة الممالك الإفريقية.

ب-الوضعية الاقتصادية خلال الفترة الرومانية.

2-البنية الاجتماعية وتأثيرات الاستعمار الروماني.

أ-البنية الاجتماعية لسكان إفريقيا قبل الاحتلال الروماني.

ب-التغيرات الطارئة على المجتمع الإفريقي في كنف السيطرة الرومانية.

في أواخر القرن الثالث الميلادي دخلت الإمبراطورية الرومانية مرحلة من الاضطراب والتقهقر نتيجة تردي الوضع العام، سواء من الجانب السياسي، أو الاقتصادي أو الاجتماعي الذي وصف بالخطير، وهو ما عبر عنه قداش بقوله:"اكتست الأزمنة مظاهر عديدة: سياسية بنظام قائم منذ 238م على إرادة وقوة الجيش الذي كان يضع ويخلع الأباطرة، اقتصادية بانخفاض العملة وعدم استقرار الأسعار وارتفاعها، والمصادرات التعسفية للمحصول، اجتماعية بتفوق ارستقراطية عاطلة مستغلة لعبيدها بل ولصغار ومتوسطي الملاك أيضا."[327]، وبما أن الحالة الاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاقتصاد، وهو ما سيجرنا إلى تناول هذا الفصل من الزاوية المذكورة، لان جزء من تاريخ إفريقيا الشمالية عرف ترجعا اقتصاديا واجتماعيا خلال العهد الاستعمار الروماني، مما يدفعنا إلى مراجعة تصورات وأحكام مؤرخي المدرسة الكولونيالية ومنهم ديرو دي لامال (Adolphe Dureau de la Malle) الذي أشاد بانجازات الرومان بالشمال الإفريقي وهو يقصد بذلك الجزائر حاليا من خلال كتابه تاريخ حروب الرومان والبيزنطيين والوندال عام 1852م، ومن ذلك السلم الروماني* (Pax Romana) وازدهار إفريقيا الرومانية، ولم يتناول الحديث عن مضرات هذا الاستعمار، وتمادى في هذا الهذيان الأكاديمي لويس برتراند (Louis Bertrand) في إيجاد مبررات لاستعمار المنطقة[328]، لكن هذا لا ينفي أن نكون منصفين في حق التحسينات الرومانية في مجال الاقتصاد كالسياسة المائية** الرشيدة المنتهجة في شمال إفريقيا بغرض

---

[327] قداش، م.، 1993، ص.221.

* يشبه الباحث نديم الخطيب السلم الروماني بالسلم الذي تريد أن تمليه الولايات الأمريكية على عالم اليوم، وهذا بفرض منطق القوة، وقد قام الباحث بسرد النجاحات العسكرية التي حققتها روما من تحطيم قرطاجة عام 146ق.م، ثم الشام عام 67 ق.م، فمصر وشمال إفريقيا، وبالتالي بسطت نفوذها كاملا على حوض البحر المتوسط، وقد فرضت هذا الواقع على شعوبه لمدة سبعة قرون وهو ما عرف بالسلم الروماني، كما يعرفه الباحث بوساحة الطيب من خلال مقال له بعنوان "نشأة وتطور الجيش الروماني من العهد الملكي إلى الإمبراطوري" انه السلم الذي فرضه الحرس البريتوري بإطالة حكم الأباطرة وحمايتهم من الانفلاتات الأمنية ودسائس مجلس الشيوخ. لاطلاع على الموضوع انظر: الخطيب، ن.، 2011/9/6، " السلم الروماني"، *Syriano*، https://syriano.net بوساحة، الط.، 2021، ص. 900.

[328] أندري، ب.، أندري، ن.، إيف، ل.، 1960، ص.ص.74-75.

** تدل المخلفات الأثرية على وجود منجزات زراعية ضخمة في المناطق الرعوية، ولاستصلاح الأراضي كان لا بد من توفير أهم عنصر فيها وهو الماء، ومن ضمن الأمثلة التي ساقها شنيتي لإظهار هذه الحقيقة، وجود بقايا لسد كبير على وادي الحامة الذي يتغضي من جبال بوطالب، فيسقي بساتين الزيتون وحقول الحبوب بالحضنة، كما وجدت خزانات وقنوات ري وبقايا معاصر ومطاحن بمنطقة مقره، مثلما انتشرت على طول الوديان الأخرى سدود على وادي ملاح،

الاستفادة من كل مصادر المياه من ينابيع وأودية وأمطار ومياه جوفية، لكن للأسف يندرج كل هذا العمل في مصلحة روما قصد استغلال ثروات المنطقة.[329]

1-مظاهر وتبعات الأزمة الاقتصادية.

كثيرا ما ارتبط الاقتصاد في المجتمعات القديمة بما فيها الشمال الإفريقي بما تجود به الأراضي الزراعية، فكان أساس الثراء هو الثروة الفلاحية التي صاحبت جميع الفترات التاريخية من فجر التاريخ مرورا بالفترة القرطاجية وانتهاء بالفترة الرومانية التي سيستقر بحثنا بها، فظلت الزراعة في منطقة الشمال الإفريقي هي الركن المتين في اقتصادها عبر الزمن والدال على ذلك إجماع الكثير من الباحثين على أن ارتباط المجتمع بالنظام القبلي يعود أساسا إلى امتهان الرعي والزراعة، كما نجد أن عدم وجود الزراعة في أجزاء كبيرة من إفريقيا يرجع بالدرجة الأولى إلى عدم توفر أهم عناصرها وهو الماء بشكل دائم، مما كرس عملية عدم الاستقرار، فكانت الصورة النمطية هي محدودية الزراعة وانتشار مهنة الرعي بشكل أوسع[330]، ونحن في عملنا هذا سنحاول توضيح ما تحاشى بعض الباحثين طرقه، والوقوف عند حقيقة واحدة تتمثل في الثناء على التوسع الزراعي في ظل الهيمنة الرومانية، وعدم كشف تبعات هذه الهيمنة إن على الاقتصاد أو على السكان المحليين.

أ-وضع الاقتصاد في فترة الممالك الإفريقية.

استهوت منطقة شمال إفريقيا الباحثين والطامعين بما تزخر به من ثروات طبيعية كثيرة، فقد وصف بوليبيوس مشهدا من ازدحام للمنتوج الحيواني وخصوبة تربة إفريقيا

ومنطقة رأس العين التي انشرت بها مخلفات لمزرعة رومانية دلت على مدى التطور الذي بلغته الزراعة الرومانية بالمنطقة، وكذلك وادي مساره وجدت به منشأت ري ومطاحن ومعاصر، كما لابد من ذكر أهم هذه المراكز على الإطلاق بمدينة نسفيبوس (Necevibus) (نقوس حاليا)، تحوطوها معالم أثرية مهمة توضح ما مدى الازدهار الزراعي الحاصل بها، كما جاء ذكرها في كثير من المصادر القديمة لشهرتها الاقتصادية. للمزيد من الإيضاح عد إلى: شنيتي، م. ب.، 2003، *أضواء على تاريخ الجزائر القديم. (بحوث ودراسات)*، الجزائر، ص.ص. 109- 115.

[329] بشاري، م. ح.، 2002، ص.42.

[330] العقون، أ. خ.، "مظاهر المجتمع والحضارة الليبية من خلال الآثار المصرية القديمة"، *مجلة الاتحاد الأثريين العرب*، العدد 8، ص.1.

قائلا:"لا يسعنا أمام خصوبة إفريقيا إلا أن نقف مندهشين، (...)، هناك بإفريقيا تكثر الخيول، البقر، الأغنام، والماعز، بشكل ملفت للنظر وبأعداد كبيرة جدا، ولا أظن أن يوجد له نظير في العالم كله."[331]، كما لا بد من ذكر واقعة كاتون باستعمال حبة من التين لتأليب مجلس الشيوخ على تحطيم قرطاجة، لأجل إظهار ما تزخر به إفريقيا من إمكانات طبيعة كثيرة تسيل لعاب الطامعين، بما فيهم الرومان[332]، كما لا يتوانى كامبس باعتبار إفريقيا من أفضل المستعمرات الرومانية بقوله:"والحقيقة أن إفريقيا كانت من أجمل مقاطعات الإمبراطورية."[333]، مثلما جاء من حديث بلينوس الكبير عن الثراء الذي يزخر به الشمال الإفريقي قوله:

نصادف، عندما ننتقل إلى السيرت ولبدة الكبرى (بواحة قابس)، مدينة افريقية ما بين الرمال، (...)، تتمتع بخصوبة قل لها شبيه، (...)، حيث نجد تحت ظل نخلة باسقة تنموا شجرة زيتون، وبدورها تحتها تنموا شجرة تين، وتحتها شجرة رومان، ثم شجرة كروم، وبعدها يزرع القمح بين جنابتها، ثم الخضروات، وأخيرا نجد أعشاب نباتية، الكل ينموا في نفس العام، الواحدة تحت ظل الأخرى.[334]

وبعيدا عن خيرات وثروات الشمال الإفريقي فلم يكن الإنسان في المغرب القديم في معزل عن التقنيات المتداولة هنا وهناك في سائر المعمورة بل تشير الدراسات الأثرية والتاريخية باستعمال الحبال لصيد السمك منذ العصر الحجري القديم[335]، كما أن منطقة الشمال الإفريقي قد شهدت بعث الزراعة فيها منذ فترات قديمة ومنها وجود الكوريات المثقوبة في مواقع الفترة القفصية والنيوليتية مثل منطقة رأس سيجلي ببجاية أو أمكني بالهقار والتي

---

331 Polybe, XII.

332 Pline l'ancien, *Histoire naturelle,* XV. XX, Trad. Dubochet, 1850, Paris.

333 كامبس، غ.، 1980، ص.207.

334 Pline l'ancien, XVIII, LI. XXII.

335 إبراهيم، ع. ب.، 2015، "الأحوال الاقتصادية العامة لبلاد المغرب القديم في كل من نوميديا الشرقية والغربية"، *مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر، ص.169.

استعملت في ما يعتقد لدق الحبوب[336]، ولعل الافتراضات التي ساقها كامبس عن وجود زراعة ما قبل تاريخية هي الأقرب للتصديق، إذ تعود هذه الدلائل إلى الفترة النيوليثية ومنها أدوات زراعية كالفؤوس المشذبة، مثل ما أثبتت الرسومات الصخرية هذا المنحى ومنها رسومات لاستئناس الخراف والبقر[337]، بالإضافة إلى دلائل أخرى تؤكد على المعرفة المبكرة لسكان إفريقيا لمهنة الزراعة ومنها العثور على عظام عجل يرجح أنها وظفت كآلة لقطع السنابل، في موقع مشتى العربي (شرق الجزائر)، وكولومناطة (تيارت)، بالإضافة إلى الأواني الفخارية بكثرة، والرحى النائمة على كامل منطقة الصحراء[338]، وأكد هيرودوت على وجود سكان مزارعين يعيشون ما وراء بحيرة تريتونيس (Triton)* يعرفون بالمكسيين (Maxyes)[339]، مثلما عَلَمَ السكان المحليون للرومان أكل وتذوق حلزون إفريقيا حتى أضحت تجارة رائجة في ما وراء البحار خلال أوائل الميلاد وخصص لها أمكان لتربيتها[340]، ولعل العائق أمام تسليط الضوء بما يكفي لرسم صورة كاملة وصادقة عن واقع تلك الشعوب هو قلة ما نحوزه من أثار مادية وأدبية وهذا ما يؤكده قزال متحدثا عن الأهالي ودور الحروب البونيقية في كشف بعض من أسرارها بقوله :

والخلاصة هي أنه إذا كانت الحروب البونيقية فرصة لنا للتعرف قليلا على الأهالي "المغاربة" في القرنين الثالث والثاني، فليس الأمر سوى بصيص نور يعقب ظلاما يكاد يكون شاملا. فلا يوجد مقال يشرح حالتهم السياسية

---

336 غانم، م. ص.، 2010، الجزء الثاني، ص.145.

337 كامبس، غ.، 1960، *في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ*، تعريب العربي عقون، 2010، الجزائر، ص ص.88-91.

338 العقون، أ. خ.، ص.6.

* رأس بوقارون في شبه جزيرة القل شمالي قسنطينة، حيث يحدد الجغرافي الروماني سترابون، منطقة "رأس تريتونيس" بأنها تلك المناطق الجافة الواقعة بالقرب من مصب نهر "ملوية"، كما تم الإشارة ضمن النص انه: "رأس بوقرعون"، بشبه جزيرة القل، ولقد كان الإغريق القدامى يعرفونها باسم "الميتاغونيتس" (Métagonitis-terre)، كما أورد بوليبيوس هذه المنطقة حينما كان متحدثا عن تجنيد حنبعل لأربعة ألاف فارس لحماية مدينة قرطاجة خلال سنوات 219-218 ق.م. حول الموضوع ينظر: غانم، م.، 2010، الجزء الأول، ص.134.

339 Hérodote, *Histoire,* IV.CXCI, Trad. Larcher, 1850, Paris.

340 قزال، إ.، 1930، الجزء السادس، ص. 9.

والاجتماعية، ويقدم لنا حضارتهم، بحيث لا يقع الاهتمام بهم إلا بقدر ما شاركوا في الصراع الكبير الواقع بين رومة وقرطاجة.[341]

فإذا كان هذا الوصف يصح على القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد في خضم الاحتكاك الكبير بين الساكن المحليين والرومان، يعد بصيص نور في ظلمة شديدة، فكيف الحال بباقي الأزمنة السابقة لها!. وهذا التوجس أيضا يظهره الباحث جيلبر شارل بيكار (Gilbert-Charles Picard) من ندرة المعلومات عندما يتعلق الأمر بدراسة وقائع تاريخية تمتد إلى الفترة القديمة، قوله:" أن إحدى العوائق الجوهرية التي تقف أمام الدراسات في مجال التاريخ القديم هي قلة أو مصداقية الإحصاءات المقدمة."[342]

ومما لاشك فيه هو ممارسة الرعي وتربية الماشية بشكل واسع لدى سكان شمال إفريقيا في فترات متأخرة من تاريخهم، تعود على الأرجح للعصر الحجري الحديث، وهنا ما علينا إلا الرجوع إلى ألاف الرسومات الصخرية المنتشرة بالطاسيلي–ناجر والاهقار لنرى مشاهد الرعي راسخة هناك تدل على قدم مهنة استئناس الحيوان، وجعل مهنة الرعي جزء مهم من اقتصاد المنطقة[343]، وشكلت المواد المستخلصة من مهنة الرعي كالصوف والألبان أساسا معيشيا مهما، ولا يلجأ المربون إلى استهلاك لحومها عن رضا، لأنها تشكل رأس مالهم وتُوظف الأبقار لعميلة الحرث ولذلك تكتسي طابع القدسية، ويُعوض ذلك بعمليات الصيد التي يجدون فيها متعة وضرورة، حتى إن بعض القبائل كانت تستطيب أكل لحوم القردة[344]، وهذا ما تؤكده المصادر الأدبية ومن ضمنها كتاب "حرب يوغرطة" للمؤلف اللاتيني سالوستيوس (Caius Sallustius Crispus) كاشفا عن طباع وغذاء السكان المحليين قوله: "الجيتول والليبيون هم السكان الأوائل لإفريقيا، أقوام يتميزون بالغلظة في الطباع ومتوحشون،

---

341 قزال، إ.، 1930، الجزء الخامس، ص.20.

342 Picard, G-Ch., 1990, *La Civilisation de l'Afrique romaine,* Paris, p.55.

343 إبراهيم، ع. ب.، 2015، ص.170.

344 قزال، إ.، 1930، الجزء السادس، ص.12.

يتغذون على لحوم الحيوانات الضالة"[345]، وتؤكد الجداريات المتواجدة بموقع جرف التربة غربي بشار على الحدود الجزائرية المغربية مشهد حلب، مما يثبت قدم ممارسة مهنة الرعي واستئناس الحيوان، كما تدون البحوث التاريخية أن هملكار القائد القرطاجي قد غنم عشرون ألفا من رأس البقر من اللبيبين المجاورين لقرطاجة بعد غزوه لهم خلال القرن الثالث ق.م[346]، بالإضافة إلى وجود الزراعة بحد ذاتها كنشاط اقتصادي ضروري وملازم لعملية الاستقرار لسكان الشمال الإفريقي، وجدت بعض من التقنيات الفلاحية سابقة وبعيدة عن أي تأثير خارجي مصاحب لتوافد عناصر خارج التركيبة البشرية للمنطقة سواء كان من تأثيرات الفينيقيين أو الرومان فيما بعد، وهو العثور على الزراعة في المدرجات على حافة الصحراء.[347]

ويبدو أن منطقة الشمال الإفريقي قد تأثرت كثيرا بالفينيقيين الوافدين إليها، والكم الكبير من الإضافات التي ستغني المنطقة إن في الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي، مثل ما جاء على يد الباحث محفوظ قداش مبرزا التأثيرات الفينيقية بقوله:" لم يتمكن العالم البربري من أن يحرم نفسه من الإثراء بالاتصال بالحضارة البونيقية، فلم يكن التأثير البونيقي على المستوى المادي فحسب بل كان على المستوى الثقافي والديني أيضا، (...)، أنتج تدخل قرطاجة في الجزائر إقامة شبكة من التبادل وضعت بلادنا في علاقة مع باقي العالم."[348]، ومن بين أهم المحاصيل التي جلبها الفينيقيون إلى منطقة الشمال الإفريقي زراعة أشجار الكروم والتين والزيتون، كما يرجع لهم الفضل في تطوير التعدين وازدهار تجارته في غرب المتوسط[349]، وقد أدى دخول اقتصاد الشمال الإفريقي ضمن الاقتصاد العالمي، فراجت التجارة بين السكان المحليين وشعوب حوض البحر المتوسط، وهذا أدى بدوره إلى نمو الاقتصاد المالي وبالتالي نمو المدن وخاصة الساحلية منها.

[345] Salluste, XVII.

[346] كامبس، ق.، 1960، ص ص.142-143.
[347] بشاري، م. ح.، 2002، ص.47.
[348] قداش، م.، 1993، ص ص.47-48.
[349] غانم، م. ص.، 2010، الجزء الثاني، ص.118.

وأهم الزروع المنتجة محليا القمح والشعير منذ عصور ما قبل التاريخ لتناسبها مع مناخ منطقة البحر المتوسط[350]، وكانت فيما يعرف عن الأفارقة أنها احتلت عندهم مكانة الصادرة[351] ، بالإضافة إلى الأغراس النافعة مثل البقول كالعدس والحمص والفول والبزلاء[352]، كما اهتم الأفارقة قليلا بالخضر ويتم إنتاجها حول المدن مثل دوقة وكيرتا وتبسة، ومنها الخرشوف، البصل، الثوم، اليقطين والخيار، بالإضافة إلى الفواكه بكميات معتبرة كالتين والعنب والتمور[353]، ولم يتمكن النوميديون فحسب من ممارسة الزراعة وتطويرها مع مرور الزمن، بل حتى نجد اهتماما من نوع آخر هو تربية النحل، الذي تحدث عنه هيرودوت.[354]

وإلى جانب الزراعة فقد دلت النقيبات الأثرية التي قام بها كل من فيلار (F. Villard) وب. سينتاس (P. Cintas) في كل من تيبازة وقورايا (بجاية) على وجود صناعة فخارية تنوعت بين البدائية والبسيطة والمتطورة مثل فخار دولاب، وتمثل هذه الأخيرة أحسن مثال للامتزاج الحاصل بين الثقافة المحلية والبونية، بالإضافة إلى ذلك وجدت صناعة الزجاج ذو اللون الأزرق المائل إلى السواد أو اللون المزخرف أو اللونين البني والفضي، كما عثر على صناعة موافقة لما كانت عليه في عصرها من أسلحة وحلي.[355]

ب-الوضعية الاقتصادية خلال الفترة الرومانية.

يمكننا القول أن إفريقيا الشمالية دخلت في أزمة منذ أن وطأت قدم الرومان بلاد المغرب القديم، وهذا بعد ما ضمت روما الأراضي الخصبة وتم ترحيل سكانها إلى المناطق الأقل خصوبة، ومنها قبائل المسولاميين (Musulami) التي كانت تسيطر على مناطق

---

350 حارش، م.ه.، 2013، ص.78.
351 حارش، م.ه.، 1992، ص.105.
352 كامبس، ق.، 1960، ص.105.
353 حارش، م.ه.، 1992، ص.105.
354 عيساوي، م.، 2009، *النقوش النوميدية في بلاد المغرب القديم دراسة تاريخية لغوية حول الواقع قبيل الاحتلال الروماني، المحمدية*، ص.55.
355 غانم، م. ص.، 2010، الجزء الأول، ص.ص.79-83.

واسعة تمتد من قسنطينة وسطيف شمالا إلى الحدود الجنوبية لتبسة، حيث جُردت من ممتلكاتها بعد مقارعتها للرومان زهاء السبع أعوام من 17 إلى 24م، وهُجرت إلى غرب موريطانيا القيصرية، وكذلك تقليص مساحة القبائل الرعاة ودفعها نحو الجنوب حيث القحط وانعدام سبل العيش[356]، فلم يكن الاقتصاد المحلي الذي أرادته روما سوى اقتصادا متمما ومكملا لاقتصادها[357]، فمثلا كُرست ارض إفريقيا لسد أفواه الجوعى من القمح الإفريقي في شبه الجزيرة الايطالية، ولما تناقص إنتاج الخمور والزيوت في روما توسعت هذه الزراعة في كل من أودية منطقة القبائل سوق أهراس وتبسة[358]، وبعدما استحكمت روما بالمنطقة اثر هزيمة قرطاجة عام 146 ق.م، وجهت أنظارها هذه المرة اتجاه نوميديا، فبعد الهزيمة التي تلقاها يوغرطة عام 105 ق.م على يد ماريوس استطاعت روما أن تغنم ثلاث ألاف رطل من الذهب و5775 رطل فضة و217000 دراخمة، ولعلها من أهم التدابير التي اتخذتها روما من يوم احتلالها للمنطقة، فكانت هذه احد وجوهها الاقتصادية وهي جمع الغنائم[359]، مما يبين النوايا المستترة لروما لتكريس فكرة الاستغلال إلى ابعد الحدود لمقدرات المنطقة.

ومن جهة أخرى يبدو أن روما لم تكن إلا تلميذا أمام ما قدمته الحضارة القرطاجية من تقنيات زراعية، فقد استفادت أيما استفادة من هذه التقنيات المتواجدة بشمال إفريقيا، وتماشيا مع هذا المبدأ فقدت حرص الرومان بعد الاستيلاء على قرطاج بترجمة 28 كتابا لماقون* (Magon) إلى اللاتينية من أناس لهم دراية باللغة البونية أمثال سيلانوس (D. Silanus)،

---

356 شارن، ش.، 2002، "النتائج الاقتصادية للتوسع الروماني في نوميديا وموريطانيا القيصرية"، *مجلة حولية المؤرخ*، الجزء الأول، الجزائر، ص ص.35-36.

357 Pline l'ancien, XVIII, 35.

358 قداش، م.، 1993، ص.170.

359 شارن، ش.، 2002، ص.37.

* ماقون عالم قرطاجي من القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، كتب أطروحة مهمة عن الزراعة باللغة البونية، والتي تعتبر من أهم المصادر المعتمدة في الموضوع وهذا لمدة عدة قرون، الكتب الثمانية والعشرون التي تضمنت هذه الموسوعة الفريدة من نوعها ترجمت إلى اللاتينية والإغريقية، لكن للاسف هذا العمل المهم قد ضاع مع مرور الوقت ولم يصلنا إلا عن طريق الإشادات التي ذكرها المؤرخون الرومان أمثال بلين الشيخ (Pline L'Ancien) وفارون (Varron)، نظرا لسبقه العلمي في هذا المجال دعي ماقون بـ"أب علم الزراعة" (Rusticationis parentem). لمزيد من المعلومات انظر:
قزال، إ.، 1930، الجزء الرابع، ص ص.11-40.

وكذلك إلى لغات أخرى كالإغريقية مثل ترجمة ديونيسيوس الأوتيكي (Cassius Dionysius)[360]، ومن بين هذه التقنيات استغلال المدرجات لزارعة المحاصيل الفلاحية بدليل أنها كانت منعدمة في المناطق الخاضعة لروما، واقتصر دور الرومان في توسيع هذه التقنية إلى المناطق الجبلية شبه الجافة، ولا أدل على ذلك الشاهد المادي الذي يعود إلى ما قبل الغزو الروماني والمتواجد بقرية غرب تبسة تدعى تازبنت والمتمثل في مدرجات بسمك ما بين 60 و80 سنتمر[361]، وبذلك نتأكد من حقيقة تاريخية أن كل من القرطاجيين والنوميد قد كانوا على دراية بتقنيات الري التي أتى بها الرومان فيما بعد، وأن هؤلاء قد أولوا عناية بما وجدوه من مشاريع زراعية، وإنما تبدوا إضافتهم في مجال الطرقات وتحصينها قصد تسهيل سير الجند ونقل المحاصيل[362]، فيبدو أن الزراعة في قرطاجة لم تكن فقط سبيل استرزاق بل فاقت ذلك الأفق لتكون علما مكتمل الواقع والدلالة[363]، والظاهر أن الرومان لم ينهجوا سبيل القرطاجيين في الاهتمام بالأراضي الزراعية الذي جاء متأخرا نسبيا، فقد كرسوا فكرة الانتفاع من كل ما يفيدهم منذ أول وهلة لوجودهم بالمنطقة، وهذا من خلال ثلاث أوجه هي:

1- تكريس الاستفادة من الخبرة القرطاجية سواء في إفريقيا وايطاليا.

2-استغلال كل الوسائل المتاحة مثل موارد الماء، وإحصاء الأراضي الفلاحية واستصلاحها.

3- العمل على نقل المنتجات والأموال من إفريقيا إلى روما.[364]

بدأت الأزمة الاقتصادية تلوح في الأفق منذ أواخر القرن الثاني الميلادي مصاحبة للفساد السياسي المستشري في جسد الدولة آنذاك، ومن ضمن مظاهرها ما حدث في عهد الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس (193-211م) من تراجع لقيمة العملة، نتيجة لقلة الذهب

[360] Gsell, S., 1930, T.IV, p.4.

[361] بشاري، م. ح.، 2002، ص ص.47-48.

[362] جغلول، ع. ق.، 1982، ص.ص.16-17.

[363] Gsell, S., 1930, T.IV, p.8.

[364] شنيتي، م. ب.، 1982، ص.109.

فاستدرك الأمر بخلط الذهب بمعادن أخرى بنسبة خمسين بالمائة في سك العملة، مما تسبب في إلحاق أضرار بليغة بالاقتصاد واضطربت الأسعار، ورغم محاولة ديوكليسيانوس التخفيف من أثار هذا الاضطراب الذي أصاب الاقتصاد، بتعويض الضريبة التي كانت تدفع نقدا بأخرى تدفع عينا عام 301م، لكن هذا الإجراء لم يُؤتي أُكله في آخر المطاف، وبقى الاقتصاد البدائي هو الغالب، كما لم تتطور كل من الصناعة والتجارة[365]، فلخطورة الموقف الذي الم بالإمبراطورية الرومانية جراء الأزمة النقدية التي أصابتها خلال القرن الثالث الميلادي، أولاها المؤرخون عناية خاصة، لكونها أول ظاهرة تضخم اقتصادي مؤرخة.[366]

وتبقى أزمة العملة أهم سمات هذه الضائقة الاقتصادية التي أضرت كثيرا بالإمبراطورية، فبدأت بندرة المعادن لإنتاجها من ذهب وفضة*، مرورا بتدهور قيمتها وخاصة الدينايوس (Denier)، وخفض من وزن الأوريوس (L'aureus) إلى 6.50 غرامات، وانتهاء بندرة في العملة بشكل ملحوظ مما دفع إلى اللجوء للمقايضة، واضطرت السلطة الرومانية إلى دفع جزء مستحقات الجند عينا[367]، وأمام هذا الوضع المتردي للعملتين قام الإمبراطور كاراكلا باستبدال الدينايوس بالانطونينياس (Antoniniana).[368]

ومن جانب آخر وبالرغم من اتساع مساحة الإمبراطورية الرومانية إلا أن تجارتها كانت من جانب واحد نظرا لقلة الصادرات المتمثلة في زيت الزيتون والنبيذ وبعض المصنوعات البرونزية[369]، بينما امتصت البضائع المحببة والنادرة القادمة من الشرق ذهب روما،

---

[365] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.ص.270-271.

[366] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، المجلد الثاني، ص. 533.

* ندرة المعادن الموجهة لسك العملة خلال عهد الإمبراطوري الأعلى، سواء من ذهب وفضة يرجع بالأساس إلى تراجع استغلال المناجم، بالإضافة إلى إنهاك ما هو موجود من مناطق استخرجها من الأنهار أو باطن الأرض، مثل ما نظيف إلى كل ذلك توجيه منتوج الذهب إلى استيراد المواد النادرة خاصة من الشرق الأوسط، ولتدارك هذه المعضلة لجأ الأباطرة إلى خفض وزن العملة، وبدأ العمل بهذا الاجراء منذ عهد الإمبراطور نيرون. لمعلومات إضافية عد إلى:
Bloch, G., 1922, p.p. 265-266.

[367] Clavé, Y., 2017, p.p.285-286.

[368] شنيتي، م. ب.، 2012، ص.50.

[369] نصحي، إ.، 2009، الجزء الأول، ص.329.

كالبخور، العطور والحرير...[370]، وبشكل ملفت للنظر أثناء تولي أغسطس الحكم حدثت زيادات كبيرة في الطلب على هذه البضائع.[371]

بعد قولنا هذا، وبعد جمعه تتجلى فكرة أن الاضطرابات المادية تجر إليها الحروب الأهلية، نظرا لانعدام آلية وقواعد ثابتة لانتقال السلطة، فأصبح المألوف آنذاك الخلافات على تولي السلطة واستفحال ظاهرة اغتصاب الحكم.[372]

ومما زاد في تفاقم الأزمة الاقتصادية التي كان لها تبعات اجتماعية، ما حدث خلال الأعوام الأولى من القرن الثالث للميلاد من مدفوعات المنح والهبات للبرابرة لكف شرورهم، إذ تعاظمت هذه النفقات حتى بلغت مستويات لا تطاق، وهو ما عبر عنها كراكالا* (Caracalla) أنها تساوت مع نفقات الجيش الروماني، وكل ذلك لم يجعل روما في منأى عن الهجمات الشرسة للبرابرة، ففي عام 240م استطاعت هذه الحشود أن تجتاز نهر الراين من الغرب، وتمكنت كذلك من الساحل الشرقي لهسبانيا، أما من الجهة الشمالية الشرقية فقد اطل القوطيون بقيادة ملكهم كنيفا (Kniva)، ملحقين هزيمة بالجيش الروماني في شبه جزيرة البلقان، وقتل خلال تلك المعارك الإمبراطور دوكيوس (Docius) نفسه.[373]

وفي كنف الاستعمار الروماني لإفريقيا الشمالية يبدو الوضع بوجود استثمار متوازن، إلا أن الحقيقة كانت عكس ذلك تماما إذ احدث تراجعا ملحوظا في تنوع المحصول الفلاحي لصالح منتوج أحادي، واختل التوازن بين الزراعة وتربية المواشي، علما أن المنطقة رعوية

---

[370] جوليان، ش. أ.، 1931، ص، 271.
[371] محجوبي، ع.، المجلد الثاني، ص575.
[372] إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، المجلد الثاني، ص. 554.
* كراكالا اسمه الحقيقي ماركوس أورليوس أونطونينوس (Caesar Marcus Aurilius Severus Antoninus Pius Augustus)، سمي بكراكلا والأصح كاراكاللوس نسبة إلى ادخاله لروما عباءة ذات غطاء باهظة الثمن، وعرف بضعف شخصيته وقسوة طبعه، كما كان شديد الإيمان بالخرافات، ومن ضمن أعماله بعد وصوله الى الحكم، أن عقد صلحا مع الكليدونيين في بريطانيا وسحب قواته إلى ما وراء سور هادريان، وأنتهج اسلوب ترهيب المثقفين والتنكيل بهم، وقد أدى سخائه على الجيش لضمان ولائه إلى مضرات على الخزينة، مما اضطره إلى فرض ضرائب كثيرة أنهكت كاهل الملاكين في أرجاء الإمبراطورية. للمزيد من انظر: سامي، س. أ.، ص.ص. 223-224.
[373] تشارلز ورث، أ. ب.، 1950، ص.184.

بامتياز نظرا لطبيعتها [374]، ومنع على السكان من زراعة أشجار الزيتون انطلاقا من القناعة لدى الرومان أن المنطقة وهبت للآلهة لإنتاج الحبوب مثلما جاء عند بلينوس الكبير (Pline L'ancien):"أن ارض إفريقيا برمتها منحت للإلهة سيرس (Cérès)، الزيت والخمر قد حُضرا عليها زراعتهما تقريبا، كل عظمة إفريقيا هي في إنتاج الحبوب."[375] وهذا التوجه لتخصيص معظم أراضي بلاد الشمال الإفريقي لصالح زراعة الحبوب، وبالمقابل احتكر الرومان تجارة الزيوت والخمور، وكانت من قبل في زمن الدولة القرطاجية أشجار الزيتون والكروم تملأ السهول الخصبة الممتدة من شمال قرطاجة إلى شبه جزيرة الوطن القبلي فيما عرف بـ (Chora)، بالإضافة إلى انتشار البقول والثمار مثل الرمان الذي عرف تحت اسم "التفاح البونيقي" (Mallum punicum)، وأيضا التفاح وهي المنتجات التي ادخلها الفينيقيون إلى شمال إفريقيا[376]، كما أنتجت الحبوب في سهول الجهة الشمالية الغربية والتي زادت عن حاجة السكان فصدر الفائض منها إلى بلدان الحوض المتوسط بما فيهم ايطاليا نفسها، وفي نفس الوقت نجد النوميديين قد اقتبسوا من تقنيات الزراعة لدى القرطاجيين فازدهرت عندهم زراعة الحبوب كذلك، فظهرت في عدة المناطق كسهول واد مجردة وروافده والهضاب[377]، أما في فترة تواجد الاستعمار الروماني ظهر استغلال ضخم للثروات وجهت بالدرجة الأولى للتصدير بكميات كبيرة من أقلية كبار المالكين الرومان نحو الوطن الأم، ومن هذه المنتوجات نذكر القمح كغذاء لبطالي* روما العاميين بالإضافة للصوف، والخشب والزيت.[378]

---

[374] Salluste, LXXVI.
[375] Pline l'ancien, XV. 8.
[376] حارش، م.ه.، 2013، ص.85.
[377] المحجوبي، ع.، 2001، ص.129.

* عانت العاصمة الرومانية كغيرها من عواصم العالم القديم من ظاهرة الاكتظاظ السكاني، فلقد شهدت زيادة مطردة مع تقدم الزمن ومرور السنون، بحيث بلغ عدد قاطنيها ربع المليون، ومع بداية نظام الحكم الإمبراطوري وبخاصة فترة حكم أغسطس (27-14م) ارتفع العدد ليصل إلى ثمان مائة ألف نسمة، وفي وقت متقدم مليون ومائتي ألف، وكل هذا الكم من الأفواه كان لابد من إشباعها، لكن روما كانت عاجزة عن توفير أمنها الغذائي، بالإضافة إلى الخسائر التي لحقت الزراعة جراء الحرب البونية الثانية (218-202 ق.م) بإقدام القائد القرطاجي حنبعل عام 210 ق.م بحرق حقول القمح الايطالية، ولولا مساعدة ملك مصر بطليموس فيلوباتور (Philopator) لمات سكان روما جوعا، بالإضافة إلى الضرائب الضخمة

كما نظيف إلى ذلك ما أصاب الثروة الحيوانية غير الأليفة من تراجع رهيب نتيجة توسع عمليات الصيد من الرومان أنفسهم قصد الاستفادة منها، فمثلا الفيلة إما أنها تنقل إلى روما بغرض عرضها في الألعاب* الكثيرة التي كانت تقام هناك، أو تلقى حتفها لاستئصال مادة العاج منها، والتي وصفها بشاري الحبيب أنها بحق عملية إبادة جماعية واسعة لحيوانات المنطقة[379]، كما احتاجت روما إلى باقي الحيوانات المفترسة الموجودة بإفريقيا بغرض ملء المسارح الدائرية بروما وبالمدن الايطالية التي اكتظت بالجماهير، فيبدوا أنها كانت من بين أهم مظاهر التسلية وتعرف إقبالا كبيرا من الرومان، وهذا ما يؤكده الهادي حارش بقوله:"وقد ظهرت هذه الحيوانات في مختلف الألعاب التي أقيمت في روما. ويبدو أنها كانت محل تجارة رائجة."[380]، ففي عهد أغسطس قُتل ما يزيد عن ثلاثة ألاف حيوان جلبت من إفريقيا ومن بين هذه الحيوانات نجد الدببة، الأسود، الفهود، الضباع والعسبار (ذئب الأرض)، زد إلى ذلك استغلت روما الحيوانات الأليفة كالخيول، الأبقار، الغنم والماعز، بغرض الاستفادة من لحومها وجلودها وأصوافها وأوبارها، كما كثر الطلب على الدواجن الإفريقية بروما نظرا لجودة لحومها ومذاقها الفريد[381]، بالإضافة إلى البغال الإفريقية التي كثر عليها الطلب هي الأخرى [382]، ولعلنا هنا نوثق ما جاء من كثرة هذه الثروة الحيوانية المتوحشة من قول بوليبيوس :"معظم شعوب هذا البلد الكبير يجهلون كيفيات زراعة

على صغار الفلاحين مما ادى بأصاحبها للتخلي عن مهنة الفلاح، فلذلك مثل القمح الإفريقي احد أهم المواد لتموين روما بما تحتاجه من غذاء. للمزيد من الإيضاح عد إلى: أحمد، أ.، "الإمبراطورية الرومانية والقمح الإفريقي"، مصراته، ص.439.

378 أندري، ب.، أندري، ن.، إيف، ل.، 1960، ص.76.

* أتت الألعاب كضرورة لملء الفراغ الذي أحدثه عدم نشوب الحروب، فأصبحت الألعاب تحوز مكانة في حياة الرومان وتمثل اهم الاعمال إثارة، وكانت إما احتفالات دينية كعيد الأم العظمى، وسيرس، وأبلوا وأغسطس، أو قد تقام هذه الألعاب من اجل تسلية العامة أو تكريما لمدينة روما وألهاتها، كما قد تقام من أجل نيل منصب رئيسي أو الاحتفال بنصر، وقد تنوعت الألعاب فمنها من حاكى معارك في تاريخ الجيش الروماني وظهرت الحيوانات المحلية والأجنبية في حلبات الصراع مثل: الفيلة، والأسود، والنمور، والدببة والخنازير البرية، والزرافات، والتماسيح، وكانت أحيانا تقام ليلا، وقد تخلل الألعاب فرق موسيقية تطرب الحاضرين، وادخل قيصر عادة صراع الثيران والتي كانت شائعة في كريت، وقد يتم إحضار المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام إلى الحيوانات المفترسة مما يفضي طابعا ساديا عليها ويجعلها أكثر إثارة وتشويقا. للمزيد من المعلومات عد إلى: ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.ص. 413-420.

379 بشاري، م. ح.، 2002، ص.37.

380 حارش، م. ه.، 1996، *التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا*، الجزائر، ص.155.

381 حارش، م. ه.، 2013، *مملكة نوميديا دراسة حضارية منذ أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد*، الجزائر، ص.ص.185-186.

382 Albertini, E., 1937, p.31.

الأرض، لا يعيشون إلا على لحوم الحيوانات ومع الحيوانات، فنجد من بينها الفيلة، الأسود، الفهود بأعداد كبيرة وقوة خارقة، كما نجد الجواميس النظرة، وطائر النعام بأحجام مدهشة، وكلها حيوانات لا نجد لها مثيل في كامل أوروبا."[383]

أما فيما تعلق بالمواد المصنعة أو الخام، فمنها الخزف الإفريقي الذي لقي رواجا كبيرا في الأسواق الرومانية ففاقت مداخل مبيعاته الزيوت، كذلك صدر الخشب نظرا لوفرة الغابات التي كانت تغطي السهول في الشمال، التلال والجبال[384]، وهذه الوفرة من الخشب أكدها بلين الكبير في صدد وصفه لجبال الأطلس بقوله:"من بين الرمال، يرتفع إلى عنان السماء، تربته جرداء من ناحية المحيط الذي سيمنحه اسمه، لكن كثير الظلال، تغطيه الغابات الكثيفة وترويه منابع الماء المتدفقة، ناحية الجهة المطلة على إفريقيا."[385]، فكان هذا كله مثلما يصفه قداش:"إنهاكا للأرض وقضاء على الغابة."[386]، ولعلنا هنا أمام واقع أصبح يعيشه المجتمع الروماني هو عمليات النهب والسلب للأقطار التي أضحت بحوزته مثل ما يذكر ديورنت:" وأصبح المجتمع الروماني يزداد اعتماده شيئا فشيئا على الإنتهاب من الخارج والاسترقاق في الداخل."، وكان لهذه السياسة ثمنه على الاقتصاد والمجتمع الروماني، فحل الخراب بين المزارعين نتيجة تدفق الحبوب وتدني أسعارها، كما اثر انتشار الضياع إلى لجوء صغار الملاك إلى الاقتراض ومنها الاتجاه إلى الإفلاس ومغادرة البادية نحو المدن، والاسترزاق إما من التسول أو قطع سبيل المارة لنهبهم[387]، وبات دور الولايات هو إشباع نهم جهاز المؤونة والمعروف بالأنونة* (Annanae) الذي بلغ أهمية كبرى وملك أسطولا بحريا يضمن به نقل احتياجاته من المواد الغذائية كالقمح والزيت واللحم والخمر

---

383 Polybe, XII.

384 المحجوبي، ع.، 2001، ص.137.

385 Pline l'ancien, V. 6.

386 قداش، م.، 1993، ص.169.

387 ديورنت، و.، 1975، الجزء الأول، المجلد الثالث، ص.233.

* Annona Civica أو Annonae وهي كل ما يتيح إيصال المؤونات الغذائية مجانا أو بأسعار زهيدة من وسائل مختلفة الى روما والقسطنطينية، وتؤخذ هذه المواد ومنها القمح والزيت من الولايات التابعة لروما في إفريقيا وغيرها كضرائب. للإطلاع على الموضوع انظر: زموري، خ.، 2018، "القديس أغسطين بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي"، أطروحة دكتوراه، جامعة 8 ماي قالمة، ص.61.

ومخازنه بلغت 290 عام 350م، كما بلغ عدد العائلات المستفيدة من المؤونة المجانية في عهد أغسطس مائتي ألف عائلة، فمثلا خلال القرن الثالث للميلاد تطلب 60 مليون مد (Mudii) لإشباع أفواه الرومان العاطلين عن العمل[388]، فمثلت إفريقيا ثلثي ما يزود روما من حاجتها من الحبوب ولذلك اعتنت بالموانئ القريبة من الأراضي الخصبة، كميناء روسيكاد، ويول (Iol)، وهيبون (Hippo Regius)، وصلداي وتيبازة.[389]

وعلى كل حال، فانه وإزاء الأزمة التي ضربت ميدان الفلاحة ابتداء من القرن الثاني ميلادي لكل من صقلية وايطاليا، مع العلم أن عدد سكان الإمبراطورية قد ازداد بشكل مطرد إما نتيجة الفتوح المتواصلة أو بشكل طبيعي نظرا لتحسن الأوضاع، فقد ظهر بالمقابل استنزاف كبير لثروات المنطقة للتصدي للاختلال الحاصلة آنذاك، فأعيد النظر في غرس الكروم والزيتون، كما توسعت دائرة الزراعة بتمديدها إلى مناطق الشمال والشمال الغربي وسهول واد مجردة وملیان، واتسعت أملاك الرومان بسيطرتهم على أهم الضيعات، وكذلك في المناطق الشمالية والوسطى الخصبة برزت أملاك العرش الإمبراطوري، حتى أنه بلغ ما تم مصادرته من أراضي لصالح الإمبراطور عام 422م بموجب نص قانوني، ما قدره 7432 كلم في الشمال و7630 كلم في الوسط والتي تعرف باسم السالتوس* (Saltus)[390]، على أن عملية مصادرة وتوزيع الأراضي قد بدأ مباشرة بعد استكمال إحصاء ومسح هذه الأخيرة في

---

388 شنيتي، م. ب.، 2012، ص. 53-54.

389 عمران، ع. الح.، 2013، ص.19.

* السالتوس هي إحدى أنواع المستثمرات الفلاحية خلال الفترة الرومانية، ويقصد بها إما المناطق الرعوية والغابية والبراري، كانت هذا الاصطلاح يعرف عند الرومان على أنه الأراضي المغطاة بالأحراش والأشجار، وكانت ملك لمجموع الشعب الروماني وتدعى بالأراضي الموات (Incultes)، وتستعمل للرعي فقط، وبداية من القرن الأول الميلادي تكرر لفظ سالتوس خاصة بإفريقيا ليدل على الضيع الكبيرة، مثل ما يطلق المصطلح على الأراضي الزراعية، وهي عقارات تقع بعيدا عن المدن وتكون في اغلبها ملكا للإمبراطور، وكان هذا النوع من الملكيات هو الأكثر انتشارا بإفريقيا الرومانية، وبالرغم من استصلاح هذه الأراضي التي في الغالب موجهة للرعي أصبحت بساتين من أشجار الكروم والزيتون، إلا أنها حافظت على تسميتها القديمة ولم يتم تغيرها. للمزيد من المعلومات انظر: قزال، إ.، 1930، الجزء السابع، ص.88.
خنيش، ع. ف.، 2012-2013، "التوسع الزراعي في إفريقيا القديمة خلال الفترة الرومانية"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة، ص ص.101-103.

390 المحجوبي، ع.، 2001، ص.190.

كل من إفريقية ونوميديا وموريطانيا القيصرية وباقي الأراضي التي مدت روما اليد عليها وتتمثل في:

1-أراض تابعة للدولة الرومانية.

2-أراض الخواص من الرومان مثل تلك الموجودة بالشلف أو عمي موسى، أو ملكية أبولي (Apulée) بمداوروش (سوق أهراس).

3-أراض كانت تابعة إما للفرسان أو أعضاء من مجلس الشيوخ، وهي مراع خاصة كتلك التي بعنابة (Saltus Hipponiensis)، أو تلك التي أخذت من قبائل المسولاميين بتبسة (Saltus Beguensis).

4-ممتلكات ملوك النوميد تحولت إلى أراض تابعة للأباطرة وتنقسم بدورها إلى قسمين:

-أراض أصبحت تحت إدارة شركات مثل شركة لمبار أو ثالا، وهي إما تشمل قطاع الغابات أو المناجم.

-أراض عالية الجودة تربعت على مساحات كبيرة، مثل تلك الموجودة بثموقادي، عنابة، حيدرة، وقالمة.

5-أراض منحت للجنود المسرحيين أو المتحصلين على المواطنة من الأهالي ممن شاركوا في الجيش الروماني و توسعاته.[391]

فكانت سياسية روما منذ أول وهلة تبعت الإطاحة بقرطاجة عام 146 ق.م، هو ابتلاع الأراضي الزراعية الإفريقية بنهم كبير واستغلال خيرتها، واستمرت هذه العملية لمدة أكثر من قرن، ولذلك عارض هؤلاء المستثمرون حملة روما من اجل الاستيطان لعام 122 ق.م والتي قادها كيوس غراكوس (Caius Gracchus)، وبالتالي مواصلة عملية النهب دون

[391] شارن، ش.، 2002، ص.ص.39-40.

أي مراقبة، واستمرت عملية حيازة الأرض خاصة الجيدة منها بشكل مطرد فانتزعت من أصحابها الشرعيين بالقوة وصبغتها بالصبغة القانونية بجلب مساحي الأراضي (Agrimensores) بإحصائها وتجزئتها إلى قطع متساوية قصد توزيعها وكان أول المستفيدين هم الجنود المتقاعدين[392]، فأصبحت هذه الصورة القاتمة تلاحق ظل التواجد الروماني وما صاحب ذلك من استغلال مفرط لمنتجات إفريقيا خاصة بعد أن تحول إنتاج مصر من الحبوب الذي يعادل نصف ما تنتجه إفريقيا لتموين القسطنطينية، بالإضافة إلى تراجع الإنتاج بصقلية.[393]، وقد بلغت عمليات المصادرة وحصر الأراضي في يد فئة قليلة من المجتمع مستويات لا حد لها إذ تجمعت في يد فقط ست أشخاص نصف الأراضي المتواجدة في إفريقيا وكانت تعرف هذه الضيعات التي يتعسر معرفة مساحتها لاتيفونديا* (Latifundia).

وما حركة الدوارين عنا ببعيد فقد تركز نشاط هذه الجماعات في مناصرة الفلاحين والعبيد ومناهضة كبار الملاك والأسياد والمرابين، ولذلك كانت حركتهم تنحصر في ضواحي المدن والبوادي حتى عرفت بثورة الريفيين.[394]

والحقيقة التي لامناص من سردها في هذا السياق التاريخي، أن الرومان لم يطوروا من طرق الإنتاج في شمال إفريقيا بل كرسوا عملية الاستغلال لما جادت به ارض بلاد الشمال الإفريقي مع ظهور الممالك المحلية آنذاك، كما أن التركيز على جني محصول واحد وزراعته على نطاق واسع وهو القمح قد أخل بالتوازن البيئي[395]، ومنذ أن حلوا بإفريقيا

---

[392] شنيتي، م. ب.، 2012، ص. ص. 67-71.

[393] العروي، ع. ه.، 1984،، الجزء الأول، ص.64.

* كانت لاتيفونديا في البدء ملك للدولة، ثم وضعت تحت تصرف أشخاص مقابل أجر زهيد، تحولت مع الوقت إلى ملك خاص، وهي ضيعات شاسعة المساحة وضع السادة من السلطة الرومانية اليد عليها، بعد فتح الأراضي التي غُلب فيها أصاحبها، ونظرا لتسلط هؤلاء فقط وقعت ايطاليا نفسها تحت سيطرة فئة قليلة في نهاية العهد الجمهوري، وكان هؤلاء سببا في اضطرابات سياسية عنيفة دفعت بالسلطة في التفكير لإعادة النظر فيها، ومنها قانون 376 ق.م ليسينيوس سطولون (Licinius Stolon)، ومحولات الأخوين الكراكيين من 133 إلى 123 ق.م. انظر: قزال، إ.، 1930، ص.270.

[394] المبكر، م.، 1986، ص.57.

[395] جغلول، ع. ق.، 1982، ص.17.

دأبوا على تسخير كل مقدرات المنطقة لصالحهم قبل أي مخلوق أخر، فلم تكن انجازاتهم ولا إصلاحاتهم إلا في إطار تدعيم نفوذهم وتكريس النهب والاستغلال إلى أقصى ما يمكن فعله، متجاهلين سبل عيش السكان المحليين ورفاهيتهم، وأسسوا لقاعدة عسكرية تخدم هذا الغرض، ومن مظاهرها المدن والقلاع العسكرية ومد شبكة من الطرق البرية، ومن المدن: حيدرة، تيمقاد، لامبيز بالجزائر، وقلعة سنان بتونس، أما الطرق منها: الطريق الرابط بين قابس وحيدرة، وأخر بين تبسة وعنابة، وكذلك بين قرطاجة تبسة ولمبيز، وأخر بين سور الغزلان وسطيف[396]، ونتيجة لذلك نجد أن المشاريع المنجزة كما أتى ذكره في أكثر من موضع ضمن هذا العمل، أن فضل الرومان اقتصر على تطوير ما وجوده عند وصولهم إلى المنطقة لا أكثر[397]، مثلما تشير الوقائع التاريخية أن السلطة الرومانية حيث ما حلت وطنت الفقر معها، لعدم قدرتها على تطوير لا اقتصادها ولا اقتصاد الأقطار التي استولت عليها، وزاد من تفاقم هذا الوضع قلة اليد العاملة من الأرقاء، فلم يعرف الاقتصاد الروماني أي نوع من الاستقرار بل الصورة التي باتت تأرق الحاكم والمحكوم هي إما اضطراب في الاقتصاد، أو الوقوع تحت رحمة حادث سيئ، أو حادثة قد تتطور في أي لحظة إلى أزمة حقيقية[398]، وحتى التموين بالقمح الإفريقي أصبح غير قار وليس مضمون، بسبب الندرة وأحيانا انعدام لليد العالمة في الضيعات الكبرى التابعة للإمبراطور، فجزء كبير منها لم يعد ينتج شيئا يذكر منذ عهد هادريانوس.[399]

كما لابد أن نذكر عمليات الاستغلال للثورة المعدنية، حتى أن إفريقيا مقارنة بغالة وايطاليا تعد نسبتها قليلة فيما كانت تسهم به في ميدان التصنيع، لا لكونها شحيحة بل لقلة الاهتمام والاستغلال، لأن إفريقيا وجهت أساسا لإنتاج الحبوب بالدرجة الأولى، والملاحظ أن المواد الأولية المجلوبة كانت من المواد الفاخرة، منها رخام نوميديا الفاخر والغالي الثمن،

---

396 بوعزيز، ي.، 1995، *الموجز في تاريخ الجزائر*، الجزء الأول، الجزائر، ص.60.
397 بشاري، م. ح.، 2002، ص..47.
398 إيمار، أ.، أوبوايه، ج.، 1964، المجلد الثاني، ص.659.
399 Bloch, G., 1922, p.252.

خشب ذو نوعية عالية، حجارة ثمينة، مواد صيدلانية، أنواع من الترب موجهة لإعداد الأصباغ، وأخذت صناعة الأقمشة الأرجوانية كل الاهتمام والرعاية من السلطة الرومانية.[400]

ولأسباب معلومة فقد كان الوضع الاقتصادي العام للإمبراطورية لا يبشر بغد أفضل، فكثرت الصراعات والتمردات الداخلية التي قام بها قادة الجند في كل أمصار الإمبراطورية، حتى شلت حركة الاقتصاد وأعادته إلى مرحلة النظام البدائي، وقد فقدت روما مركزها التجاري الدولي بخسارتها للطرق التجارية بعد ظهور الفرس بمنطقة الشرق الأوسط والخليج ودخولها في حروب باهظة الكلفة، مما أجبر السلطة الرومانية على رفع غير مسبوق للضرائب بوتيرة متصاعدة مما زاد في تفاقم حالات اللا استقرار للاقتصاد الروماني المتهالك[401]، فظهرت حالة تنافي كبيرة بين إمبراطورية بدا الفساد ينخر أوصالها ويعجل في فنائها، وبين قوى لا تبعد عنها كثيرا تعرف نموا ملحوظا.

2-البنية الاجتماعية وتأثيرات الاستعمار الروماني.

أ-البنية الاجتماعية لسكان إفريقيا قبل للاحتلال الروماني.

ما هو مسلم به على مستوى تاريخ الشمال الإفريقي، إرهاصات التشكيلة الأولى للمجتمع التي صاحبت الفترة التاريخية بسيطرة النظام القبلي كسمة بارزة، مع عدم نفي وجود قيادة محلية تقوده تمثلت في شخصية ايرباس (Hirbas)*[402]، وإن كان وجود القائد ليس ضروري إلا في حالات الحرب ،[403] وقد عرف هذا المجتمع تغيرات لازمت الحركة الاقتصادية، إذ أثرت قرطاجة بشكل أو بأخر في تطوير البنية الاجتماعية برفع وتيرة التبادل

---

400 Albertini, E., 1937.p.31.

401 الناصري، أ. ع.، 1991، ص. 501.

* هو ملك محلي يعتقد انه قاد قوم الماكسيتان (Maxitani)، غير أن أوسيثاتيوس (Eushate) يظن انه ملك المازيس، وقد حملت أقوام كثيرة هذا الاسم في إفريقيا القديمة، وهو حسب كامبس تحريف للاسم البربري "أمازيغ"و"إمازيغن". للمزيد من المعلومات ينظر: كامبس، ق.، 1982، *البربر ذاكرة و هوية*، ترجمة عبد الرحيم حزل، 2014، الدار البيضاء ، ص.188.

402 غانم، م. ص.، 2010، الجزء الثاني، ص.ص.172-173.

403 Gsell, S., 1930, T. V, p.70 .

التجاري بين أهل الأرض وباقي شعوب البحر المتوسط ولاسيما الإغريق[404]، وبدأت تظهر ما يعرف اليوم بالقرى والمدن انطلاقا من أواخر القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد وهي على شكل تجمعات سكانية كبيرة نوعا ما في التلال، وبالأخص في فترة حكم كل من إيلماس (Aylmas)، والملك غايا (Gaia)* [405]، مثلما يؤكد كامبس من خلال محاكاة الأركيولوجية البروتو تاريخية على وجود بنية اجتماعية متطورة، بحيث تطلب بناء قبور لتخليد ذكرى حاكم أو زعيم، بأحجام معتبرة وهذا بوجود أعداد كبيرة من العمال سواء كانوا متطوعين أو مسخرين، أو أسرى حروب[406]، كما تمتع الأفارقة بصحة قلما تجد لها مثيل عند الشعوب الأخرى مثلما جاء عند سالوستيوس قوله: "الرجال أقوياء مهرة، شديدو البأس والعمل: يموتون عموما بهرمهم، إلا في حالة العنف بالحديد والحيوانات المتوحشة، وذلك نادر، وقل ما يرديهم المرض."[407]، وقبله هيرودوت ذكر هذه الحقيقة عن سكان الشمال الإفريقي :"إنني لا أعرف شعبا أصح من اللوبيين."[408]، ويحدد سترابون المواقع الآهلة بالسكان بقوله:

أن ليبيا تشبه جلد الفهد، لأنها مغطاة ببقع الأماكن المأهولة التي تحيط بها أرض صحراوية قاحلة لا ماء فيها ولا حياة، ويدعو المصريون هذه الأماكن المأهولة واحات.(...)، تنقسم بمقتضاها إلى ثلاث أقسام. القسم الأكبر من ساحلها الواقع قبالتنا هو القسم الأشد خصوبة، خاصة قورينائية، والمناطق المحيطة

---

404 جغلول، ع. ق.، 1982، ص.8.

* الملك غايا أحد أبناء زيليلسن (Zililsan)، أخذ زمام الحكم في مملكة المسيل أي نوميديا الشرقية نحو 220 إلى غاية 206 ق.م، ويدعي أيضا غالا (Gala) أو غولا (Gula)، عقد علاقات طيبة مع بلاد الإغريق وبلدان الشرق. للمزيد من المعلومات أنظر: Armand, A., 1844; *L'univers Afrique: esquisse générale de l'Afrique et Afrique ancienne. Carthage. Numidie et Mauritanie*, Tome III, Paris, p.94. Mahfoud, F., Alger, P.34.

405 غانم، م. ص.، 2010، الجزء الثاني، ص.99.

406 كامبس، ق.، 1960، ص.145.

407 سالوستيوس، *حرب يوغرطة*، 17، ترجمة. ف.ياسمينة بريهوم. فيصل الأحمر، 2010، قسنطينة.

408 Hérodote, IV, CLXXXVII.

بقرطاجة وصولا حتى مورسيا وأعمدة هرقل. ولكن ساحلها على المحيط لا يتميز بكثافة ملفتة، أما المناطق الداخلية، (...)، فإن سكانها قلة نادرة.[409]

بداية من القرن الخامس قبل الميلاد تتحدث المصادر الإغريقية واللاتينية عن سكان الشمال الإفريقي، فالعائلة كانت أبوية، تعدد الزوجات شائع بينهم[410]، على أن بعض المصادر وكذلك دراسات غربية تتحدث على أن المجتمع اللوبي لم يكن يعرف معنى الارتباط بالزواج، كقبيلة الأوزاس (Ausees) التي شاع بين أفرادها المعاشرة العلنية، وينسب الطفل بعد بلوغه للشخص الأقرب شبه له، والحال نفسه لقبيلة المخليس (Machlyes)، والأمثلة كثيرة رددتها المصادر عن مشاع النسوة بين سكان المنطقة[411]، كما وجدت العلاقة بين الجنسين خارج إطار الزواج ، فهذا ماسينيسا* (Massinissa) قد فاق عدد أولاده الحد المعقول، أربعا وأربعون وربما خمس وأربعون **[412]، منهم ثلاثة شرعيون فقط، وهم مكيبسا*** (Micipsa) (MKW'SN) وغلوسا (Gulussa)(G'L'SN) ومستنبعل

---

409 سترابون، 33V.II.

410 Gsell, S., 1920, T.I, p.p. 240, 241.

411 بنت النبي، م.، 2016، "هيرودوت يتحدث عن الحياة الاجتماعية لسكان بلاد المغرب القديم"، *مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر، ص.ص. 335، 336.

* ماسينيسا ملك نوميدي عاش فيما بين 238-148 ق.م، حكم نوميديا ما بين عامي 203-148 ق.م، كان والده غايا قد رباه على الشجاعة وحب الوطن، وحسنت تربيته وكانت خليقة بالأسر النبيلة والمالكة، نشأ في مدينة قرطاجة عام 232 ق.م، وأتقن اللغة الفينيقية والإغريقية بالإضافة للغته المحلية اللبيبة، يمثل رمز الوحدة النوميدية، اتخذ من كيرتا (قسنطينة) عاصمة لمملكته، انتقد بسبب موقفه من الرومان ومساعدته لهم للدخول إلى شمال إفريقيا. للمزيد من المعلومات يعاد إلى:غانم، م. ص.، 2010، الجزء الأول، ص.ص.124-127.

** هذا راجع بالأساس لتعدد الزوجات، وكان في بلاد المغرب وشمال إفريقيا عموما أمرا مألوف ومشروعا، وكان مقصورا على الأثرياء والأمراء والقادريين على ذلك ماديا، وقد مثلت هذه العملية ظاهرة قديمة في بلاد المغرب، فقد أشار نقش مصري يعود للقرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى اثني عشر زوجة لقائد الريبو، كما توجد أدلة على تلك الظاهرة بالمجتمع النوميدي، وكذلك أنتشرت عملية ولادة الأطفال غير الشرعيين خراج إطار الزواج، وهذا ما يفسر العدد الكبير لأبناء ماسينيسا. حول الموضوع اطلع على: حارش، م. هـ.، 2013، ص.ص.93-94.

412 جوليان، ش. أ.، 1931، ص.135.

*** مكيبسا هو احد أبناء ماسينيسا البكر، ولد في حوالي عام 200 ق.م، يقال انه تربي على كره القرطاجيين ومسالمة الرومان، لم ينجب أطفالا إلا في سن متأخرة من عمره، وتولى الحكم وهو ابن أكثر من خمسين ربيعا، رأي في طموح ابن أخيه المتبنى يوغرطة مخاوف على ابنيه هيممبصال وادربعل، لذا أراد حسب ساليستيوس التخلص منه في حرب اسبانيا، التي حقق فيها انتصارات كبيرة ونال إعجاب الرومان. للمزيد من المعلومات أنظر: غانم، م.، 2010، الجزء الأول، ص.ص.127-128.

(Mastanabal) (M'S'TN'BL)[413]، ليطل بعد ذلك القرن الثالث قبل الميلاد، حيث تبدأ المعلومات عن مجتمع الشمال الإفريقي تتضح أكثر من ذي قبل بالحديث عن وجود ممالك محلية تمثلت في مملكتي الماسيل**** (Massyles)، والمازيسيل***** (Masaesyles)[414]، ومملكة المور* في أقصى الغرب[415]، وكانت الشعوب القاطنة بإفريقيا لبلاد المغرب مجهولة أو الدراية بهم قليلة لدى شعوب الضفة الشمالية للبحر المتوسط من إغريق ورومان وهذا ما يؤكده سترابون، ويرجع سبب ذلك إلى عدم توغل الجيش ولا الرحالة الأجانب إلى العمق الإفريقي، قوله :"إن أكثر الأقوام التي تقطن ليبيا، هي أقوام غير معروفة لنا،(...)، ونادرا ما يأتي إلينا أفراد من سكان المناطق النائية، كما أن أخبارهم ناقصة وغير موثوق بها."[416]، وفي نفس الباب يفصل سترابون التركيبة القبلية للسكان الأهالي لكن يصف الماسيل والمازيسيل على أنهم من بين أهم وأشهر من النومييد :" أما منطقة قرطاجة فهي منطقة شاسعة مترامية الأطراف تجاورها بلاد النوماديين، ويدعى الأشهر من بين هؤلاء

---

413 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.23.

**** تذكر قبائل الماسيل منذ القرن الثالث ق.م حسب قزال، وهي أسماء محلية ويكون مفردها مسيل (Masil) أو مسول (Masoul)، وقد عرفهم الإغريق باسم مسوليوي (Masylioi) ومسُوليوي (Massylioi) مسولي (Massuli)، ويؤكد قزال على أن المسيل كانوا قبيلة قبل أن أعطوا اسمهم للدولة، ولا يحدد مكانهم عكس قبيلة الماسيسليين كما سيأتي ذكرهم، لكن بلين يحدد قبيلة تدعى المسيلي (Massyli) ربما هي ما نحن بصدد الحديث عنها، وتقع بين نهر الامساقا وسرنيكا أي برقة، وكانت مملكة المسيليين أي نوميديا الشرقية تتربع على مساحة اقل من جارتها المسيسيلية، وتـأخذ جـزءا من شـرق الجزائر الحالية وغرب تونس، وحتى وإن هذه المساحة قد تضاءلت بسبب سياسة التوسع لمملكة الماسيسيليين من جهة، وقرطاجة من جهة أخري، فأصبحت لاتسيطر إلا على الجزء الشرقي فقط لمدينة قسنطينة، وتذكر المصادر أن غايا كان ملكا لها قبل ولده ماسينيسا، ظهرت على مسرح الأحداث منذ الحرب البونيقية الأولى، وتمتد حسب سترابون من بوقرعون شمالي قسنطينة إلى حدود قرطاجة. للمزيد من المعلومات أنظر: قزال، إ.، 1913، ص.ص.89-93.

***** كانت قبيلة المازيسيل تقع بين ملوشا ورأس تريتون، أما في الجنوب حيث قبائل الجيتول فمن الصعب تحديدها، وهي مساحة اكبر من مثيلتها مملكة الماسيل، قد ظهرت بها شخصية سيفاكس أول موحد لنوميديا ما بين سنوات 206-203 ق.م، ثم أصبحت تابعة لماسينيسا، وقد ورد ذكر الماسيسيليين منذ 220 ق.م، ولا يمكن الجزم بتاريخ نشأتها ويفترض أن أصولها موريـة، وأنها هاجرت من المغرب نحو الأراضي المنفتحة واستقرت هناك، أي على قسم كبير من الجزائر. حول الموضوع أنظر: قزال، إ.، 1930، الجزء الخامس، ص.ص.89-92.

414 قزال، إ.، 1930، الجزء السادس، ص.17.

* المور حسب الرومان والأهالي؛ هم شعب ليبي عظيم وغني، لا يفصلهم عن اسبانيا غير مضيق، وبالرغم أنهم يسكنون منطقة جيدة وخصبة، فأغلب الموريسيين يعيشون وإلى يومنا هذا حياة البداوة، ويضفرون شعورهم ولحاهم، ويلبسون الحلي، ويعتنون بأسنانهم وأظافرهم، كما انهم يحاربون في اغلب الأحيان على جثوة خيولهم وبالرمح دون سروج، ويستعينون أيضا بسيف مقوس.أنظر: Strabon, *Géographie*, XVII, trad. Roget.R, 1924, Paris.

415 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.ص. 195-200.

416 سترابون، II، V.33.

بالماسيليين والماسيسيليين."[417]، وأيا ما كان الأمر، فان الوصف الذي تناقلته المصادر الأدبية عن سكان افرقيا بالرغم من قلة دقتها وشحها أحيانا، وكذلك الشأن ينطبق على النقوش، والنقود، والمباني، فالمعلومات التي تزودنا بها قليلة جدا[418]، ويرجع في دلك لربما لصعوبة التوغل بالعمق الإفريقي مثلما يذكر سترابون:"فإن وعورة مسالكها ترغمنا على أن نكتفي بالتوقعات فقط."[419]

ومها يكن من أمر، فإن المجتمع الإفريقي في تلك الحقبة الزمنية الضاربة في عمق التاريخ تثبت شيئا مهما وهو تشكل مجتمع لا يبتعد كثيرا عن المجتمعات في غيرها من بلاد حوض المتوسط، وهذا التطور تتحدث عنه المصادر من ضمنها كتاب الجغرافية لسترابون:" بتمدين النوميديين، تذوقوا طعم الزراعة، وجعلت منهم جندا منتظمين، بعد ما كانوا قطاع طرق؛ يعشون في بلد ممتاز على جميع الأصعدة".[420]

والواقع يبرز تواجد مجتمع مكتمل الأسس والأركان، وهذا منذ القرن العاشر قبل الميلاد المصاحب لأولى الاتصالات التجارية بين السكان المحليين والبحارة الفينيقيين، مثل ما يذكر الباحث عبد الله العروي أن المجتمع الإفريقي وسط بين "تجار مدنيين ومجتمع زراعي"، وليس بين "الحضارة والبداوة كما قيل" [421]

ب-التغيرات الطارئة على المجتمع الافريقي في كنف السيطرة الرومانية.

تفاقم الوضع الاجتماعي لسكان المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني، نتيجة لعملية المصادرة للأراضي الفلاحية وتحويلها إما إلى ملك للدولة الرومانية (Ager publicus)، أو ملك عام (Ager populi romani) ثم تتحول إلى ملك خاص (Ager privatus) بالشراء في

[417] سترابون، II، V.33.
[418] قزال، إ.، 1930، الجزء الخامس، ص.ص. 27-28.
[419] سترابون، XVII.III. 1.
[420] Strabon, XVII. 3, 15.
[421] العروي، ع. ه.، 1984، ص.96.

المزاد العلني، أو قد تُستأجر، أو قد تُمنح للمواطنين الرومان[422]، ولم يكن هذا الحال مقتصرا على إفريقيا، فكل المناطق المحتلة كانت ترجع بالأساس لملك سيد الأرض الجديد، وقد يخضع جزء منها إما لنظام ضريبي قار (Stipendium) كما كان الحال في هيسبانيا، أو ضريبة عينية شبيه بالعشر من المحصول الفلاحي، والتي كانت متواجدة في صقلية قبل عام 241 ق.م، أي قبل أن تتحول إلى مستعمرة رومانية، فأبقى الرومان على هذا النظام في المناطق المعمول بها ووسعوه إلى أسيا، وأسموه بقانون هيرون (Heron) [423]، ونظام الضرائب الذي أرست قواعده السلطة الرومانية فور قدومها إلى إفريقيا، كان متعدد الأوجه والأشكال فمنها الضريبة الشخصية، أو تلك المتعلقة بالعقار، وكذلك التموينية العسكرية (Annae miletaris)، وضريبة الأداء على التجارة الخارجية، وسُخر الريفيون لجمع الضرائب ونقلها وتعويض ما قد ينقص منها في الطرق.[424]

هذا، ويلاحظ أن التواجد الروماني في إفريقيا قد اثر على بنية المجتمع من خلال فقد المالكيين الحقيقيين لأرضهم ومنحها للمعمرين الرومان، وبذلك تثبت خرافة ازدهار شمال إفريقيا أيام الاحتلال الروماني للمنطقة، وإنما شملت هذه العبارة كبار المالكين والتجار وبعض الجنود الرومان، وبالمقابل نال السكان الأصليين الفقر والتشريد، ففي عهد الإمبراطور ترجان قسمت ارض إفريقيا إلى قسمين الصالح منها يتبع إما للإمبراطور أو قدامى المحاربين والملاك الرومان، والقسم الثاني وهو الأراضي غير الصالحة فقد تركت للسكان المحليين، كما انهارت الروابط القبلية بانقسام المجتمع إلى عدة طبقات[425]، ولم تشمل الفوضى الاجتماعية المستعمرات بل وحتى الميتروبول الروماني في شبه الجزيرة الايطالية ظهرت عليه تداعيات أزمة القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فقط اختفت الطبقة

[422] شارن، ش.، 2002، ص.38.
[423] Michel, H. 2018, *La république romaine et son empire de 509 à 31 av.J.-C.*, Paris, p.184.
[424] عمران، ع. الح.، 2013 ، ص.ص.17-18.
[425] جغلول، ع. ق.، 1982، ص.ص.17-18.

الوسطى ووجدت طبقتين متناحرتين طبقة ثرية من النبلاء انتسبوا لطبقة السيناتورين* وطبقة عاملة مستغلة إلى ابعد الحدود.[426]

ومن جهة أخرى يشير الباحثون على سيطرة واضحة للعنصر الروماني خلال القرن الأول للميلاد، مثلما وجدت ثلاثة أصناف داخل المجتمع الإفريقي خلال البدايات الأولى للعهد الإمبراطوري، متباينة اللغة والتقاليد والعادات[427]، كما لا ننفي نجاح إلى حد ما سياسة الرومنة* على جزء من المجتمع المحلي ونهلهم من الثقافة وطريقة الحياة الرومانية، فقد اندمج البعض منهم مع نظام الرق الروماني فكان منهم الملاكين الكبار والتجار، وأثمرت هذه الطبقة الجديدة بمنح إمبراطورا لروما هو سيفيروس، بالإضافة إلى قاعدة اجتماعية لتطوير الثقافة اللاتينية أمثال فرنتون ابولوس المادوري (Fronton, Apulee de Maudavre)[428]، مما احدث تزاحم واضح بين اللغة اللاتينية من جهة واللغة البونية من جهة أخرى منذ بداية القرن الأول الميلادي، فبرز في تلك الفترة نوابغ من الفكر الإفريقي كتبوا باللغتين ومنهم فرنتون القرطي، مانيلوس وفلوروس انيوس[429]، كما أن بعض الحواضر الأهلية القديمة الموجودة بعمق إفريقيا الشمالية قد تطورت ونمت في الفترة الرومانية مثل تلك الموجودة على حدود نوميديا فقط كقيرطا، تاموسيدا، تبسة، وتيديس، وقد خضع كل صنف من هذه المدن إلى مستوى خاص بها وهي أربع:

---

* بالرغم من تدهور سلطة مجلس الشيوخ إلا أن لقب السيانتو بقي ذو قيمة اجتماعية وسياسية، يحمله النبلاء والإقطاعيون وأصحاب السلطة، وبلغ الأمر إلى لجوء البعض إلى شرائه لما يحمله من ميزات مثل الإعفاء من الخدمة في الجيش آو الخدمات الإلزامية وعدم دفع الضرائب، كما أن هذا اللقب يعطي الحق لحامله بتولي المناصب الحكومية. للمزيد من المعلومات عد إلى: الناصري، أ. ع.، 2016، "تحليل المجتمع الروماني إبان القرنين الرابع والخامس وأسباب سقوط الإمبراطورية"، *مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر، ص.42.

[426] الناصري، أ. ع.، 1991، ص. 483.

[427] المحجوبي، ع.، 2001، ص.139.

* وهي ما يعرف حاليا بالتجنيس إلى حد ما، لكن يختلف عنه في عدة وجوه، وتعني منح الأفراد والجماعات حقوق المواطنة الرومانية، والتي جاء بها قرار عام 212م، بتعميم حق المواطنة الرومانية لجميع أحرار الإمبراطورية من الإمبراطور كاركلا، وقد تضمنت وثيقة باناسا (Banasa) وهي نقش لاتيني عثر عليه بشمال المغرب الأقصى بسيدي علي بوجنون، شروط منح المواطنة والإجراءات الواجب اتخذها. للمزيد من المعلومات أطلع على: الشنيتي، م. ب.، 2012، ص. ص.212-228.

[428] جغلول، ع. ق.، 1982، ص.21.

[429] حفناوي، ب.، 2016، ص.347.

أ- المستوطنات الرومانية: وهي إما من إنشاء الرومان أنفسهم، أو أنها المدن التي شهدت ولوج عدد كبير من المواطنين الرومان، وتتمتع هذه الأخيرة بالاستقلال الإداري، وتطبق بها القوانين الرومانية.

ب- البلديات الرومانية: شبيه بالمستوطنات من حيث المؤسسات المجودة بها.

ج- البلديات اللاتينية: التي تخضع للقانون اللاتيني، وتختلف عن سابقتها كونها اقل اندماجا ورومنة.

د- بلديات الغرباء: اغلب سكانها من الأهالي، وتكون إما تحت وصاية روما بتنصيب مجلس قد يتحول إلى مجلس بلدي من نوع ورماني أو لاتيني، أو قد تكتفي بتزكية احد قادة القبائل وسريان النظام العرفي فيها، ويمكن لها الارتقاء من وضعها المعروف مرورا ببلدية لاتينية ثم رومانية وصولا إلى مستوطنة رومانية بحسب درجة الرومنة والاندماج فيها، أو ما تجنيه روما من مصلحة حيالها[430]، ومع تعميم المواطنة في عهد الانطونيين على مجموع سكان الإمبراطورية الرومانية الأحرار منذ عام 212 م على الأرجح*، وهو ما يلاحظ الأشخاص في عموم النقائش من فقدان انتسابهم الأصلي ، كما تظهر أكثر النصب الجنائزية منعدمة الهوية، وبالتالي يجد الباحث نفسه أمام انعدام لأهم مصدر لتوثيق للحقائق التاريخية وهذا على طول الفترة الممتدة في القرن الثالث للميلاد[431]، كما كرست القوانين الرومانية المتعلقة برومنة الأهالي الذين جلسوا في أدنى الدركات، والتي لم تكن واضحة المعالم من حيث الوجبات والحقوق، فاكتنف الغموض موقف النظم الرومانية من الفئات الاجتماعية في المدن الإفريقية، كما كانت هناك صعوبات وعراقيل تعتري شروط الارتقاء

[430] حارش، م.ه.، 1992، ص.ص.179-181.

* يبدو عدم وجود توافق وإجماع بين الباحثين على سنة تعميم المواطنة على كامل قاطني الإمبراطورية الأحرار دون استثناء من 212م إلى صيف أو خريف سنة 213م حسب سيستون (W. Seston)، وهناك طرح أخر من الباحث ميلار (F.Millar) أن يكون عام 214م في سداسه الثاني هو الأقرب للتوثيق لهذا الحدث في نظره. انظر:

Lassère, J-M., 1977, *Vbique Popvlvs. Peuplement et mouvement de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 a.c.-235 p.c.)*, Paris, p.22

[431] Lassère, J-M., 1977, p.22.

من درجة لأخرى، من اجل نيل المواطنة الرومانية[432]، وبفتح باب المواطنة لغير اللاتين أصبح المجتمع الروماني مجتمعا منفتحا على تراكيب اجتماعية متنوعة في العادات والتقاليد، وظهر تصميم السلطة الرومانية على خلق نموذج موحد يعكس الثقافة الرومانية ويخلص لها.

ومن ضمن تداعيات الوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردي خلال القرن الثالث للميلاد ما يلي:

1-الإضرار بطبقة الأغنياء بالمدن عن طريق الأعباء المالية والمصادرات، وأدائها للخدمات العسكرية.

2-إلحاق الأذى بالطبقتين المتوسطة والدنيا من الفلاحين بسبب الجور والاضطهاد في خضم الأزمة.

3-ظهور أزمة اقتصادية واجتماعية خلال القرن الرابع ميلادي تمثلت في صراع مرير بين الفقراء والأغنياء خاصة بإفريقيا متخذة أشكالا مختلفة.[433]

ولم تقتصر الهيمنة الرومانية على تلك الإجراءات السالفة الذكر من مصادرة أجود الأراضي وإحداث مزارع للجنود المسرحين بل تعدته إلى فرض ضرائب كثيرة أثقلت كاهل الأهالي مثل ضريبة الحياة والرأس والتموين العسكري والجمركة[434]، فكان الحبل يضيق مع مرور الزمن حول أعناق السكان المحليين ويكاد يخنقهم إلى حد الفَنَاء.

ويمكننا أن نستنتج من خلال صفة الاحتلال الروماني بطابعه الاستيطاني، أنه لم يقف عند حد رغبة الأباطرة في سلب أراضي السكان المحليين واستغلالها[435]، بل تعداه إلى

[432] شنيتي، م. ب.، 1982، ص.ص. 84-85.
[433] شنيتي، م. ب.، 2012، ص. ص. 59-60.
[434] غانم، ص. م.، 2010، الجزء الأول، ص.ص. 207- 208.
[435] Lassère, J-M., 1977, p.294.

محاولات تغيير شاملة وكاملة للتركيبة السكانية بفتح باب الهجرة من ايطاليا نحو شمال إفريقيا بعد استفحال الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي ألقت بظلالها على روما خلال العهد الإمبراطوري، فعلى سبيل المثال قد سمحت السلطة الرومانية لثلاث ألاف مستوطن بالاستقرار بإفريقيا الرومانية بعد عام 44 ق.م وحولت خمس موانئها إلى مستوطنات منها هيبو ديارتوس (بنزرت حاليا) (Hippo Diarrhytus)، ونيابوليس (نابل) (Neapolis)[436]، وفي الجانب المقابل طرد السكان الأصليين نحو المناطق الصحراوية، كما أسهم خط الليمس في تفاقم مشاكل الأهالي بزيادة ظاهرة العوز نتيجة للحد من حركة القبائل التي كانت تمارس مهنة الرعي والتي تمثل عماد اقتصاد سكان الشمال الإفريقي كما أتى ذكره فيما سبق.

وفي نفس السياق يذكر الباحث عبد الحميد عمران:"وبعدما اخضع الاستعمار الروماني نوميديا سياسيا بدأ في ضرب مقوماتها الاقتصادية والاجتماعية من خلال تفكيك الوحدة القبلية، وخلق طبقة جديدة تملك الثروة العائدة من الأرض، وصار الانتماء الاجتماعي يقوم على أساس الإنتاج والعامل التجاري، وبدأت تنتشر العبودية من قبل الملاكين الجدد، وهذا التنظيم الطبقي أعطته روما المكانة الأولى على حساب الوحدة القبلية التي كانت تمثل وحدة اقتصادية وسياسية وعسكرية، وتمكنت الطبقة الجديدة المالكة من تمويل الجيش لتحافظ على استمرار سيطرتها ومصالح المجتمع الارستقراطي."[437]، ويعري العروي النظام الروماني بنعته نظاما متسلطا وبعيدا كل البعد عن القيم الإنسانية التي تدعيها الحضارة الرومانية، وهذا ديدن كل استعمار توطن في موطن غيره بقوله:"لكل نظام تعسفي استغلالي ضحايا، وضحايا القهر الروماني هم المغاربة."[438]

والقراءة التي أوردها الباحثان دياكوف وكوفاليف بخصوص الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي ألمت بالإمبراطورية هو أفضل ما نختم به عملنا هذا قولهما:"وهكذا وعلى

---

436 Meynier, G., 2007, p.68.

437 عمران، ع. الح.، 2013 ، ص.ص.11-12.

438 العروي، ع. ه.، 1984، ص.89.

أبواب القرن الثاني الميلادي، قارب "العصر الذهبي" لإمبراطورية الاستعباد بكل وضوح نهايته، واتضحت أكثر رموز الأزمة الاقتصادية والاجتماعية العميقة التي ستسفر عن الانهيار التام للمنهج الذي أسس على ظهر العبيد والعبودية."[439]

[439] دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، الجزء الثاني، ص. 670.

الفصل الخامس

الأزمة الدينية والعقائدية

(أزمة الكنيسة المسيحية)

1-المعتقدات الدينية لدى سكان شمال إفريقيا قبل ظهور المسيحية.

2-انتشار المسيحية بإفريقيا.

3-موقف السلطة الرومانية من انتشار المسيحية بإفريقيا.

4-توظيف روما للمسيحية وموقف الأهالي من ذلك.

أ-اعتناق روما للمسيحية ومحولات التوفيق بين السلطة الزمنية والسلطة السياسية.

ب-الانشقاق الكنسي واضطهاد السلطة للدوناتية.

مثل سقوط قرطاجة عام 146 ق.م منعطفا حاسما في تاريخ شمال إفريقيا، وكان من لواحق هذه الانتكاسة أن استتب الوضع للإمبراطورية الرومانية، وما تبع ذلك من تغيير في التركيبة البشرية والثقافية نتيجة لسياسة الرومنة والتنصير، فاعتناق المسيحية من سكان الشمال الإفريقي يندرج في إطار المقاومة وتعبير عن الرفض لروما الوثنية، فكان هذا الاختيار منشئ لحالة غير مستقرة من تحولات خطيرة واضطهادات عنيفة كان آخرها على يد الإمبراطور ديوكليسيانوس بين ستتي (303–305م)[440]، ويبدوا أن أول ظهور للمسيحية بشمال إفريقيا كان في أواخر القرن الأول الميلادي، واتضحت معالمها بشكل جلي خلال النصف الأخير من القرن الثاني[441]، ولا شك أن هذه الاضطرابات كانت من بين جملة الأسباب المؤدية إلى نهاية العهد الروماني بالشمال الإفريقي، وبالرغم من اعتناق الإمبراطورية للمسيحية ورعايتها لها خلال القرن الرابع للميلاد، منذ حكم قسطنطينوس لتحقيق الوحدة الدينية، لكن ما صاحب هذا الإجراء من انشقاق كبير بين الكنيسة الكاثوليكية التي مثلت روما، والكنيسة الدوناتية التي حملت انشغالات الأهالي وعانت من ملاحقة السلطة الرومانية لها، ادخل المنطقة في دوامة صراعات وصدامات دموية اتخذت أبعادا مختلفة، لم تقتصر على الصفة اللاهوتية فحسب بل تعدته إلى تجليات متعددة[442]، وابلغ تعبير نجده عند بعض الباحثين لوصف الحالة غير المستقرة للتواجد الروماني بالشمال الإفريقي أن حركة التمرد التي اتصفت بها جماعة الدوارين* (Circumcelliones) قولهم

---

440 المبكر، م.، 2001، *شمال إفريقيا القديم حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية 305 م-429 م*، الدار البيضاء، ص.12.

441 حفناوي، ب.، 2016، ص. 380.

442 المبكر، م.، 2001، ص. 13.

* شكل التعريف بجماعة الدواريين (Circumcelliones) نوع من الخلاف والجدل العقيم بين جل المهتمين بالشأن المسيحي، فالكلمة والتي هي من أصل لاتيني مركبة من جزأين: (Circum) بمعنى "دائر حول" والجزء الثاني: (Cella) معناه "مستودع المؤن"، وهذا ما يكفل لهم مصدر للعيش، لكن الباحث لنسال (Lancel) لم يقنعه هذا التصور الذي ذهب إليه البعض، ليصطف مع من يرون في الحركة أنها تمثل أحد أبرز مظاهرالانشقاق الكنسي الإفريقي، لكنها تبقى أحد السمات البارزة للتاريخ المسيحي خلال القرن الرابع والمستمرة إلى بدايات القرن الخامس، كما وظف المصطلح للدلالة على أن جماعة الدواريين هم فئة عاصية وتتشكل من قطاع طرق بدورانهم حول المخازن الرومانية ونهبها، أي بالمختصر هم جماعة من اللصوص. للمزيد من المعلومات عد إلى:

Lancel, S., 1994, « Circoncellions », *E.B*, N 13, France. p.p.1962-1964.

:"هذه الحركات بفضل ضعف وصبغة الاستعمار الروماني الزائلة."[443]، وتتأكد حقيقة تاريخية أخرى أن انتشار المسيحية قد تزامن مع انحلال الإمبراطورية الرومانية[444]، وعلى هذا الأساس أدرجنا هذا الفصل ضمن عملنا لأنه يمثل احد سمات الضعف المستشري في جسد الإمبراطورية، واحد أهم العوامل المساهمة في تراجع سلطة روما ومكانتها بالمنطقة، وبالرغم من استهجان أبناء عصرنا اليوم للشؤون الدينية، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لحياة العالم القديم، لان القضايا الدينية تمثل نسبة تأثير اكبر في حياة الناس آنذاك.

1-المعتقدات الدينية لدى سكان شمال إفريقيا قبل ظهور المسيحية.

اغلب الباحثين حينما يستهلون الحديث عن المعتقدات الدينية الوثنية بالمنطقة يستشعرون صعوبة الدراسة، نظرا لأمرين اثنين هما: قلة المصادر التي تناولت هذا الجانب من الحياة اليومية الأفارقة، بالإضافة إلى تداخل المعلومات وتناقضها، ثانيا كثرت التمازج والاستيعاب في المعتقدات بمنطقة الشمال الإفريقي مما يزيد من صعوبة معرفة ما هو أصلي مما هو أجنبي.[445]

وكغيرهم من شعوب المعمورة عبد سكان شمال إفريقيا مظاهر الطبيعة إيمانا منهم أن هذه الظواهر بها قوة خارقة مليئة بأرواح خيرة وشريرة، مثل الشمس والقمر التي أتت على رأس قائمة المعبودات الليبية قاطبة، وقد قدموا لهما القرابين لإرضائهما[446]، وظهرت عبادة الرياح عند قبيلة الفسليين[447]، كما عبد الليبيون القدامى آلهة مصرية تدعى آمون رع* يرمز

[443] أندري، ب.، أندري، ن.، إيف، ل.، 1960، ص.82.
[444] مونتسكيو، 1748، ص.175.
[445] شنيتي، م. ب.، 2012، ص.305.
[446] Hérodote, IV, CLXXXVIII.
[447] عيساوي، م.، 2010، "المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم (من عصور ما قبل التاريخ إلى عشية الفتح الإسلامي)، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطية، ص.178.
* رع هو معبود إقليم الواحة الغربية ويمثل سيد الآلهة عند المصريين، حتى إن سيد الكهنة المشرف على معبد آمون هو من المرشحين للسلطة في مصر أو هو الملك نفسه، ولإظهار هذه المكانة شيد المصريون له أكبر المعابد كتلك الموجود بالكرنك. للمزيد من المعلومات يرجى العودة إلى: عيساوي، م.، 2010، ص.147.

له بكبش* يحمل قرص شمس[448]، والإلهة إيزيس** (Isis) عند بحيرة تريتونيس وهذا ما يفسر تجنب الليبيون تناول لحم البقر إجلالا لمعبودهم المصري[449]، كما وجدت جعارين بقبر نقش على احدهن إهداء للإله أمون رع برشقون (Rechgoun) غرب مدينة وهران[450]، على أن الممارسات الدينية قد شابها الكثير من أعمال السحر***، وهذا درءا للشر وجلبا للخير[451]، كما لازمت الطقوس الدينية–السحرية عمليات الحرث والبذر وقطعان الماشية واستخدام منتجاتها، وتلك الملازمة للولادة والزواج والجنازة وطرد الشر والحصول على المطر، أي أن العامل الديني حاضر في مناحي الحياة لسكان بلاد الشمال الإفريقي.[452]

ويذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بوجود مجمع آلهة (بانثيون) شبيه بالموجود عند الإغريق أو الرومان ويستدل بنقشين عثر عليهما، الأول ومكتوب عليه اله النوميديين الكبير، من ريبود (Reboud)، والثاني أُكتشف عام 1890 بعين الكبيرة بولاية سطيف

---

* انتشرت بين الأهالي الليبيين عبادة الحيوان ومنها الكبش، وكان من بين القبائل قبيلة النسامون والجرامنت التي عبدت الإله آمون، وجسد في رسومات تمثل رأس الكبش في مقابر القرطاجيين، والملاحظ أن النصوص المتعلقة بعبادة هذا الحيوان متأخرة نسبيا تعود إلى القرن الرابع ميلادي، وتنتشر رسومات التي تدل على الكبش في كامل شمال الإفريقي والصحراء، إلا أن كامبس لا يعتبرها آلهة تعبد بل قرابين تقدم للآلهة. للمزيد من المعلومات انظر إلى: خلفة، ع. الر.، 2008، "الحياة الوثنية المغاربية القديمة (منذ النشأة على سقوط قرطاجة 146 ق.م)"، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطينة، ص.ص.72-74.

[448] شنيتي، م. ب.، 2012، ص. 306.

**إزيس هي أخت وزوجة الإله أوزيريس (Osiris) وهي من الآلهة المصرية، وقد صورت في عدة أشكال منها صورة البقرة، وهي من الآلهة المصرية الكثيرة التي اعتنقها السكان المحليين لبلاد المغرب القديم، ومنها نفتيس (Nephtys)، وأوزريس، وقد وجدت أثار لعبادتها ومنها نقود حملت صورتها سابقة للفترة البونية عثر عليها بجزر بونتيليريا (Pantelleria). للمزيد من التوضيح عد إلى: الربيع، ع.، 2018، "ملامح الفكر الديني الوثني وطقوسه في بلاد المغرب القديم"، *مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية*، العدد 13، باتنة، ص.195.

[449] عيساوي، م.، 2010، ص.178.

[450] بن عبد المؤمن، م.، 2012، "عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم"، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، ص.115.

*** يرى بعض الباحثين على أن السحر أخذ موقع الأسد لدى سكان الشمال الإفريقي ضمن ممارستهم الدينية والدنيوية، ويتجلى ذلك من خلال التمائم والتعويضات والرسوم وعمليات الوشم والنقائش الصخرية، فمثلا الرسوم الصخرية توحي بوجود هذا البعد بحيث يتضح منها صعوبة صيد حيوانات ضخمة كوحيد القرن، وهذا بقصد التحكم فيها برسمها، أو تلفظ بعبارات سحرية، أو يكون استعطاف لها بالاتصال بأرحوها، كما ظهرت رسومات لأناس يحملون أيدي التضرع، وأخرى لرقصات سحرية فردية أو جماعية. للمزيد من الإيضاح عد إلى: خلفة، ع. الر.، 2008، ص.ص.38-63.

[451] أويحي، س.، 2016، "الطقوس السحرية والرسوم الصخرية في شمال إفريقيا"، مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية، الجزائر، ص.387.

[452] قزال، إ.، 1930، الجزء السادس، ص.ص. 108-110.

يحمل عبارة: الإله الوطني المقدس (Deo patrio sacrvm)، من الباحث بول (M. Poule)[453].

مثلما ساد بين الأهالي الاعتقاد بحياة ما بعد الموت، ويتجلى هذا من خلال العناية بدفن الموتى سواء تحت البازينة* أو الدولمن أو الشوشة، وتم تلوين العظام بالمغرة** بعد نزع اللحم، وكان الميت يطرح مطويا في اغلب الأحيان[454]، وفي نفس السياق يتحدث هيرودوت بقوله:" يدفن الليبيون الرحل موتاهم مثل الإغريق: باستثناء الناسامون (Nasamons)، الذين يضعون المحتضر في وضعية الجلوس، وهذا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويتجنبون أن يموت المرء عندهم وهو مدد على ظهره." [455]

إذن عبد الليبيون الجماد والحيوان على حد سواء، إلا أن جوليان يظهر صعوبة تحديد ما هو محلي من المستعار في ذلك، ويذكر آلهة محلية عُبدت بإفريقيا استمرت معهم حتى العهد الروماني، وكانت أفريكا احدهن، يحتمون بها واستمرت حتى القرن الأول قبل الميلاد، ومارس الأفارقة طقوسهم بداخل المغارات أو بالقرب من منابع الماء أو بجنب الأشجار المقدسة أو في اعلي الأماكن[456]، حيث وجد ما يوثق لهذا الاعتقاد بجبل طاية (Taya) (بلدية بوحمدان قالمة) بمغارة الجماعة (Ghar El-Djemaa) لعبادة الإله باكاكس (Bacax)[457]، وشاع بينهم أيضا عبادة الأسلاف وتقديسهم، حيث كان الواحد منهم يضع يده على قبر من اشتهروا باستقامتهم وحسن سلوكهم، ثم يؤدي صلواته، بعدها ينام على

---

[453] حارش، م. ه.، 2013، ص.56.

* بعدما كان الأفارقة يتركون موتاهم في الهواء الطلق تحت سترة الخيام، فضلوا دفنها بعيدة عن التجمعات السكانية، فتحفظ العظام بعد ما تجرد من لحمها في صندوق من صفائح تحت كومة من الصخور ذات شكل مخروطي، أو قد يكون نصفها من رمل أيضا، و يبلغ بعضها 150 متر، تدعى أيضا بالشوشات، وقد تتخذ شكل اسطواني متفرعة عن المصاطب. للمزيد من المعلومات عد إلى: جوليان، ش. أ.، 1931، ص.79.

** المغرة (Ocre) يطلي بها جسم الموتى عند دفنهم، وهي فكرة مستوحاة على الأرجح من جيرانهم المصرية، واللون الأحمر للدلالة على لون الدم، مما يوحي برسوخ فكرة الخلود لدى السكان المحليين، وبالتالي يمكن للميت مواصلة حياته في القبر بتعويض الدم بالمغرة، وعلى هذا الأساس وضعت أواني فخارية ومتاع مع الميت ليستمر في تلك حياة بهناء وسعادة، كما وظفت كذلك لتزيين الرسوم الصخرية، وتلوين الفخار والحلي، وهي ملون طبيعي يستخلص من طين أحمر (أكسيد الحديد). لاطلاع على المعلومة عد إلى: غانم، م. ص.، 2008، *سيرتا النوميدية النشأة والتطور*، عين مليلة، ص.218.

[454] قداش، م.، 1993، ص.32.

[455] Hérodote, IV, CXC.

[456] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.78.

[457] Meynier, G., 2007, p.138.

القبر، وما يشاهده من أحلام وأضغاث يلتزم بتجسيده على ارض الواقع، وبعد الانتهاء من كل ذلك، يقوم من أدوا تلك الطقوس بنقل فيما بينهم المعتقد والإيمان بالشيء المعبود لبعضهم البعض عبر تناول مشروب ما، وإذا تعذر وجود المشروب حملوا التراب ولعقوه[458]، وهذا ما يؤكده كامبس بوجود واستمرارية هذه التقاليد الطقسية والتي لا تزال تمارس خاصة بالمناطق الصحراوية من موريطانيا إلى فزان[459]، وهي طقوس ارتبطت بعمليات التنبؤ بالمستقبل والعرافة[460]، كما يصور غانم مشهدا آخر لتلك الطقوس إذ يراها متعلقة بالخصومات التي تحدث بين الأفارقة ليفصل في القضية بما يتراءى لهم من أحلام فيعتبرونه حكما نهائيا دون أن يكون لأحدهم القدرة على الاعتراض.[461]

وقد ألقت المصادر الأدبية الضوء على معبودات الليبيين قبل التأثيرات الخارجية، مثل عبادة الصخور المستديرة أو المدببة[462]، الموجودة بالقطار (El-Gettar) (جنوب شرق قفصه التونسية) التي تعود إلى فترة الباليوثي[463]، كما كانت مصادر الخصب كالماء مثلا تلقى كل التقديس منهم، ولعل عبادة الحيوان إنما هي من باب قوة التوالد والتحمل، كالثور والكبش، والأسد الذي يظهر في ضريح الرومية، وكذلك بمعبد دوقة[464]، ولا بد هنا أن نذكر الامتزاج الديني الذي صاحب عمليات توافد الهجرات البشرية على المنطقة، ومنها استقرار واستيطان العنصر الفينيقي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بإقامة أولا المستوطنات الموانئ والمحطات التجارية من لبدة الكبرى شرقا إلى شبه جزيرة الصويرة بالمغرب الأقصى غربا[465]، ومن الآلهة المعبودة نذكر تانيت (Tanit) وبعل حامون (Baal-Hamon)*، حيث

---

[458] Hérodote, IV, CLXXII.

[459] كامبس، غ.، 1960، ص.30.

[460] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.79.

[461] غانم، م. ص.، 2008، ص.217.

[462] مهران، م. ب.، 1990، *المغرب القديم*، الإسكندرية، ص. 204.

[463] Meynier, G., 2007, p.138.

[464] مهران، م. ب.، 1990، ص.205.

[465] عمران، ع. الح.، 2018، *الرومنة والتدين في شمال إفريقيا*، الجزائر، ص.50.

* ترجع الدراسات التاريخية بحسب الأبحاث، على أن الإلهين"تانيت" و"بعل-حامون" هما من أصول محلية، فالنصوص الهيروغليفية تتحدث عن عبادة المصريين لآلهة اسمها "نيت تحنو" بمعني "نيت الليبية"، وكذالك بالنسبة "لبعل-حامون"، فأمون وحامون هو اله واحد، وأمون هو الإله المعبود عند المحليين، وكان يرمز إلى الكبش، فقام القرطاجيون بتبني

وجدت عبادتهما بالمنطقة أرضا خصبة مثلما يشهد على ذلك معبد الحفرة*[466]، وانتشرت بين صفوف الأفارقة بشكل يثير التساؤل والاستغراب، مما يحيل الأمر إلى الظن دون اليقين بوجود جذور محلية[467]، وبقيت على حالها تُعبد وتلقى كل التقديس من سكان شمال إفريقيا حتى في الفترة الرومانية كذلك، لكن تحت مسميات أخرى، فبالنسبة لبعل آمون قابله اسم ستورنوس (Saturnus) وأبولون أو جوبتر (Jupiter)، أما تانيت فكايليستيس أو أفريكا[468]، وهذا ما يمثل قدرة استيعاب الوعاء الديني المحلي للديانة الوافدة عليه، ومنها الإله جوبتر الروماني مع اله الأهالي ستورنوس[469]، حيث وجدت اهداءات بمعية الإله ستورنوس للمكانة التي حضي بها بين الأهالي، كتلك الموجودة بعين زانة** (ولاية سوق أهراس) (Diana Veteranorum) بالصيغة اللاتينية التالية:(Deo frugum Saturnus frugifero Augustus)[470]، كما ابقي بعض الوثنيين شعيرة تقديم القرابين البشرية له، رغم

هذين الإلهين، بدل من الآلهة "ملقرت" و"عشترت" بسبب انهزامهم في معركة "هيميرا" عام 480 ق.م. للمزيد من المعلومات ينظر: حارش، م. هـ.، 2013، ص.57-62.

غانم، م. ص.، 2006، *المملكة النوميدية و الحضارة البونية*، عين مليلة، ص ص.160-162.

* يوجد معبد الحفرة بالقرب من مدينة قسنطينة، بين سطيف ومطار عين الباي، حدثت تنقيبات في ما بين (1875-1950م) كشفت عن ألف نقش تمثل نصب إهدائية، مثلت تسعة منها نصب ذات قيمة تاريخية لما تحمله من تواريخ مضبوطة عن تلك الحقبة، بالإضافة إلى ما زودتنا به من معلومات عن الحرف المنتشرة بكرتن آنذاك. للمزيد من التوضيح عد إلى: حارش، م. ه.، 2013، ص.15.

466 Decret, F., Fantar, M., 1981, *L'Afrique du nord dans l'antiquité. Histoire et civilisation (des origines au V siècle)*, Paris, p.112.

467 حارش، م. ه.، 2013، ص.13.

468 حارش، م. ه.، 1992، ص.146.

469 Le Glay, M., 2006, « Le paganisme en Numidie et dans les Maurétanies sous l'empire romain », *Ant.Afr*, Paris, p.59.

** كانت زانة عاصمة منطقة الزاب، تدعى حاليا بخربة زانة، تتواجد بسهل بلاد زيبدجة، على منحدر بين مصتنقع مرجتة زانة بالشمال وجبل تيفران (Tifrene)، المدينة تظهر بثلاث مصادر منها لوحة بوتينقر (Table de Peutinger)، وعند الباحثين العرب تظهر بثلاث تسميات ربما تكون مناطق غير التي نحن بصدد الحديث عنها، ومنها البكري (القرن السادس الميلادي) يوظف تسمية أدنة (Adna)، واليعقوبي (القرن العاشر) نجده يوظف اسم أدانة (Adana)، أما ابن خلدون فأدهانة (Adhana)، وابن الأثير أربة (Arba)، ويرجع هذا الاختلاف حسب ظن كونبوزات (P.L.Cambuzat) إلى خلو العربية آنذاك من التنقيط والحركات، ويعتقد أنها اختفت في حوالي القرن العاشر ميلادي، فالبكري يورد على أن المدينة تعرضت للخراب في عام 935م على يد علي بن حمدون الأندلسي حاكم الزاب وحليف الفاطميين. للمزيد من الإيضاح يرجى العودة إلى: Gsell, S., Graillot, H., 1894, « Exploration dans le département de Constantin (Algerie).-Ruines romaines au nord des monts de Batna », *M.A.H*, T.14, p.p.501-609.

470 Basset, R., 1910, *Recherches sur la religion des berbères*, Paris, p.4.

تشديد هادريانوس بعدم ممارستها، وهذا خوفا من سخط إلههم نظرا لتوقفهم عن ذلك، والتي استمرت حتى منصف القرن الرابع الميلادي.[471]

بالإضافة إلى ما ذكر من تأثيرات القرطاجيين في جانب الآلهة المعبودة، اتبع الليبيون كيفيات عملية دفن الموتى كتلك الموجودة عند الفينيقيين من حرق للجثث وحفظ رمادها بجرار، منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وهو ما عثر عليه فعلا بصومعة الخروب(La Souma du Khroub) وكذلك صلامبو في قرطاجة[472]، وقد وجد لها امتداد عند الإغريق كذلك[473]، ولربما هذا يدخل في نطاق التأثيرات بين حضارات حوض البحر المتوسط، وغانم لا يستبعد على أنها ناتجة من امتزاج ديني فينيقي–ليبي.[474]

وتجلت تأثيرات الغير فيما كان عليه الأفارقة، مثل طريقة تنظيم الحوانيت* التي لها امتداد بالبحر الإيجي، وحتى ديانة قرطاجة قد خضعت هي الأخرى لتأثيرات خارجية، فقد وجدت تمائم مصرية بقبورهم، بالإضافة إلى بعض المعبودات كالآلهة الإغريقية أفروديت (Aphrodite) حيث تجلت كمعبود لهم بصقلية[475]، وتبقى المعتقدات المحلية هي الأصل في كل هذا التمازج الذي شهده الشمال الإفريقي بين المعتقدات الليبية والوافدة.[476]

والظاهر أن الخريطة الدينية بشمال إفريقيا قد أصبحت متعددة المشارب والاتجاهات وبالتالي امتازت بالتعقيد والتداخل، فبالإضافة إلى المعتقدات الوثنية المحلية والرومانية تعايشت معها ديانة بونيقية شرقية انتشرت بين أوساط اجتماعية دنيا، لكن الكل يلتقي عند

---

471 بن عبد المؤمن، م.، 2013، *مدينة بورتوس ماغنوس -بطيوة- دراسة في تاريخها القديم*، وهران، ص.ص.99-100.

472 غانم، م. ص.، 2006، ص.ص. 30-31.

473 جوليان، ش.، أ.، 1959، ص. 79.

474 غانم، م. ص.،2008، ص.220.

***** الحوانيت هي قبور مربعة الشكل، ومحفورة في الصخر، ولها مدخل يشبه المسكن، وهي ذات مساحة محدودة، حيث يضع الأفارقة موتاهم ويعتقد أن تاريخها يرجع إلى الألف الأولى قبل الميلاد. لاطلاع على الموضوع ارجع إلى: جوليان، ش.، أ.، 1931، ص.79.

475 جوليان، ش.، أ.، 1959، ص.ص.79-80- 124.

476 الربيع، ع.، 2018، ص.202.

فكرة واحدة هي التسليم لإله واحد اكبر من غيره، ولربما هذا ما يفسر انتشار المسيحية بين أوساط المجتمع الإفريقي.[477]

2-انتشار المسيحية بإفريقيا.

مر اعتناق المسيحية ورسوا الكنيسة* بأرض إفريقيا بعدة مراحل، فلما انتشرت المسيحية خلال القرون الثلاث الأولى للميلاد، كانت روما لا تزال تتخبط في وثنيتها، ولعلنا أمام رد فعل للتواجد الروماني بالشمال الإفريقي باعتناق الدين الجديد الذي يحمل معاني العدل والمساواة وحفظ كرامة البشر، فكان ملاذا من جور وسخط السلطة بروما إلى رحمة وعدل الدين المسيحي، مثلما أظهره معتنقوه من تسامح في التعامل والعفو والصفح حتى عن الأعداد كقول ترتيليانوس** (Quintus Septimius Florens Tertullianus) :"نحن مجبرون بحسب ما هو مطلوب منا أن نحب أعدائنا، وان لا نبادلهم بالمثل في المعاملات."[478]، وهي مستقاة من وصايا السيد المسيح بتجنب تعدد الآلهة وحمل القيم الإنسانية من محبة

---

[477] العود، م. الص.، 2010، ص.40.

* الكنيسة كما هو معلوم أنها مكان العبادة عند المسيحيين، كما هو الجامع عند المسلمين، وتعني كلمة الكنيسة حسب اللغة اليونانية التي أُخذت منها (إكليزيا) أي مجلس الجماعة، ووظفت اللفظة للدالة على نفر من المنتسبين للدين المسيحي، ويدير شؤونها رجل دين يدعى أسقفا، وحدثت تغيرات على موظفيها مع مرور الزمن، كما برز للوجود رجال دين بمراتب وأسماء ككبير الأساقفة والبطرياركك. إن أردت الاطلاع على المعلومة عد إلى: عمران، ع. الح.، 2011، "حركة التنصير الديني في شمال إفريقيا خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين"، *مجلة دراسات تاريخية*، العددان 115 و 116، ص.194.

** ترتيليانوس من مواليد مدينة قرطاجة عام 160م، وهو ابن أحد قادة المائة للجيش الروماني، استطاع ترتليانوس أن يستفيد من الإشعاع العلمي الذي كانت تشهده قرطاجة، فتلقى بذلك أفضل تكوين وخاصة في مجالات الأدب، ودرس بعمق الشعر الإغريقي واللاتيني بالإضافة إلى الفلسفة والتاريخ، كما اظهر إهتمامه بالقانون الروماني، بقي ترتليانوس وثنيا إلى سن متقدم من عمره، وقدعرف بإستهتاره من المسيحيين الجدد، لكن مع ازدياد عددهم في إفريقيا وصمودهم أمام همجية روما الوثنية، لم يسع ترتليانوس إلا أن يعجب بالدين الجديد، ومن ثم اعتنقه ودافع عنه، وهو ما يبديه بقوله:"كنت أعمى، بدون نور الله، ولا يوجهني في ذلك إلا الطبيعة"، ترك عدة مؤلفات منها الدفاع والمنافحة التي امتازت بالمستوى الرفيع وعكست مستواه الثقافي، وكذلك مثلت مؤلفاته صورة صادقة عن الحالة الاجتماعية في قرطاجة، وكانت ثلاثة منها باللغة الإغريقية وثمان وعشرون باللاتينية، ومنها (Ad nationes) و(Ad martyres) التي أشاد فيها بالشهداء المسيحيين و(Apologeticum) و(Ad scapulam) في الرد على اتهامات المسيحيين، و(De spectaculis) في النهي عن حضور الألعاب (Ludi)، و(Adversus Iudaeos) التي يتهم فيه اليهود بالتحريض على المسيحيين، ابتدع مذهبا حمل اسمه وتوفي عام 225م. للمزيد عد إلى: Tertullien, *Apologétique*, préface. Trad. J.P.Waltwing, 1914, Paris.

المحجوبي، ع.، 2001، *ولاية إفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السويري (146 ق.م-235 م)*، تونس، ص.157.

قزال، إ.، 1913، ص.ص.271-272.

عمران، ع. الح.، 2018، ص.85

[478] Tertullien, XXXVII.1.

الآخرين وهذا ما أتي ذكره في إنجيل مرقس، أن يهودي سأل المسيح عن:"أية وصية أول الكل؟ فأجابه يسوع: أن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، وهذه هي الوصية الأولى. والثانية مثلها وهي: تحب قريبك كنفسك. ليس أخرى أعظم من هاتين."[479]

وكان الفضل الكبير في تسهيل انتشار المسيحية بإفريقيا، وجود ديانات شرقية آمنت باله واحد تمثل في بعل آمون القرطاجي[480]، كما لابد أن نتطرق لحقيقة تاريخية مفادها أن من ساعد على نشر المسيحية بالشمال الإفريقي هم اليهود، وقد وظفت اليونانية كلغة رسمية في الشعائر الدينية، ثم استعملت اللغة اللاتينية بداية من القرن الثاني[481]، والواقع الذي تنطوي عليه دراسة أصول انبثاق المسيحية، أن منبعها في الحقيقة الديانة اليهودية، لكنها" أبانت عن خصوصيتها" فيما بعد فيما يذكره شارل جنيبر (Charles Janibar) في مؤلفه "المسيحية نشأتها وتطورها".[482]

وقد ذهب الكثير من المؤرخين أن سنة 180م هي بداية الانطلاقة الحقيقة في التاريخ المسيحي بشمال إفريقيا[483]، ومنهم بنجامين ستورا (Benjamin Stora) الذي يؤكد أن المسيحية قد حطت رحالها بإفريقيا ابتداء من القرن الثاني الميلادي، انطلاقا من قرطاجة (انظر الصورة رقم: 7 ص.152.) نحو باقي مناطق تواجد البربر والنوميد، متخذتا شكلا من أشكال المقاومة ضد التواجد الروماني[484]، غير أن الشواهد المادية والأدلة الكتابية غير موجودة للدلالة على ذلك، نتيجة الاضطهاد والملاحقات من السلطة فتبنى المسيحيون الجدد

---

479 رستم، أ.، 1997، *الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألهوية المسيح كما ينفيها القران*، لاهور، ص.23.
480 بن عبد المؤمن، م.، 2012، ص.106.
481 حفناوي، ب.، *الترجمة النقدية التأويلية ترجمة الكتب المقدسة*، مصر، ص.200.
482 شارل، ج.، 2005، *المسيحية نشأتها وتطورها"*، ترجمة. عبد الحليم محمود، 2008، بيروت، ص.25.
483 عمران، ع. الح.، 2018، ص.85.
484 Stora, B., Ellyas, A., 1999, « Chrétiens d'Afrique du nord (Maghreb) », *Les 100 portes du Maghreb*, Saint-Malo, p.116.

السرية التامة[485]، على أن الأمر في بدايته كان قد حصل بفضل التجار في نقل المسيحية من منبعها في فلسطين إلى سواحل إفريقيا[486]، كما وقف الباحثون في الشأن المسيحي على حقيقة تاريخية ملفتة للنظر، أن المؤلفات المتعلقة باللاهوت والمدونة باللاتينية لم تكتب لا بايطاليا ولا بغالة ولا هسبانيا ولا بأوروبا قاطبة، بل منشؤها الحقيقي بقرطاجة الإفريقية[487]، ومن قرطاجة انتشرت المسيحية بشكل سريع في باقي المقاطعات، ولم يكد يهل العام 200 م حتى انتعشت الديانة المسيحية انتعاشا غير مسبوق[488]، كما يؤكد ترتيليانوس أن المسيحية لم تقتصر على أماكن محدودة في الشمال الإفريقي بل انتشرت انتشار النار في الهشيم، وهذا لعمري للأسباب الواردة أعلاه، إذ يقول :"نحن حديثي النشأة أي أبناء الأمس فقط، لكن ملأنا الأرض حتى ما تمتلكونه من مدن، المواقع المحصنة، البلديات، القرى، المعسكرات في حد ذاتها، القبائل، الإسطبلات، القصر، مقر النواب، المنتدى، لم نترك لكم سوى المعابد."[489]، إذن مسيحيو إفريقيا كانوا على درجة من الكثرة التي تستدعي معها الاندهاش، فلم تخلو طبقة من المجتمع ومهنة إلا ووجد فيها عدد معتبر من المسيحيين[490]، وهذا التوجه الجديد الذي سلكه سكان الشمال الإفريقي بلهف كبير نحو اعتناق المسيحية يثير الاستغراب والتساؤل، ولربما الإجابة قد أظهرها كل من أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاكوست بالتأكيد على هذه الظاهرة الملفتة للنظر قولهم:"أغرى الدين المسيحي جزء من السكان بسرعة فإن انتشاره من القرن الثاني إلى مطلع القرن الرابع وهي فترة قد اضطهد فيها. قد يفسر في وزن كبير بعداوة السكان للهيمنة الرومانية."[491]

---

485 عمران، ع. الح.، 2011، ص.165.

486 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.321.

487 Tessier, H., 2003, « Les racines africaines du christianisme latin », *Institut d'études augustiniennes*, Paris. P.78.

488 Ferrère, F., 1897, p.11.

489 Tertullien, XXXVII. 4.

490 Mahjoubi, A., 2010, « La période romaine et post-romaine en Afrique du nord », Histoire générale de l'Afrique, II. *Afrique ancienne*, Paris, p.537.

491 برنيان، أ.، نوشي، أ.، لاكوست، إ.، 1984، ص.ص.80-81.

الصورة رقم: 7– **بقايا أثرية لكاتدرائية مسيحية في قرطاجة.**

Tessier, H., 2003, p.75.

ولقد كان حظ إفريقيا من المسيحية أكثر من غيرها من المناطق الأخرى، فمثلا خلال عام 220م جمع المجمع (Concilium) الكنسي في قرطاجة 71 أسقفا (Episcopus)، وخلال عام 240م ارتفع العدد إلى 90[492]، وكان هذا التطور في ارتفاع لعدد الأساقفة دليل على النمو الذي ستشهده المسيحية في إفريقيا وخاصة بعد موت سيبتيموس سيفيروس وأمكن للأساقفة الاجتماع في المجامع[493]، ولمعت أسماء أفارقة أسهموا في المسيحية أمثال ترتيليانوس بمؤلفاته، والقديس كبريانوس كمسير لأقدم مجمع كنسي إفريقي بقرطاجة

[492] Mahjoubi, A., 2010, p.537.

[493] جوليان، ش.، أ.، 1959، ص.279.

خريف عام 256 م، وأسقف هيبو ريجيوس (Hippo Regius) (عنابة) بتأثيره البالغ وغزارة إنتاجه وهو القديس أوغسطينوس* (Augustinus Sanctus)[494]، ونجد أثار هذا التطور المتسارع في نمو المسيحية في الشمال الإفريقي من خلال كتابات المهتمين بالشأن الروماني أمثال إدوارد جيبون قوله :"وسرعان ما أصبح المسيحيون الإفريقيون احد الأعضاء الرئيسية في الكنيسة الأولى، وساعد التقليد الذي ادخل في هذه الولاية–افريقية–وهو تعيين الأساقفة في اصغر المدن وأحقر القرى."[495]، وحسب الدراسات التاريخية حول الأسقفيات والآثار المتعلقة بانتشار المسيحية بإفريقيا وبالأخص نوميديا (الجزائر) وافريقية (تونس)، تتضح النتيجة التالية: أن السكان المحليين من بربر وفينيقيين، لم يتنصروا إلا بقدر رومنتهم، لأن اللاتينية هي اللغة الوحيدة الكفيلة آنذاك بنقل مواعظ وإرشادات العهد الجديد.[496]

ومن نافلة القول، يتضح أن الامتعاض الذي بدا لدى عامة الناس من سكان شمال إفريقيا هو من سيحرك فيهم بوادر السخط والصد لكل ما هو روماني بما فيه الجانب الديني، ولعل أهم هذه العوامل ما لحق السكان من عوز وفقر نتيجة سياسة روما الاستغلالية، بالإضافة إلى التمييز الطبقي الذي عانى منه الأهالي طوال فترة التواجد

* ولد اوروليوس أوغسطينوس (Aurelius Augustianus) بمدينة تاغست (Thagast) في 14 أكتوبر من عام 354م، من أسرة متوسطة الحال، كانت أمه مونيكا (Monica) مسيحية لكن والده باتريسيوس (Patricius) وثنيا، إشتغل كمجند بالجيش الروماني، ثم انتقل إلى مداوروش (Mdaourouch) لاستكمال الدراسة بعدما تلقى المبادئ الأولى بمسقط رأسه، ثم منها إلى قرطاجة، وبعدها إلى روما حيث سيتأثر بالثقافتين الإغريقية واللاتينية، فينكب على دراسة شعر هوميروس (Homères) ويتأثر بالخطيب شيشرون (Cicéron)، اعتنق في البدء المانوية ثم المسيحية في 24 ابريل 387م وهو ابن الثانية والثلاثون، عين بمدينة هيبون أولا عرافا ثم رُقي إلى منصب أسقف خلفا لفاليريوس (Valerius)، وقد عرف بعدائعه الشديد للدوناتية وكل المبتدعين، كان مساره زاخرا بالتأليف، ومن أشهر ما كتب الاعترافات ومدينة الله، كما له عدد من المقالات، وكان يدير دوما مرافعات ومجادلات مع خصومه، مات عام 430م يوم 28 من شهر أوت. لاطلاع على الموضوع انظر:

أوغسطينوس، *في شرح الموعظة على الجبل*، مرجعة وتقديم بيشوي كامل، 1962، الإسكندرية، ص.ص.8-37.

جوليان، ش.، أ.، 1931، ص.ص. 304-305 .

عمران، ع. الح.، "القديس أوغسطين وصراعه مع الدوناتيين"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المسيلة، ص.104.

494 المبكر، م.، 2001، ص. 11.

495 جيبون، إ.، 1828، الجزء الأول، ص.280.

496 Bévia, J., 1913, *Le christianisme en Afrique. Origine, développement, extension*, Paris, p.633.

الروماني ومن ضمنها تحويل جزء كبير من ملاك الأراضي إلى عبيد مثل ما حدث في عهد نيرون[497]، وبالرغم من فسحة الأمل التي أبدتها روما اتجاه ديانات السكان المحليين، إلا أن افقها كان ضيقا اتجاه المسيحية التي تعالت أصواتها بالمساواة بين جميع البشر وبالتالي محاربة النمط الاجتماعي الروماني القائم على الاستعباد، وكذلك كل أشكال الإذعان والخنوع والتأليه لشخص الإمبراطور الذي بموته ينقل إلى مصاف التقديس*، وبناء على ما سبق أبدى المسيحيون الجدد عدم رغبتهم في أداء الخدمة العسكرية[498]، فلم يكن العداء الذي أظهرته السلطة الرومانية اتجاه المسيحية لان الرومان في الأصل اشتهروا بتعدد الديانات والآلهة وأكثر من ذلك فلقد ابدوا تسامحا لا نظير له مع ديانات الشعوب المحتلة[499]، إنما جاء هذا الاضطهاد نتيجة عدة عوامل منها التي ذكرت سلفا ونظيف إليها اجتناب المشاركة أو حتى المشاهدة للاحتفالات الدينية باعتبارها مناقضة للحياة الروحية التي يجب أن يكون عليها المسيحي، بالإضافة على أنها شرك ووثنية[500]، ولم تكن هذه الإجراءات العقابية خاصة بالمسيحيين كونهم كذلك إنما لما سبق ذكره، ودليل ذلك ما حصل أيضا مع اليهود في فترات سابقة، حيث كان اليهود يمتنعون عن تقديم الأضاحي والقرابين للإمبراطور، كما ساد الاعتقاد عند الرومان ومنهم الإمبراطور تيتوس (Titus Flavius Caesar Vespasianus) أن المسيحية قد خرجت من عباءة اليهودية وإنما هي إحدى هرطقاتها وإذا تم القضاء على اليهودية ستجتث المسيحية من جذورها، فأقبل عام 70م على تدمير معبدهم في أورشليم وانشأ صندوق للضريبة خاص باليهود عرف بـ(Fiscus

---

497 عمران، ع. الح.، 2018، ص.ص. 105- 112..

***** لم تكن عبادة الأباطرة أو البشر وليدة الإمبراطورية الرومانية، بل تأصل هذا المعتقد من قبل عند الإغريق فقد ساد الإيمان بإمكانية تحول البشر إلى آلهة، لأن درجة التقديس هي أعلى درجات الوجود، ويتكسب البشر هذه الصفة بعد انتقالهم إلى عالم الأموات حيث ينفصل عن الجسد جني (Genius) يكون هو محل التعبد والتبجيل، فقد عند الإغريق تقديس الأبطال، كما ظهر كذلك تقديس الأسلاف، فكل عائلة كان لها ألهتها، وحتى المدن كان لها مثل ذلك، فكل من ساهم في إنشاء مدينة أو طور من مبانيها أو اقتصادها أو دافع عنها يحضى بالتقديس من سكانها، فلقد كان ثيسيوس (Thésée) وروميلوس مبجلان بروما، وأول الأباطرة الذي حضي بهذا التقديس هو يوليوس قيصر. للمزيد من المعلومات ارجع إلى:

Bloch, G., 1922, p.p.38-40.

498 Mercier, E., 1888, Tome I, p.111.

499 Humm, M., 2018, *La république romaine et son empire de 509 à 31 av.J.-C.*, Paris, p.22.

500 النويهي، ن.، "مرسوم ميلان 313 م"، *مجلة نصوص تاريخية*، مصر، ص.4.

Judaiicus) جمعت هذه الضرائب بطريقة جد قاسية، وهذا كردوفعل على ثورة جوديا (Judaca)، وبقيت هذه المعاناة لليهود في عهد أخ تيتوس الإمبراطور الحادي عشر دوميتيانوس* (81–96م) (Titus Flavius Domitianus)[501]، فنجد المسيحيون أنفسهم يعتبرون العهد الجديد هو تتمة لما جاء به العهد القديم الذي أتى بوصايا اقل وان إله اليهود والمسيحيين إنما هو اله واحد، ومنهم القديس أوغسطينوس نفسه في مؤلفه شرح الموعظة على الجبل قوله:"لو سئلنا ماذا يعني بالجبل، فحسنا نفهم أنه يقصد وصايا البر العظيمة، لأن هناك وصايا أقل لليهود، مع هذا فهو اله واحد، تكلم في القديم بواسطة أنبيائه وخدامه القديسين معلنا الوصايا الأقل لشعب يعرف الله عن طريق الخوف، ولكن الذي يوزع الأزمنة بترتيب كامل، أعطى بواسطة إبنه الوصايا العظمى لشعب قد تهيأ للتحرر بالمحبة."[502]، حتى وان تقبل الرومان الديانة اليهودية في البدء وأعطوهم ضمانات وتكفلوا بحمايتها وهذا أيام عهد يوليوس قيصر، لدرجة أن سمح لهم بضرب عملة خاصة بهم، لا تحمل صورة الإمبراطور، لكن بالمقابل تصرف اليهود بالنكران وتوجهت تصرفاتهم نحو الانعزال والتعصب ومحاولات الانفصال، إلى أن وصل كاليجولا للحكم عام 37م وأمر بإظهار الإذعان لشخصه ووضع تمثال في الهيكل، إلا أن الخلاف انتهى بموته، وثاروا مرة ثانية عامي 115–116م، فووجهت من طرف الإمبراطور هادريانوس بقوة وأغلظ عليهم الوثاق ومنعهم من أداء طقوسهم وفرض عليهم ضريبة[503]، ولعل التصور الذي ترسخ لدى عامة الرومان الذين لم يتخلوا عن تراثهم الديني الإغريقي–الروماني التقليدي، من أعلى الهرم السلطوي إلى ابسط مواطن، أن المسيحية ما هي إلا امتداد لليهودية وبالتالي استدعت كل

* ولد دوميتيانوس يوم 24 أكتوبر من عام 51م بأحد ضواحي روما، حيث سيشهد تشيد قصر أسرة الفلافيين، وهو ما عرف بالمنطقة السادسة تحت اسم (Malum Punicum)، كان حينها والده فاسبسيانوس قد حصل منصب قنصل، ماتت والدته دوميتيا (Domitilla) وهو لا يزال طفلا، لذا سيتعرض دوميتيانوس للإهمال نتيجة انشغال والده بعمله الذي استدعى منه أحينا ابتعاده عن البيت الأسري، وحتى أخاه الأكبر تيتوس سيترك البيت ليعيش في القصر ثم بمخيمات الجند، تقلد دوميتيانوس عدة مناصب إلى أن بلغ منصب إمبراطور عام 81م، وكان أخر حاكم أسرة الفلافيين. للمزيد من المعلومات انظر: Gsell, S., 1893, « Essai sur le règne de l'empereur Domitien », These de doctorat, faculté des lettres de Paris, p.p.3, 15.

[501] عبد الغني، م. الس. م.، 1997، *أضواء على المسيحية المبكرة*، مصر، ص.ص. 13-15.

[502] أوغسطينوس، I.2.

[503] الحويري، م. م.، 1995، ص.ص. 55-57.

التوجس والازدراء الواجبين اتجاهها، وهو ما تطلب في نظرهم رد فعل عنيف اتجاه المسيحيين في فترات متقطعة، كتلك الواقعة في عهد ماركوس اوريليوس وترجان، وفاليريوس وهذا إلى غاية القرن الرابع للميلاد[504]، إذا في نظر الكثير من الرومان المسيحي ما هو إلا يهودي سيضر بالصالح العام، فقد هلك جزء كبير من المسيحيين تحت هذا الطائل، لذلك أقدم الإمبراطور دوميتيانوس بإعدام كل من تنصر بدعوة التهويد (Judaïser)[505]، ونُذَكر هنا أن أولى المناطق التي احتضنت المسيحية وانطلقت منها إلى ما تبقى من أرجاء البلاد سواء في إفريقيا أو غيرها من العالم الروماني هي الكنيس والمجمعات اليهودية.[506]

وعلى غرار كل الملل والنحل فقد تفرقت المسيحية إلى مذاهب وشيع، وفقا للتأويلات وتفسيرات الإنجيل بعد ما طرأت عليه عدة ترجمات، ولم تبقى على الصفاء الذي أراده يسوع المسيح، فانتشرت في افريقية المنتانوسية* والماريسيونية**، والمانوسية***، والاريوسية****، والدوناتوسية[507]، فمثلت وبحق ثورة فكرية اجتماعية لمناهضة الإمبراطورية

---

504 Bertrand, L., 1992, *L'état romain quatorze siècles de modèles politique,* Paris, p.p. 68-69.
505 Duruy, V., 1890, p..411
506 Albertini, E., 1937, p.106.

* انتشرت المنتانوسية بين مسيحي ايطاليا وإفريقيا ومنهم تارتيليانوس نفسه الذي اعتنقها عام 200م، وبات هذا الأخيرمن اشد المدافعين والمتمسكين بالمنتانوسية ، لكنه ما لبث أن تخلى عنها واعتناق المسيحية، للمزيد من المعلومات عد إلى: حفناوي، ب، ص.204.

** تنسب الماريسيونية إلى مؤسسها مارسيون الذي ظهر في حوالي العام 144م كرجل مبتدع في الدين المسيحي، إذ أنكر اله العهد القديم واصفا إياه بالقسوة، ونكران كل أسفاره، وأعترف فقط بإنجيل لوقا وعشر رسائل لبولس، كما ادعى بالثنائية الإلهية، اله الخير وهو الإله الجديد واله الشر الذي تمثله التوراة وذكره العهد العتيق، وقد مارسيون استطاع أن يقنع الكثير باتباع مذهبه، ويعتقد أصحاب هذه الفرقة أن المسيح دخل جهنم ونجى منها أرواح الأشرار مثل قوم لوط وقابيل، وترك للنار الصلحاء كنوح وإبراهيم. للمزيد من الاطلاع انظر: الكيرانوي، بن خ. الر.، 1989، *إظهار الحق*، الجزء الثالث، السعودية، ص.926.

*** سميت المانوسية نسبة لمؤسسها ماني (21-276 م)، والذي ادعى النبوة وسمى نفسه بالملهم وخاتم الأنبياء والرسل، ظهرت المانوسية خلال العام 240م كديانة جديدة، وهي مزيج من المسيحية والبوذية والمزدكية، كما ادعى أصحابها أنها أقدم عهدا من الزرادشتية والبوذية والمسيحية نفسها، وقد أنشرت بشكل واسع خلال القرنين الرابع والخامس الميلادين، فقد بلغت إلى جانب إفريقيا مصر واليونان والأنضول، بالاضافة الى فلسطين ومصر وبلاد الغال وهيسبانيا وحتى روما، ومن بين الذين استهوتهم المانوية القديس أوغسطينوس الذي انخرط فيها لمدة تسع سنوات كاملة. للمزيد من الاطلاع انظر: زموري، خ.، 2018، ص.ص. 80- 85.

**** الاريوسية نسبة إلى مؤسسها أريوس (Arius)، المولود بقورينة خلال القرن الثالث الميلادي، كان رجلا زاهدا، واعتبر المسيح انه نبي من أنبياء الله، وكان مسيحيا موحدا لا يؤمن بالتثليث، لذا سيلقى معارضة شديدة من الكنيسة الكاثوليكية وغيرها من المذاهب المعددة، وقد تعرض الاريوسيين للتنكيل والمضايقة، ولهذا يمكننا القول أن الاوريوسية قد شكلت مذهبا مستقلا انشر بشكل واسع في إفريقيا ومصر، وبلغت أوج انتشارها خلال القرن السادس ميلادي. يمكن الاطلاع على المعلومة بالعودة إلى: حمداوي، ج.، 2014، *الديانة عند الامزيغيين*، الجزائر، ص.ص. 11-12.

507 حفناوي، ب، ص.204.

الرومانية والتخلص من تسلطها[508]، تزامن هذا مع انتشار واسع للمسيحية وضعف واضح في إيمان المتدينين فنالت هاته الملل من البعض وشكلت خطورة على المسيحية[509]، مثلما حدث لما احكم الوندال قبضتهم على الشمال الإفريقي واعتنق قائدهم جنسريك المذهب الاريوسي لاحق وبوحشية غير مسبوقة الكاثوليك وتبعه في هذا المسار ابنه من بعده هونريك (Hunneric) بعد توليه الحكم عام 477م[510]، ومن هنا تتضح ما مدى خطورة المذهبية على المعتقد.

3-موقف السلطة الرومانية من انتشار المسيحية بإفريقيا.

أدى انتشار المسيحية بشمال إفريقيا وغيرها من المناطق التي كانت تحت سلطة روما، ردود فعل عنيفة وقاسية، واستمرت ملاحقات واضطهادات الوثنية للمسيحية ما قارب ثلاث قرون[511]، وقد بدأت روما تنظر إلي هذه الديانة بعين التوجس والريبة نتيجة تجربتها المريرة مع اليهودية، وان هذا الأمر من شأنه المساس بمصالحها، فاضطهدت كل من اعتنق المسيحية ولاحقتهم أينما وجدوا وحلوا، مما زاد في تصميم الأهالي على المضي في دخلوهم للمسيحية، فلم تكد سنة 180م تنقضي حتى زاد عدد المعتنقين للدين الجديد ببلاد المغرب القديم وزاد معه الخطب على الأهالي، وظن الناس أن اللعنة حلت بهم ولن يتركهم الرومان حتى يبيدوهم[512]، ومن ضمن ما يذُكر في باب الاضطهاد الوحشي الذي تعرض له المسيحيون، المشاهد التي يسردها الباحث محمد علي دبوز قوله:"كانوا يقتلونهم، ويحرقونهم، ويجمعون المدينة في الملاعب فيأتون المسيحيين مكتوفي الأيدي فيلقونهم إلى الأسود والنمور الجائعة فتفترسهم وتمزق أجسادهم، وأولئك الحكام والوثنيون يصفقون ويطربون، وينتشون بهذا المنظر الفظيع."[513]، كما اعتادت الجماهير الغفيرة على مشادة والاستمتاع

---

[508] حفناوي، ب.، 2016، ص.406.
[509] جوليان، ش.، أ.، 1931، ص.295.
[510] Gibbon, E., 1828, Tome V, p.515.
[511] أندريه، ن.، إدغار، و.، كارل، غ. ي.، *الاصول الوثنية للمسيحية*، تر. سميرة عزمي الزين، ص. 19.
[512] شفيق، م.، 1988، *ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الامازيغيين*، ص.47.
[513] دبوز، م. ع.، 2013، *تاريخ المغرب الكبير*، الجزء الأول، الجزائر، ص.406.

بمناظر وحشية ومرعبة، فالإضافة الى رمي المسيحيين للحياونات المفترسة، يعلق البعض منهم على الصلبان من اجل الترفيه[514]، وهذه الصورة التي أصبحت من يوميات المسيحيين أمام الازدراء الذي أظهره الوثنيون مما جعل تارتليانوس يعاتبهم بقوله:

بالطبع، احكموا انتم بأنفسكم كم من مرة أظهرتم تشدد لا مثيل له اتجاه المسحيين. تحت طائل أحقادكم الشخصية حينا، وأحيانا من وقع قوانينكم؟ كم من مرة، بدون وجه حق، خرجت جماعات حاقدة، وانهالت علينا بالحجارة وشعلات ملتهبة، (...)، حتى الموتى لم يسلموا من شروركم فأخرجت الجثث التي بلغت درجة متقدمة من التعفن حتى أضحى لا يعرف صاحبها، وقطعتموها إلى أشلاء.[515]

وفي نفس سياق الحديث عن الاضطهادات التي طالت المسيحية منذ أولى السنوات لظهورها بالشمال الإفريقي، نذكر الواقعة التي ألمت باثني عشر مسيحيا من مدينة ستشيلا* (Scilli)، بتاريخ 12 جويلية من عام 180م بقرطاجة وبأمر من البروقنصل، عذب هؤلاء أمام الملأ ونكل بأجسادهم، كما رمى في العام 203م عدد من المسيحيين كذلك في عرين حيوانات مفترسة، غير أن كل هذه الأعمال الوحشية لم تزد المؤمنون بقضيتهم إلا تصميما بالمضي قدما دون أي تردد.[516]، ومن باب إظهار بشاعة ما تعرض له المسيحيون في أرجاء الإمبراطورية وليس فقط في إفريقيا لان الأمر سيان، ما حدث عام 64م في روما ذاتها، بعد أن تعرضت المدينة إلى حريق مهول أتى على أرجائها، وجهت فيه أصبع الاتهام للمسيحيين، فكان المشهد أشبه بأفلام رعب تتجاوز الواقع الإنساني، فكان المسيحي يلف في جلد حيوان حتى تلاحقهم الكلاب الضارية وتمزق أجسادهم، والبعض الأخر

---

514 جورج، ر.، 1993، *هيوليتوس الروماني*، دكوانة، ص. 15.

515 Tertullien, XXXVII.2.

* لا يعرف مكان مدينة ستشيلا بالتدقيق، إلا انه يرجح أن تكون موجودة بالقرب مدينة قرطاجة، وهذا انطلاقا من فكرة اتخاذها كمركز للتعذيب وصد كل تكون له نية اعتناق المسيحية، ومنها ما حدث يوم 14 جويلية من عام 180م حيث قضى خمس نساء وسبع رجال نحبهم فيها، وقد لاقى هؤلاء كل التقديس، كما حفظت جثثهم بإحدى كنائس قرطاجة. للمزيد من الاطلاع انظر: عمران، ع. الح.، 2018، ص.86.

516 Mahjoubi, A., 2010, p.537.

صلب، أو قد تدهن أجسادهم بمادة مشتعلة، ويستعملون كمشاعل، مثل ما فعل نيرون لإنارة حدائقه ليلا لما أقام حفلا شعبيا[517]، ويختصر أسد رستم حقيقة الاضطهاد الذي مس المسيحيين في أربع حقائق قوله:

ويجدر بالقارئ أن يذكر فيما يتعلق بالاضطهاد أربع حقائق؛ أولا: أن المؤرخين يشيرون عادة إلى عشرة اضطهادات بين السنة 64 بعد الميلاد والسنة 313 سنة البراءة. وثانيا: أن الاضطهاد أجري بموجب تشريع خاص صدر عن الإمبراطور نيرون في السنة 64 وقضى بألا يكون أحد مسيحيا، وثالثا: أن الاضطهاد لم يكن دائما عاما شاملا. ورابعا: أنه لا يمكن تحديد عدد الضحايا، ويجوز القول إنهم كانوا كثر.[518]

ولعل أغلب الظن، أن الوثنية قد خدمت إلى حد بعيد النظام الإمبراطوري القائم بتكريس عقيدة "عبادة الأباطرة"، لما قدمه بعضهم من خدامات جليلة للمجتمع والدولة على حد سواء، منها نشر السلام، وإبعاد شبح الحروب الأهلية، وتحقيق انتصارات عززت مكانة روما، أمثال أغسطس وتراجانوس وهدريانوس وسبتيميوس سيفيروس، حتى وان مراسيم التبجيل والتعظيم لشخص الإمبراطور وتأليهه تقام بعد مماته فيأبد ويعبد، غير انه في حدود القرن الثاني الميلادي اتخذت الحشود المصاحبة لموكب الإمبراطور شكل الطقوس الدينية من بخور ودعوات ومشاعل تتقدمه[519]، إلا أن القديس ترتليانوس يظهر امتعاضه الشديد إزاء التقديس والتبجيل اللذين حضي بهما الأباطرة قوله:"أغسطس لم يكن يرضى أن يلقب ب"الرب". لأنه من ألقاب الله. لكن في الحقيقة قد أوافق على إطلاق هذا اللقب على الإمبراطور ليس بالمعنى المتداول في حق الله، (...)، توقفوا بتسمية "الرب" من هو في حاجة إلى اله. "[520] ، وكان من نتائج عدم الخضوع والتسليم للإمبراطور ولا لآلهة

[517] Duruy, V., 1890, p.410.

[518] رستم، أ.، 2017، *الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب*، إنجلترا، ص.36.

[519] تشارلز ورث، أ. ب.، 1950، ص.165.

[520] Tertullien, XXXIV, 1.3

الإمبراطورية، هو الوقوع تحت طائل الإجرام والمعاقبة بالإعدام[521]، وبقيت عبادة الأباطرة إلى وقت متأخر من تاريخ الإمبراطورية الرومانية، إذ توثق المصادر التاريخية استمرار هذا الفعل، ومنها تقديس تمثال قسطنطينوس بالقسطنيطينية طلية القرن الخامس للميلاد، وهذا بالرغم من وجود قوانين رادعة لذلك ومنها قانون 425 م.[522]

على انه، لابد من الإشارة إلى أن هذا الاضطهاد الذي اتصفت به الإمبراطورية الرومانية أتى من غيرة اليهود والوثنيين نتيجة الانتشار الواسع للمسيحية بين الناس، فدعا هؤلاء إلى إصدار أحكام ومراسيم لإلحاق الأذى بالمسحيين، بدعوى احتقراهم للإمبراطورية لذلك سيتبنى كل من ترتليانوس وكبريانوس* (Thascius Caesilius Cyprianus) مهمة الدفاع عن المسيحية والمسحيين.[523]، كما مثل هؤلاء نخبة بدأت في التأريخ لمرحلة الاضطهاد الديني الذي دام أكثر من القرن، واستلت إلى النفوس الريبة وانعدام الثقة اتجاه السلطة الرومانية، كما لابد من الإشارة إلى ظاهرة اجتماعية ملفتة للنظر نتجت عن عمليات التنصر، الانشقاق الاجتماعي الحاصل فتموقع كل على حسب دينه وطائفته[524]، فخلال قرنين من الزمن وقع المجتمع الروماني فريسة الانقسام بين طائفتين واقفة الواحد اتجاه الأخرى بكثير من العدائية والاحتقان، ولعل هذا من اخطر المحن التي يمكن أن تحل بالمجتمعات، ومن الواضح أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل سيتقوى طرف على الأخر.[525]

---

[521] بن عبد المؤمن، م.، 2012، ص.106.

[522] Duval, N., 1984, « Culte monarchique dans l'Afrique vandale: culte des rois ou culte des empereurs ? » *R.E.Aug*, 30, Aix-en-Provence, p. 270.

* يلقب كبريانوس أيضا بثاسيوس (Thascius)، ويرجح أن يكون من مواليد مدينة قرطاجة في أوائل القرن الثلث الميلادي من عائلة نبيلة، تعلم الخطابة وتقلد مهمة محام، ظهر تأثير القس كاسيليانوس (Caecilianus) عليه بإعتناق المسيحية عام 245م، على إثر ذلك سيتبرع بغالبية ثروته على الفقراء، ولقد كان من الشخصيات الفاعلة في انتشار المسيحية، ونظرا للمكانة التي حضي بها لدى الناس فلم توفى أسقف قرطاجة عام 248م أصر عليه الشعب لأخذ مكانه، كما اشتهر برده على اليهود معتمدا على الكتب السماوية في مؤلف الذي عرف بـ(Testimonia ad Quirinum)، وفور تنصيبه أسقفا استطاع أن يفرض نظاما كنسيا حقيقيا. للمزيد من المعلومات عد إلى: جوليان، ش.، أ.، 1959، ص.ص 279-280.

[523] شوقي، ع-الل. الج.، إبراهيم، ع-الل. ع-الع.، 2009، *الحضارة الإفريقية*، القاهرة، ص.95.

[524] عمران، ع. الح.، 2018، ص.150.

[525] Bloch, G., 1922, p.p. 307-308.

وكما تم الإشارة إليه في ديباجة هذا الفصل على أن أكثر الفترات عسرا على المسيحيين هي فترة حكم الإمبراطور ديوكليسيانوس ولعل هي آخر المحن أيضا ما بين عامي (303–304م) والتي تعرف عند المسيحيين بـ"الاضطهاد الكبير"[526]، وهذا بعدما أعاد تنظيمه للإدارة الإمبراطورية ومنها التمكين للديانات القومية والقضاء على ما لا يتوافق مع الشعب الروماني من اعتقاد مثل المسيحية، واتى هذا التطرف من السلطة بعدما استفاد المسيحيون من فترة هدوء نتيجة الوفاق بين روما والكنيسة طيلة أربعون سنة من عهد غاليانوس (Caesar Publius Licinius Egnatius Gallienus Augustus) إلى ديوكليسيانوس[527]، ومن بين الأحكام الصادرة في حق المسيحيين في هذا الفترة، إصدار قرار عام 302م يقر بمصادرة أملاك المسيحيين وتدمير دور العبادة وإتلاف كتبهم، وسحب المواطنة منهم بخلفية حرمانهم من الوظائف الإدارية، وكانت سنة 304م من أعصر الأعوام على المسيحيين، حتى تخلى الكثير منهم عن مسيحيته نتيجة شدة الاضطهاد والتنكيل[528]، كما شهدت هاته السنة إصدار القنصل أونولياس (Anullianus) يوم 5 ديسمبر حكما بقطع رأس كريسبوس (Crispus) على عدم تقديمه القرابين لآلهة الإمبراطورية واعترافه بعبادته لإله واحد لا غير[529]، وهذا بعدما أصدرت روما في العام نفسه وجوب عين على كل من هم تحت رايتها تقديم القرابين لإله الوثنيين[530]، واتخذ موقف المسيحيين إزاء مظاهر التقديس لشخص الإمبراطور بما كان يعرف عند الرومان باسم "ألوهية الإمبراطور"، بُعدًا خطيرا ينتهي بإلقاء تهم التآمر عليه، ينتهي في الغالب بإقاع عقوبة الإعدام على الشخص المذنب، مثل ما حدث خلال القرن الثاني، في عهد كل من ترجانوس وماركوس أوريليوس عام 176 م[531]، وتواصل تمادي السلطة الرومانية إلى حد فرض العبادة الإمبراطورية

[526] Clavé, Y., 2017, p.308.

[527] جوليان، ش.، أ.، 1959، ص.286.

[528] رمضاني، أ.ه.، 2018، ص. 73.

[529] عمران، ع. الح.، 2018، ص.146.

[530] Meyers, J., 1994, « Vingt-deux sermons donatistes du temps d'augustin encore trop méconnus », *GRAA*, Montpellier, p.131.

[531] شارل، ج.، 2005، ص.169.

وتكريس الوثنية بين صفوف الجند[532]، لكن كل هذه الإجراءات الاحترازية وعمليات الملاحقة والتضييق على الدين الجديد ومعتنقيه لم يزد المسيحية إلا ثباتا ورسوخا، فقد ازداد عدد المبشرين في إفريقيا سواء بين المعمرين اللاتين أو بين السكان المترومنين وحتى ضمن القبائل المحلية[533]، ويصور احمد علي الناصري الوضع العام لظهور المسيحية بقوله:

لقد انتشرت المسيحية في الوقت المناسب وأطلقت ثورتها الإنسانية ذات المبادئ البسيطة فهزت الإمبراطورية والإقطاع، ولهذا حاولت الوثنية وأنصارها الارستقراطيين سحق هذه الحركة وتحمل المسيحيون الأول أبشع أنواع التعذيب والاضطهاد ولكنها تحملت في صبر وإصرار وسارت في طريق الآلام حتى النصر.[534]

4-توظيف روما للمسيحية وموقف الأهالي من ذلك.

بحلول عام 313م غيرت السلطة الرومانية موقفها من المسيحية بإعلان الإمبراطور قسطنطينوس مرسوم ميلانو* (Edict Milano) المتعلق بشؤون المعتقد مما أزاح كل العقبات والقيود أمام الممارسات الدينية للمسحيين[535]، حتى وإن سبق هذا القرار إجراء مخفف لمعناة المسيحيين من الإمبراطور جليريوس (305-311م) (Caius Galerius Valerius Maximianus) عام 311م بمرسوم يعترف فيه بالمسيحية كدين للرومان ويظهر تسامحه

[532] جوليان، ش.، أ.، 1959، ص.287.

[533] Mercier, E., 1888, Tome. I, p.121.

[534] الناصري، أ. ع.، 2016، ص.48.

* وقع جدل حول مصدر هذا القرار أهو من قسطنطينوس وليسنيوس أو من جاليريوس، إلا أن الثابت أن هذا المرسوم قد قلب حياة المسيحيين رأسا على عقب، فقد انفرجت الهموم واتسع الأفق لممارسة شعائرهم دون خوف أو اضطهاد، وساعد كثيرا على انتشار المسيحية، كما ساعد على استتباب الأوضاع في أرجاء الإمبراطوريةو استقرارها، وفيما يذكر من دواعي إصداره فبعضهم يرجعها إلى أسباب دينية صرفة كما يدعي اغلب المسيحية، وهذا بتلقي قسطنطينوس رؤية من المسيح يهديه الصليب ويبشره بالنصر، كما يظن البعض الاخر أن دخول والدته هيلانا في الدين الجديد قد دفع قسطنطينوس نحو اعتناق المسيحية، كما يرى اخرون في ذلك دوافع سياسية بحتة، بسبب المخاطر التي اصبحت تهدد الإمبراطورية ومستقبلها امام الانتشار الواسع للمسيحية، كما أن سياسة العنف لم تجدي نفعا بل بالعكس قد زادت من انتشار الدين الجديد. للمزيد من المعلومات عد إلى: النويهي، ن.، ص.ص.1- 7.

[535] بن علال، ر.، 2017، "رجال الدين المغاربة في ظل الصراع الديني المسيحي (284-430 م)"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر 2، ص.139.

معهم[536]، ورأي الكثير من المسيحيين أن أمر مرسوم ميلانو لم يكن من مشيئة البشر بل كله تدبير من الله الذي سخر قسطنطينوس لهذه المهمة النبيلة وهذا ما يذكره يوسابيوس القيصري** (Eusebius Pamphili) قوله:

أما الله نفسه، الذي عبده قسطنطين، فقد أيد هذه الحقيقة بأوضح الإعلانات، إذ كان حاضرا لمعونته في بداية ملكه وفي أثنائه وفي ختامه، وأقامه لكل الجنس البشري مثلا حيا للتقوى، ولهذا فانه، بالبركات المضاعفة التي أغدقها عليه، ميزه هو من بين كل الملوك الذين سمعنا عنهم، بان جعله كوكبا منيرا، ورسولا للتقوى الحقيقة مذيعا رسالته بكل وضوح.[537]

ويبدوا أن هذه الخطوة التي اتخذها قسطنطينوس بفض اكبر خلاف واجهته روما في تاريخ هو الأنسب في نظر الباحثين[538]، وهذا القرار بعدم اضطهاد المسيحيين، يؤكده يوسابيوس أن قسطنطينوس قد سلك خطا مغايرا وهي من أمنيات والده بعدم الاقتداء بكل من ديوكليسيانوس ومكسيميانوس ومكسنتيوس في ملاحقة والتنكيل بالمسحيين، قوله:"لأنهم عندما حاصروا كنائس الله وأتلفوها حتى الأساس، وأزالوا حتى أساسات بيوت العبادة، حفظ هو يديه طاهرتين دون أن تتلوثا بفجورهم البغيض، (...)، لأن قسطنطينوس وحده حكم شعبه بالرقة واللطف، واظهر من نحوهم عناية أبوية حقيقية ورعاية ممتازة."[539]، وبدأت بعدها الدائرة تتسع لصالح المسيحيين، في عام 321م مُنح المسيحيون الأحد كيوم تعبد دون عمل، وأظهرت السلطة نيتها الإسهام في إنشاءات المسيحيين من كنائس ودير، ومنها التبرع بقطع

---

536 ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص.687.

** أُختلف حول مكان ولادة يوسابيوس القيصري، فإما أن تكون قيصرية قد شهدت مسقط رأسه، أو ربما فلسطين، وهذا عام 265م، تعلم بقيصرية ونهل من مكتبتها التي سيعمل على تنظيمها مع معلمه، واضطر للهجرة إلى صور فارا من اضطهاد ديوكليسيانوس، ثم اتجه إلى مصرحيث تم القبض عليه في مدينة طيبة، وفي عام 313م عين أسقفا على قيصرية، وتعاطف مع اريوس واعتنق أفكاره، ولذلك سيقال من مهنته عام 325م بعد القرار المتخذ في مجمع أنطاكية، غير انه تراجع عن موقفه وأدان اريوس في مجمع نيقية يوم 20 من شهر ماي من العام 325م، سمي بأب التاريخ الكنسي، ومن بين مؤلفاته: التاريخ الكنسي، الإمبراطور قسطنطينوس ...، توفي عام 340م. أنظر: عمران، ع. الح.، 2018، ص. 149.

537 يوسابيوس، *حياة قسطنطين العظيم*، I. IV، ترجمة.القمص مرقس داود، القاهرة.

538 Bloch, G., 1922, p.306.

539 يوسابيوس، I. XIII.

الأراضي لذلك الغرض[540]، ومن يومها أمكن للمسيحيين أن يعيشوا فسحة الأمل بعكس الأيام الحلاك التي مرت عليهم.

ولم تتمكن روما التخلص من بعض العادات الوثنية التي ورثتها منذ عهد الحاكم نوما (Numa)، إلى غاية مجيء الإمبراطور ثيودوسيوس (Flavius Theodosius) (379–395م) الذي لم يترك مجالا لأي شكل من أشكال الخرافة، بمنع تقديم القرابين وتصنيفها كعمل إجرامي مشين، وتعطيل عمل المعابد وإتلاف أدوات الوثنية فيها، مما حمس بعض رجال الدين بمشارق الإمبراطورية ومغاربها بالقيام بعمل رسولي بتحطيم الأصنام والمعابد وتسويتها بالأرض أمثال القديس مارتن ببلاد الغال، وماركيللوس بسوريا، سعى وراء تدمير معابد أبرشية أباسيا (Apamea)، مثل معبد جوبيتر[541]، علما أن المسحيين من يوم ترسيم دينهم واعتماده كمعتقد تبنه السلطة العليا في روما لم يمثل المسيحيون يومها سوى 10% من مجوع سكان الإمبراطورية آنذاك، لذا لم يظهر حينها قسطنطينوس أي تشنج أو ردة فعل ضد مكونات المعتقد المنشر في أرجاء دولته، وبالتالي بقيت الديانة التقليدية هي الأكثر انتشارا بين أوساط الشعب الروماني ومنها تكون قد بقيت تحافظ على صفتها الرسمية[542]

أ–اعتناق روما للمسيحية ومحولات التوفيق بين السلطة الزمنية والسلطة السياسية.

بتنصر روما بدأ الوضع يتجه نحو اتخاذ منحى سياسي أكثر منه ديني، وتجلى ذلك في تحويل المسيحية عن مبادئها الأولى لخدمة السلطة الرومانية[543]، وتأتي هذه البادرة لاعتناق المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي من اجل تحقيق أهم مآرب السلطة الزمنية وهو

[540] Clavé, Y., 2017, p.309.

[541] جيبون، إ.، 1828، الجزء الثاني، ص.ص.93-99.

[542] Clavé, Y., 2017, p.309.

[543] شنيتي، م. ب.، 2012، ص.385.

الوصول إلى اللحمة والتوحد لأرجاء الإمبراطورية والقضاء على حالات التصدع الاجتماعي والصراع الديني.[544]

ومن جهة أخرى نجد أن في ظل استفحال الانحلال الذي مس جميع الجوانب الاجتماعية منها والاقتصادية والعسكرية خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين، بات تفكك وزوال الإمبراطورية الرومانية قاب قوسين أو ادني، التجأ اغلب الناس إلى ديانات أجنبية أتت من الشرق كديانة ميثراس (Mithras)، وديانة الأم الكبرى الفريجية كيبيلي (Cybelle)، إلا أنها كانت تمارس بشكل خفي لذا دعيت بالديانات الغامضة، غير أن المسيحية هي من استقطبت الحظ الأكبر من سرعة الانتشار والتوغل[545]، وقد بدت رغبة السلطة الرومانية في توظيف الدين "لكبح المواقف والأوضاع المحرضة لدى الجماهير الشعبية"، مثل إصلاحات أغسطس التي لاقت استحسانا لدى عامة الناس[546]، وجملة التساؤلات التي طرحها ديورانت (Durant Will) تصب في هذا المنحى حول دواعي اعتناق قسطنطينوس لمسيحية قوله:"ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصا في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية، أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية؟ أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب."[547]، حتى وان كان غاليوس قد أدرك مدى أهمية التسامح الديني لإنقاذ الإمبراطورية الرومانية، والإجراء هذا الذي تبناه قسطنطينوس عام 312م دليل على بعد النظر والحنكة التي اتصف بها الإمبراطور، ويسوق لنا شنيتي ما يدعم ذلك هي جملة التسهيلات التي أبداها هذا الأخير اتجاه المسيحيين أثناء حروبه[548]، مما بين أن الأمر لا يتعلق بدواعي دينية كما ادعى بعض المبشرين ورجال الدين المسيحيين، بقدر ما كان الهدف من وراء ذلك تحقيق مآرب سياسية بحتة.

---

[544] شنيتي، م. ب.، 2012، ص.276.
[545] الحويري، م. م.، 1995، ص.46.
[546] دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، الجزء الثاني، ص. 676.
[547] ديورنت، و.، 1975، المجلد الثالث، ص. 691.
[548] شنيتي، م. ب.، 2012، ص. 337.

وسرعان ما تحالفت الكنيسة مع السلطة الزمنية، وكان مبرر الكنيسة عجزها في مواجهة أهل البدع والمعدمين، فقدرتها غير كافية لصد ذلك لم تمد يده للسلطة والاستنجاد بها، فقد بدت مؤازرة الجيش سلطة الكنيسة في مقاومة الدوناتية انطلاقا من حكم قنسطنس الأول* (Flavius Lulius Constans) (337–350م)[549]، وتبعه في ذلك ثيودوسيوس الأول أو الكبير (Flavius Theodosius Augustus) (379–395م) بداية من 380م بسن قانون ثيسالونكي (Edit Thessalonique) بفرض المسيحية على مجوع سكان الإمبراطورية، وبذلك انقلبت الكفة وبدأ الاضطهاد المسيحي للدين الروماني بداية من تعدد للآلهة وانتهاء بكل مذهب مسيحي لا يتوافق مع الكاثوليكية من بدع وهرطقات كالأريانية أو الدوناتية أو غيرها من الملل والنحل التي ظهرت آنذاك.[550]

وبدا واضحا أن روما أصبحت أكثر قناعة من أي وقت مضى أن السبيل إلى لم شمل كل الرومان عبر أرجائها الواسعة والمترامية الأطراف، والقضاء على مظاهر الفوضى وبالتالي تقوية نفوذ الدولة، وذلك بجعل الكنيسة جهازا رسميا، لما للمسيحية ورجالتها من سطوة على الناس، وعلى هذا الأساس أصبحت المسيحية "تدرجيا دين دولة بعد أن كانت في الأمس القريب دينا محرما."[551]

* قنسطنس الأول هو أصغر أبناء الإمبراطور قسطنطينوس الأكبر، ولد بمدينة نايسوس (Naissus) بصربيا، ظفر في حياة والده بكل من ايطاليا، اليريا وإفريقيا، خاض بعدها صراعا مريرا على السلطة وواجه خلالها أخاه الأكبر قسطنطينس، تفطن لقوة الدين الجديد، فتبناه كدين للسلطة، من أهم انجازاته بعد جعل المسيحية دين الدولة إنشاء مدينة القسطنطينية عام 330م. للمزيد من المعلومات عد إلى: Homant, Y., 2019, « Constantin le grand (280-337) le premier empereur chrétien », *herodote.net*.

[549] جوليان، ش.، أ.، 1931، ص. 300.

[550] Clavé, Y., 2017, p.309.

[551] أيمار، أ.، جانين، أ.، 1986، المجلد الثاني، ص.565.

ب-الانشقاق الكنسي واضطهاد السلطة للدوناتية*.

أدت التحولات التي ألحقتها السلطة الرومانية على المبادئ السامية الأولى للمسيحية إلى ظهور انشقاق كنسي أدى إلى احتدام الصراع، ولم يقبل المسيحيون الأوائل أن تحرف مبادئ دينهم لخدمة مصالح روما، فانحرفوا عن المسار الذي خطته السلطة.

منشأ الخلاف بين كنيسة السلطة ومسيحيو إفريقيا بدأت شرارته بعدما فاق الاضطهاد من اعتقالات وإعدامات وتعذيب، قدرة البعض من المتدينين وأدى بهم الأمر إلى الردة والتخلي عن دينهم، حتى أنهم سلموا نسخا من الكتب المقدسة للسلطة بنية إحراقها، ومنهم أسقف قرطاج منسوريوس (Mensurius) الذي استعمل طرق لا تليق بمقامه اتقاء للتعذيب[552]، وهذا التوجه للسلطة الذي انطوى على ضرورة الاستيلاء على الكتب المسيحية المقدسة قصد إتلافها غضتها فكرة ديوكليسيانوس أن القضاء على المسيحية يمر باجتثاث ما يغضي هذه الديانة من مؤلفات[553]، فكانوا في نظر البعض الأخر الذي صمد، من المتخاذلين (Traditores)، واتخذ المتمسكون بعقيدتهم موقفا سلبيا اتجاه هؤلاء، وخاصة بعدما أجاز تصريح "شهداء أبثينا"* (Abithina) الانفصال عنهم، بل وجعله من الدين بالضرورة، حتى وأنهم وصفو بالكفار، وعلى غرار ذلك ظهرت ما يعرف تاريخيا بالدوناتية[554]، ولذلك سيتخذون موفقا معارضا اتجاه تنصيب كاسيليانوس (Caecilianus)[555]، المتورط بتعذيب

* ظهرت الحركة الدوناتية عام 305م نسبة إلى اكبر أعلامها دوناتوس (Donatus)، وهي حركة مناهضة للسلطة الرومانية ومن كان في صفها، لأن الإمبراطورية الرومانية استغلت المسيحية التي كان الضعفاء هم وقودها في البدء، ومن ذلك اتضحت الخلفية الريفية لهذه الحركة المتمردة على السلطة والأساقفة الذين أدوا ولائهم لها، فلقد جمعت مناضلين من المتذمرين على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية، ولذا يكمننا القول بالصبغة السياسية للحركة. للمزيد من المعلومات انظر: المبكر، م.، 2001، ص.85.

[552] جوليان، ش.، أ.، 1931، ص.296.

[553] Goulard, J., 1849, *les donatistes*, Toulouse, p.6.

* أبثينا مدينة تونسية لم يبقى منها إلا الأطلال، تقع على حوض المجردة، قدمت تضحيات جسام أثناء اضطهاد المسيحيين بأربعة وأربعون شهيد ومن بينهم القديس ساتورنينوس (Saturninus) مع أربعة من أبنائه، حيث قيدوا إلى قرطاجة وأودعوا السجن وتركوا دون طعام حتى ماتوا جوعا، بأمر من الشماس كاسيليانوس (Caecilianus). للمزيد من المعلومات انظر: المبكر، م.، 2001، ص.25.

[554] المبكر، م.، 2001، ص.ص. 24-25.

[555] عمران، ع. الح.، 2018، ص.154.

وقطع الطعام عن مسجوني ابثينا، وتشتيت المتظاهرين بالقوة[556]، كما يجب ألا يفهم مما سبق أن الكنيسة الإفريقية عرفت انشقاقا واحدا، بل هناك انقسامات أخرى كتلك التي حدثت خلال فترة قبريانوس وهي الأقدم حسب الباحثين.[557]

تنامت أحقاد رجال الكنيسة النوميديين اتجاه السلطة أمام القسوة التي أظهرتها حيال المحكوم عليهم، ولذلك سيترأس جاثليق مجمعا بقرطاجة للاعتراض على تنصيب كاسيليانوس، الذي رفض التخلي عن المنصب، فلتف المعترضون حول شخصية دوناتوس** (Donatus Magnus) الذي بدأ في اكتساب شعبية لدى الأفارقة وأسس لتيار جديد سرعان ما كثر معتنقوه[558]، وعلى هذا الأساس سيقف الدوناتيون وراء هذا المبرر التاريخي ليتخذوا شرعية ينشطون من خلاله، وهو وقوفهم في وجه المتخاذلين والاستلهام من الصامدين والشهداء[559]، فرات في نفسها مجدد ومطهر للديانة المسيحية.

ويبدوا مما سبق أن الدونتاية اتخذت من التدابير التي اتخذها ديوكليسيانوس ضد مسيحي إفريقيا انطلاقتها الحقيقة، واستمرت هذه الحركة إلى غاية الغزو الوندالي لبلاد المغرب القديم عام 429م[560]، ولا بد من الإشارة على أن التاريخ المسيحي الإفريقي للقرنين الرابع وبدايات القرن الخامس مطبوع بالانشقاق الدوناتي والخلافات بين الكنيستين الرسمية التي تحضي بمساندة السلطة ودعمها والكنيسة الدوناتية التي لاقت كل أشكال الصد

---

556 جوليان، ش.، أ.، 1931، ص.296.

557 عمران، ع. الح.، 2018، ص.151.

** ولد دوناتوس إبان القرن الثالث الميلادي من عام 273م بمدينة نقرين جنوب مدينة تبسة ولذلك يدعى أيضا بدوناتوس النقريني (Donatus Negrinus)، وفي عمر الثلاثينات تقلد منصب أسقف نقرين، ينسب إليه المذهب الدوناتي، وقد اتصف بقوة الشخصية حتى بلغ به الأمر إلى الاستفراد برأيه دون أن يتجرا بقية الأساقفة على رد قراراته للاحترام الذي يكنونه له، يضاف إلى ذلك انه كان يتمتع بفصاحة اللسان وقوة التأثير في الغير، كما اتصف بمواقفه العادلة ولو كان الشأن متعلقا بأقرب المقربين له، ولعل هذا من العوامل التي ساعدت كثيرا على انتشار الدوناتية، مات قبل ميلاد ألد أعدائه القديس أوغسطينوس بسجون هيسبانيا التابعة لروما عام 355م. للاطلاع على الموضع انظر إلى: سعدي، عثمان، 199/12/20، "الأب دونا رجل الدين المسيحي الجزائري المغاربي المناضل"، جريدة رأي اليوم، لندن.

558 جوليان، ش.، أ.، 1931، ص.ص. 296-297.

559 المبكر، م.، 2001، ص.ص. 26-27.

560 Hadot, P., Meslin, M., 1957, « A propos du Donatisme », *Archive de sociologie des religions*, Paris, p.p 143-144.

والاضطهاد من الدولة[561]، ونظرت إليها الكنيسة الكاثوليكية بعين المقت واللعنة المستوجبة للخروج من المسيحية، فبات في إفريقيا الرومانية فرقان متصارعان لكل منها حججه ومؤيدوه، احدها تمثل كنيسة واضحة المعالم والأطر وتزعم العالمية والأسبقية في الظهور، والأخرى خفية تسعى إلى النقاوة وتدعي أصالة منابعها وخدمة الدين المسيحي[562]، غير أن أوغسطينوس يضع هذا الانشقاق في خانة التهور وحقد تلك المجموعات قصد زعزعة وحدة الكنيسة[563]، وحسب جوليان فأن الدوناتية ستحقق تفوقا جغرافيا وعدديا وتتغلغل إلى قلوب ليس فقط مسيحيو إفريقيا بل العالم المسيحي كله قوله:" انشقاق الدوناتسيين الذين سوف يشتتون شمل افريقية قاطبة قد انتشر نفوذها وتمتعت بهيبة عظيمة في كامل البلاد النصرانية وقد اكتمل نظامها بصورة نهائية في القرن الرابع فكان لها ست مقاطعات كنائسية تقابل المقطعات المدنية الست الموجودة في عهد قسطنطين من أن تتوافق لذلك حدودها توافقا تاما."[564]، إذًا تعاظم شأن الدوناتية وحصدت اغلب المتدينين الأفارقة المسيحيين، فقد انحاز سبعون أسقفا من نوميديا لدوناتوس، فأصبح الدوناتييون قوة لا يستهان بها في إفريقيا الرومانية، وبعدما استكملوا دون أي جدوى سبل التحكيم من السلطة وإمبراطور روما في خلافهم* على تنصيب كاسيليانوس، سيلجأ دوناتوس ومؤيدوه إلى إنشاء كنيسة خاصة بهم، وبالتي ظهر الانشقاق الكنسي جليا، ولم يتوقف نشطاهم في الجانب اللاهوتي فحسب بل

---

561 Meyers, J., 1994, p.141.

562 Goulard, J., 1849, p.p. 24-25.

563 Augustins, S., *Lettres*, XLII ; 3.29, Trad. M. L'Abbe. Bar-le-Duc, 1864, Paris.

564 جوليان، ش.، أ.، 1931، ص.ص. 290-291.

* رفع شان الخلاف إلى الإمبراطور قسطنطينوس عام 313م مما ادخل البهجة على الإمبراطور لتوليه الحكم في قضية تتعلق بالمسيحية وعقد الاجتماع من أجل ذلك بروما، وقد تم تنصيب هيئة تحكيم من أسقف روما ميلتياد (Miltiade ou Melchiade)، مع خمس أساقفة من غالة، وصدر الحكم بعدما أتى عشر أساقفة للدفاع عن المتهم كاسيليانوس بالبراءة، لكن المخالفون سيطلبون مرة أخرى احتكام الإمبراطور، لذا سيراسل قسطنطينوس البروقنصل ايليانوس (Elien) بإعادة النظر في الأمر، لكن لم تحسم القضية وبقي الأمر مرفوع للإمبراطور مرة أخرى، مما سيدفع به وهو في شدة من الامتعاض من اصرار الملاحقين للقضية كاسيليانوس، بعقد اجتماع لسماع الطرفين عام 316م بميلانو، وكان الحكم مرة اخرى لصالح كاسيليانوس. للمزيد من المعلومات انظر: Goulard, J., 1849, p.p.13-14.

سيدعم الدوناتيون كل حركة تمرد وعصيان ضد روما وممثليها، فبدا تأيدهم لأغلب الثورات التي تزامنت معهم مثل ثورة فيرموس.[565]

وفي ظل هذه المشاحنات والخلافات بين الدوناتية والكنيسة الرسمية، تخندق البعض للدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية ومنهم أوبتاتوس الميلي (Optatus episcopus Mileutanus)، بردوده على بطلان الدوناتية في مؤلف مهم عام 366م (Libri contra Parmenianum donatistum)، ليأتي بعد من كان أكثر عداءا وأغزرهم إنتاجا ردا على المبتدعة، القديس أوغسطينوس والذي أيد دون تردد اللجوء إلى القوة لردع المخالفين[566]، وبقيت الدوناتية وكنيستها ملجأ لكل متذمر من روما وسياستها، وبالتالي يمكننا أن تصور تلك العلاقة الوطيدة بين هؤلاء الناقمين والفكر الدوناتي، فأصبحت بذلك عنوانا للمقاومة للسيطرة الرومانية، وعلى هذا وضعت هذه الأخيرة وهيئاتها على طاولة الاتهام بالتردي الحاصل بين الأفارقة والسلطة الرومانية[567]، وبالرغم من الإجراء الذي اتخذه الإمبراطور قنسطنس الثاني عام 347م بنفي دوناتوس، والذي سيلقى حتفه هناك عام 355م، أملا في قطع دابر المنشقين عن الكنيسة الرسمية، وإعادة رسم الخريطة الدينية بشمال إفريقيا بما يناسب السلطة الرومانية، لكن بقيت الدوناتية لا تزال تحصد الأغلبية وبشكل خاص بنوميديا، وبالتالي ستظل الشوكة التي تألم روما في حلقها.[568]

وكما ختم عمله الباحث بلوش (G.Bloch) بقوله:"دعونا نختتم: بأن الإمبراطورية كان محكوم عليها بالتداعي والانهيار، بسبب المسيحية أو من دونها، لكن المسيحية كانت احد أهم العوامل المؤدية للانحلال والفناء، وتتموقع في المراتب الأولى للأسباب المفضية للخراب الذي لا مفر منه."[569]، تكون هي محصلة هذا الفصل.

[565] قداش، م.، 1993، ص.223.
[566] جوليان، ش.، أ.، 1931، ص. 311.
[567] Kotula, T., 1976, p.348.
[568] Meynier, G., 2007, p.163.
[569] Bloch, G., 1922, p.310.

الفصل السادس

ثورات الأفارقة

1-ثورات ذات أبعاد وطنية: ثورة جيلدون (Gildon).

أ-ظروف وأسباب حرب جيلدون.

ب-مجريات الثورة ونهايتها.

2-المقاومات ذات الخلفية الدينية.

أ-الحركة الدوناتية.

ب -حركة الدوارين (Circumcelliones).

ج -ثورة فيرموس(Firmus).

1-دوافع فيرموس لشق عصا الطاعة على روما.

2-المجال الجغرافي لثورة فيرموس.

اشرنا منذ بداية هذا العمل، إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية، فلقد بلغت الأزمة الاقتصادية والاجتماعية مداها بداية من القرن الثالث الميلادي، مما وفر المناخ المناسب للتمرد والثورة، ولم تهدأ نفوس الأفارقة أمام التعسف الممارس عليهم من السلطة الرومانية وعمالها بمختلف المقاطعات الإفريقية المنضوية تحت راية الإمبراطورية ومنها سياسات المصادرة للأملاك وخاصة الأراضي الزراعية، وفرض الضرائب، وتضيق سبل العيش على الأهالي، مما سمح بتعكير صفو العلاقات بين الرومان والسكان المحليين، وشحنت النفوس بالاحتقان والكراهية، وبالرغم من نجاح سياسة الرومنة في بعض المناطق إلا أن هذا لم يمنع من اصطفاف معظم سكان الشمال الإفريقي وراء حركات المقاومة للتعبير وبشكل غير قابل للتأويل رفضها القطعي للوضع القائم الذي أراد الاستعمار الروماني فرضه.

وقد مثلت هذه الثورات التي لازمت التواجد الروماني بالمنطقة، درجة اليقظة والوعي لدى سكان شمال إفريقيا، ولسنا هنا من اجل عرض مفصل عن مجمل المقاومات والثورات التي شهدتها ارض إفريقيا ضد الاحتلال الروماني طيلة خمس قرون ونيف، بل سنكتفي بالإشارة إلى أهمها خاصة في الفترات الأخيرة من عمر الإمبراطورية في بالشمال الإفريقي كأحد أهم العوامل المفضية إلى زوال الهيمنة الرومانية بالمنطقة، ولا يجب أن ننسى كذلك مساهمتها في تردي وضع روما، ولتنفيض هذا الفصل ارتأينا أن نتناول المقاومات من خلال الخلفية التي انطلقت منها، أو من خلال الأبعاد التي رسمتها هذه الانتفاضات ضد غطرسة وضيم السلطة الرومانية الممارس على سكان المنطقة، لان بكل بساطة قد اتخذت هذه المقاومة عدة أشكال، وبدت بصور مختلفة، وهذا نظرا للظروف التي أحاطت بتلك الانتفاضات، بالإضافة إلى المعطيات التي فرضت على الأفارقة.[570]

[570] شنيتي، م. ب.، 2002، *أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)*، الجزائر، ص. 83.

ويعطي جوليان في بادية حديثه عن ثورات الأفارقة، مواقع النفوذ والتمكين الروماني بالمنطقة، وبالمقابل مناطق التي استعصت على الرومان الوصول إليها وفرض واقعا استعماريا بها من جميع الجوانب، فكانت تلك المناطق مثلا للتشبث بمظاهر الهوية من تقاليد وعادات، وهي المواقع الريفية إلى جانب المناطق الجبلية كالأرواس والبيبان والظهرة والقبائل والونشريس وتساله، والتي مثلت خزانا وقاعدة خلفية لثورات اشتعل لهيبها تقريبا في كامل الشمال الإفريقي ماعدا البروقنصلية، ولم تتخذ هذه الثورات طابعا عرقيا، بل كانت عنوانا لرفع الضيم عن أي من كان حتى ولو من بني جلدتهم أي من الأفارقة[571]، ويبدو أن الرومان عانوا كثيرا من تمردات الأفارقة أكثر من أي منطقة أخرى مدوا نفوذهم عليها[572]، فقد حارب الرومان على أكثر من جبهة، من جهة الوضع العام المتردي الذي ساهم في تفاقم الوضعية العسكرية وبالتالي تهيئة أرضية لاندلاع الثورات التي انطلقت كالنار في الهشيم منذ عهد الإمبراطور سيفيروس والتي لم تخبت شعلتها إلى أن انطفئ نور روما بشمال إفريقيا تقريبا في بدايات القرن الخامس الميلادي.

وكانت مظاهر الرفض والتمرد التي شهدتها المقاطعات الإفريقية في عهد الإمبراطورية المتأخر بمثابة دق أخر مسمار في نعش الإمبراطورية الرومانية، ويرتبها إيف موديرو (Yves Modéran) على النحو التالي ابتداء من الانشقاق الذي قام به دوميتيوس الكسندر* (308–310م) (Lucius Domitius Alexander) وإعلان نفسه إمبراطورا عام 308م[573]، مرورا بثورتي الأخوين فيرموس (372-375م) وجيلدون (397–398م)، وانتهاء بكل

[571] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.ص.269-273.

[572] دبوز، م. ع.، 2013، الجزء الأول، ص.397.

* أُرسل دوميتيوس إلى إفريقيا بصفة قس، واصبح بعدها مسير لأبرشية في عهد حكم ديوكليسيانوس، استغل ما كانت تعيشه الإمبراطورية من فوضى سياسية واجتماعية ليعلن نفسه إمبراطورا من قرطاجة عام 308م، كما مثل تهديدا واضحا للإمبراطورية من خلال الأنونة التي يمكن أن يضغط بها على روما ويهدد كينونتها بشبح المجاعة، أو ادخلها في موجة من الاضطرابات الاجتماعية نتيجة لذلك، واستطاع ماكسونيوس (Imperator Caesar Aurelius Valerius Maxentius Pius Felix Invictus Augustus) أن يوقف التمرد في عام 310م ويأسر دوميتيوس ثم يقوم بإعدامه شنقا هو معاونيه في حدود العام 311م. للمزيد من المعلومات انظر: Wikipédia, « Domitius Alexander », URL. https://fr.wikipedia.org/wiki/Domitius_Alexande, vue le 11/12/2020 à 20.12.

[573] Panaget, Ch., 2014, « Les révoltes militaires dans l'empire romain de 193 à 324 », thèse de doctorat, université de Rennes II, *CReAAH*, p. 302.

من هيراكليانوس* عام 413م (Aurelius Heraclianus)، وبونيفاسيوس** (427–428م) (Boniface)[574]، وبالرغم من الإجراءات القاسية التي اتخذتها السلطة الرومانية ضد كل من ساهم في تلك الثورات من مصادرة أملاك الثائرين أو المتعاونين معها وفرض الضرائب لتضيق سبل العيش للقبول بالأمر الواقع، كما حدث اثر ثورة كل من فيرموس وجيلدون[575]، إلا أن هذا لم يردع سكان الشمال الإفريقي من تجديد عهدهم مع الحرية والاعتناق فكانت كلما خبت ثورة إلا واشتعلت أخرى إلى أن زال الاحتلال الروماني نهائيا في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي.

1- ثورات ذات أبعاد وطنية: ثورة جيلدون (Gildon).

بالرغم من محدودية المجال الترابي لبعض المقاومات وانحصارها الجغرافي، إلا أنها كانت تحمل أبعادا وطنية تفوق درجة توسعها أو طول الفترة الزمنية المتعلقة بها، لذا ستكون بصيص أمل لكل من يريد أن يغير وضعه للأفضل بالتخلص من قبضة روما ومعاونيها، وعلى هذا الأساس سنتناول بعض النماذج من تلك التمردات للأهالي على كل ما هو روماني كثورة جيلدون.

حتى وان لا تبدوا ثورة جيلدون (397–398م)[576]، من الوهلة الأولى ذات بعد استقلالي تحرري لارتباط شخصية جيلدون بعملية تعاون بينه وبين روما لإسقاط تمرد أخيه

---

* بدأ هيراكليانوس مساره كقائد بسيط لا يراعى له بال، لكن تمكن من أن يستغل الفرص لظهورعلى الساحة العسكرية ثم السياسية، وهذا منذ توليه منصب مكلف بالإنشاءات الكبرى للإمبراطورية بالمقطعات الغربية، وقد استطاع أن يشد انتباه القائد الوندالي ستيليشون الذي أوصى بمنحه منصب قائد القوات الرومانية بإفريقيا يوم 22 أوت من عام 408م، ثم ترقيته إلى صف قنصل عام 312م، حيث سيوظف هو الآخر سلاح قطع التموين بالقمح لايطاليا خلال شتاء 410/409م، وفي عام 413 استطاع القائد مارينوس (Marinus) أن يطيح بتمرد هذا الأخير ويلقى عليه القبض ويفصل رأسه عن جسده في شهر جوان من نفس السنة بمدينة قرطاجة. للمزيد من المعلومات انظر: Kotula, T., 1977, « Le fond africain de la révolte d'Héraclien en 413 », *Ant Afr*, 11, pp.257-266.

** برز بونيفاسيوس على الساحة عام 422م لما ولاه الإمبراطور هينوريوس على المغرب، واظهر براعته في التعامل مع أحداث المغرب القديم كقائد فذ، ولما توفي هينوريوس عام 423م، وقع خلاف على تولي العرش ودخلت روما في فتنة عظيمة كادت ان تقودها الى حرب أهلية، حتى تدخل ثاودوسيوس ونصب ابنة عمته بلاسيديا، مما دفع ببونيفاسيوس الى عدم الاعتراف بولاية بلاسيديا، وأنتهى الخلاف بإشعال نار الحرب بينهما، كما طلب بونيفاسيوس العون من الوندال، مما سمح لهم بالدخول إفريقيا والإستلاء عليها، مات بونيفاسيوس في حصار شديد لمدينة هيبون (عنابة). للمزيد من المعلومات انظر: دبوز، م. ع.، 2013، الجزء الأول، ص ص. 414-417.

[574] Modéran, Y., 1989, « Les Maures et l'Afrique », *M.E.F.R.A*, Tome 101, N 2, p.821.

[575] حارش، م. ه.، 1995، ص.229.

[576] Modéran, Y., 2003, *Les Maures et l'Afrique (IVe-VIIe sicles)*, Rome, p. 5.

فيرموس[577]، وقد حفر لحد أخيه من قبل، وغدر به، إلا أنها تمثل إحياء للضمير الوطني الذي سيضغط على جيلدون لإصلاح ما أفسده الوقت، واستغل قيادته للجيش ليؤجج نار العصيان والتمرد على روما[578]، ويذكر فيما يرويه محمد المبكر انه أمير إفريقي لا يمكنه التنصل من انتمائه وجذوره[579] ، فتحول حليف الأمس إلى خصم اليوم وأعلنه القائد ستيليشون* (Stilichon Flavius) في خريف عام 397 م انه عدو الشعب الروماني (hostis publicus)، بعدما كان من القادة الأفارقة المدللين من السلطة الرومانية.[580]

ويبدوا أن روما وقائدها ثيودوسيوس الأول كانوا على درجة من اليقين بولاء جيلدون، وذلك باتخاذ تدابير لضمان ذلك، أولها تنفيذ قران بين إحدى بنات القائد الموري المدعوة صالفينا (Salvina)[581]، واحد أقارب زوجة الإمبراطور فلاكسيا (Flaccilla) نيبريديوس (Nébridus)[582]، وثانيها تقليد جيلدون منصب قائد القوات الرومانية بإفريقيا برتبة كونت (Comte d'Afrique) [583] سنة 385م من الإمبراطور جراتيانوس** (Flavius Gratianus

---

[577] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.306.

[578] غانم، م. ص.، 2010، الجزء الأول، ص.220.

[579] المبكر، م.، 2001، ص. 138.

* ولد ستيليشون في حوالي العام 360م، وهو قائد عسكري روماني من أصول وندالية، مما يوضح تغلغل البرابرة إلى الداخل الروماني، وقد شغل مناصب حساسة، ونظرا لتميزه بالفطنة ونباهة العقل حضي بمكانة جيدة لدى الإمبراطور ثيدوسيوس، والذي سيزوجه احد بناة العائلة وهي أخته سيرينا (Serena)، ثم تطورت العلاقات بين العائلة الحاكمة وستيليشون إلى حد التكفل برعاية ابن الإمبراطور هونريوس ومصاهرته بعقد قران بينه وبين احد بناته ماري (Marie) عام 398م، وقد حقق في البداية العديد من الانتصارات العسكرية لكن ما لبث أن توالت عليه الهزائم وضاق مرارة الإنهزام، كما انتهت مسيرته الحياتية بالوقوع بمؤامرة أدت به إلى الهلاك هو وكامل عائلته يوم 23 أوت من عام 406م. للمزيد من المعلومات انظر: Le Bohec, Y., « Stilichon ou Stilicon (360-env.-406) », *Universalis eu.fr*, Url. https://www.universalis.fr/encyclopedie/stilichon-stilicon. vue le 11/12/2020 à /14.21.

[580] Modéran, Y., 1989, p.p.821-822.

[581] بشاري، م. الح.، 2012، "أوضاع الإمبراطورية الرومانية في النصف الثاني من القرن الرابع ميلادي ثورة جيلدون 398/397"، مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب، العدد 13، ص. 256.

[582] Le Beau, Ch., 1826, *Histoire du bas-empire*, Tome V, Paris, p. 44.

[583] المبكر، م.، 2001، ص. 137.

** جراتيانوس من ذرية الإمبراطور فلانتيانوس من زوجته الأولى مارينا (Marina)، أتى إلى الوجود سنة 359م بسيرميوس (Sirmius) بنونيا (Pannonie)، وفور وصوله إلى سدة الحكم عام 367م باشر عهدته بفتح افواه الحرب على الديانة القديمة لروما المتمثلة في الوثنية، وساند بكل قوته الديانة المسيحية، وفي عام 374م عقد قرانه بابنة الإمبراطور كونسطونس (Canstance) كونسطونسيا (Canstantia)، والتي سنتنقل إلى عالم الأموات قبل أن تتمكن من الإنجاب وترك خلف للزوجها، كما أن جراتيانوس سيتعرض للإغتيال عام 383م، وبذلك دام حكمه ستة عشر سنة. للمزيد من المعلومات انظر: Le Naim, De T., 1732**,** *Histoire des empereurs, et des autres princes qui ont régné durant les six premiers siècles de l'Eglise, de leurs guerres contre les Juifs, des*

Augustus)[584]، وهذا بعد مرور عشرين سنة من إنهاء تمرد أخيه فيرموس، فأصبح أعلى هيئة في المنطقة[585]، وبهذا خضعت إفريقيا لسلطان القائد الموري جيلدون لمدة اثنا عشر عاما من دون أي منازع، فلم تنل القلاقل والثورات من المقاطعة الإفريقية طيلة حكم الإمبراطور ثيودوسيوس[586]، والذي وصفه جيبون انه سجل نهاية لآخر عباقرة روما وضاهت سمعته في أصقاع الإمبراطورية الرومانية في كل اتجاهاتها[587]، إلا أن هذا لم يمنع من تجدد الثورة عام 395م بعد انتقال هذا الأخير إلى عالم الأموات، بتدبير من الكونت والقائد العام لقوات روما في إفريقيا جيلدون[588]، ولربما هذا يصور لنا ما مدى خشية السلطة الرومانية من القادة الأفارقة، وقوة عزمهم على خلخلة أوضاع روما.

كما اظهر جيلدون رغبته في قلب التوازن الذي سعت روما إلى إبقائه في المقاطعة الإفريقية، من خلال مواقفه التي باتت تزعج السلطة الرومانية، وظهر هذا لأول مرة في تمرد ماكسيموس (Maxime) خلال المدة الممتدة من 386 إلى 388م، حيث امتنع جيلدون عن المشاركة بأي حال من الأحوال في هذا النزاع ومد يد المساعدة لروما[589]، وتحول بعدما اظهر عدائه للسلطة الرومانية والرغبة في الانفصال عنها، بالمتوحش والذي لا توجد بدواخله أي حسنة إنسانية، مثلما يظهره الشاعر كلوديانوس* (Claudianus Claudius)، وقد اجتهد

Ecrivains profanes, & des personnes les plus illustres de leur temps, Tome 5, Bruxelles, pp. 21-31.

584 Le Beau, Ch., 1826, p. 43.

585 Camps, G., 1998, « Firmus », *E.B*, N 19, Paris, p. 2852.

586 La Croix, L., « Numidie et Maurétanie », *L'Univers. Histoire et description de tous les peuples*, n 56 ; Paris, p. 90.

587 Gibbon, E., 1828, tome 5, Chapitre XXIX, p. 385.

588 Meynier, G., 2007, p.161.

589 بشاري، م. الح.، 2012، ص. 249.

* كلوديانوس شـاعر لاتيني ولد في عام 370م، تخلى عن الإغريقية كلغة أصلية لصالح اللاتينية حينما هم بالرحيل من الإسكندرية متجها إلى عاصمة العالم آنذاك روما، ليبدأ مساره كشاعر متميز، واظهر براعته في التحكم في اللغة المكتسبة لما نظم قصـيدة عام 395م بغرض الاحتفال باعتلاء كـل من بروبينوس (Probinus) وأوليبريوس (Olybrius) منصب قنصل، وقع تحت حماية القائد الوندالي ستيليشون حيث سيخصص كلوديانوس جزء من أشعاره لمـدح القائد المرومن، والتي ستنشر بعد وفاة ستيليشون، تمثل أعماله مصـدر مهم للتأريخ الروماني. للمزيد من المعـلومات انظر:
« Claudien Claudius Claudianus (370 env.-env. 404) », *Encyclopædia Universalis*, consulté le 11 décembre 2020. URL : https://www.universalis.fr/encyclopedie/claudius-claudianus-clau

ايف موديرو على إظهار هذه الصفات في جدول جمع فيه كل الأوصاف الذميمة التي وصفه بها كلوديانوس وقارنها بأوصاف الحاكم الطاغية ومنها:

_ لم يظهر احترامه للأديان، ودنس المقدسات الدينية.

_ لم يظهر أي رحمة اتجاه ذويه، حيث قتل دون أي شفقة أبناء أخيه وحرمهم من مراسيم الدفن.

_ كان يقتل دون أي شفقة، ويعاود ذلك دون أن يؤنبه ضميره.

_ جرد أقاربه من حقهم في الإرث، وبالتالي قد التصقت به صفة السارق بامتياز.

_ كان مدمن على تناول الخمر، وكان اغلب أوقاته ثملا.

_ كان متوحشا وماكرا.[590]

لكن السؤال المطروح، لماذا لم تظهر هذه الصفات عندما كانت السلطة الرومانية راضية عليه وبلغت حتى درجة المصاهرة وترقيته في مناصب جد حساسة ومهمة؟ فقد كان من قبل كما ذكر سابقا، "قائدا لكل جيوش الإمبراطورية من منطقة طرابلس إلى ملوية"[591]، فكيف يكون بكل تلك الصفات وتضع روما ثقتها تلك في رجل لا يؤمن جانبه.

أ-ظروف وأسباب حرب جيلدون.

أدى تفشي الوهن والضعف بجسد الإمبراطورية إلى تفاقم الوضع العام حتى وصل الأمر إلى انقسام الإمبراطورية عام 395م، إمبراطورية الغرب تحت إمرة هونوريوس (Flavius Honorius Augustus)، الذي كان حديث السن لم يتجاوز الأحد عشر سنة فكلف والده ثيودوسيوس القائد ستيلشون الوندالي وصيا عليه، واتخذت من ميلانو عاصمة لها إلى غاية سنة 403م ثم تحويلها إلى رافينا (Ravenne) لدواعي أمنية، بعيدا عن هاجمات الفيزيقوط (Wisigoths)[592]، وإمبراطورية الشرق بقبضة أخ هونيروس اركاديوس (Flavius

[590] Modéran, Y., 1989, p. 826.

[591] حفناوي، ب.، 2016، ص. 199.

[592] Clavé, Y., 2017, p.315.

Arcadius Augustus) الذي لم يختلف وضعه عن شقيقه فلم يتجاوز سنه الثمانية عشر ربيعا، فظهر الوزير روفنوس (Rufin) كمحرك فعلي لدواليب الحكم، وعاصمتها بيزنطة، ولم يتوقف الوضع الذي آلت إليه الإمبراطورية عند هذا الحد بل سيدخل شطري الإمبراطورية في صراع دائم[593]، ويُذَكر كلافيي (Yannik Clavé) أن هذا التقسيم الذي شهدته الإمبراطورية لم يكن الأول من نوعه لكن سبقته انقسامات أخرى من تاريخ الإمبراطورية، إلا انه مختلف عن ما كان من قبل كونه هذه المرة أتى بشكل قطعي ومشرع، ولم تتوقف العملية عند حد الانقسام السياسي فحسب، بل سيفتك كل شطر من الإمبراطورية مقاطعات يخضعها لسلطانه ومنها المقاطعة الإفريقية[594]، ومن هنا تكمن الخطورة على الإمبراطورية واستمراريتها، ولربما كانت الفرصة لرفع لواء المقاومة والتحرر، وهذا ما كان بالفعل مع الثائر جيلدون.

ايف موديرو بعدما عرض أراء كل من تناول حرب جيلدون لفهم دوافعها وأهدافها وجدناه يبحث في أي خانة يمكن تصنيفها، اهو تمرد يندرج في إطار أهداف وطنية ضمن مشروع قومي بربري أو حركة انفصالية لمنطقة الشمال الإفريقي؟، وفي الأخير يصل موديرو إلى قناعة أن القائد الموري لم يكن همه سوى تقوية نفوذه المالي والسياسي على حساب ضعف شخصية الإمبراطور الروماني هونيروس[595]، لكن لا يمكن الجزم بهذه النتيجة التي خلص إليها موديرو، إنما هو اجتهاد ليس بالضرورة صائبا، لان مجموع الذين التفوا حول جيلدون وثورته مثل أوبتاتوس التموقادي (Optat Thamugadi) لا يمكن أن يكون في غفلة من هذا المنحى الذي أراده جيلدون.

كما يتمادى ادوارد جيبون في وصف الثائر الإفريقي بأبشع الأوصاف، منها طاغية إفريقيا، أو الوصف الذي استخلصه هذا الأخير لما أقدم جيلدون على تصفية ابني أخيه الذي ينازعه العرش، أنه رجل دموي متعطش لدماء الآخرين حتى وإن كانوا من دمه وعشيرته

[593] بشاري، م. الح.، 2012، ص.ص246-247..

[594] Clavé, Y., 2017, p.315.

[595] Modéran, Y., 1989, p.866.

وتخلوا منه صفات الرحمة والإنسانية[596]، إلا أننا نصادف على مرة التاريخ حالات مشابه تفاديا لانشقاق الصف وتشتيت المقاومة.

ب-مجريات الثورة ونهايتها.

ولكي تفلح خطته في قهر روما وكسر غطرستها لجأ جيلدون إلى الحرب الاقتصادية بقطع التمويل عنها، وهنا تظهر مهارة وكفاءة جيلدون في اغتنام الفرص، واستغلالها لصالحه، ومنها ما كانت عليه روما من ضعف[597]، فباعتبار إفريقيا محور أساسي وحيوي في مد الإمبراطورية بما تحتاجه من قمح ومواد أولية، وكان ذلك بداية من خريف العام 397م[598]، وقد بدأ جيلدون في توظيف سلاح الغذاء على مراحل، وهذا منذ أن فارق ثيودوسيوس الحياة عام 395م، بجس نبذ القيادة الجديدة وعلى رأسها القائد ستيلشون بتقليص حصة روما من الأنونة[599]، فكادت هذه الخطوة أن تتسبب في مجاعة حقيقة لولا استنجاد روما بمصادرة حصة كل من هيسبانيا وغالة[600]، ولربما قد تهدد هذه الخطوة التي أقدم عليها جيلدون الأمن الاجتماعي بإثارة الطبقات المحرومة ودفعها إلى العصيان والتمرد، وهذه المخاوف نقلها سيماك (Symmaque) حاكم مدينة روما إلى مجلس الشيوخ[601]، وقد وظف الأمير الموري كذلك النفوذ الذي منحته إياه روما، كقائد للقوات الإفريقية، بالإضافة إلى انتمائه لأسرة ذات نفوذ محلي، مما سمح له بجلب اغلب القبائل ومنها المورية والنسامونس، والجيتول، والغرامنت، والنوبة، والنوميد (أنظر الخريطة رقم: 3، ص.180)، لذا لم تتأخر روما لحظة في دفع جيش بقيادة الجنرال ستيلشون الوندالي، والذي كان قوامه بحسب

[596] Gibbon, E., 1828, Tome 5, p.p.418-419.

[597] المبكر، م.، 2001، ص. 138.

[598] Modéran, Y., 1989, p. 822.

[599] بشاري، م. الح.، 2012، ص.ص. 249-250.
[600] جوليان، ش. أ.، 1931، ص. 306.
[601] بشاري، م. الح.، 2012، ص. 250.

المصادر خمسون ألف مقاتل من جانب الرومان مقابل سبعون ألف رجل من جانب جيلدون.[602]

[602] بشاري، م. الح.، 2012، ص.ص. 243- 251.

خريطة رقم:3– **حلفاء جيلدون.**

نقلا عن. الربيع، ع.،2016، "المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادي"، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 1، ص. 654.

ولم تختلف طريقة روما في قمع الثورات المحلية بإيجاد سند محلي وهذه المرة تمثل في شخص أخ جيلدون المدعو ماسكزال (Mascezel)، الذي نال من جيلدون وأوقف عصيانه لروما واسر الأمير وزج به في السجن حيث انتحر من قهره وقلة حيلته[603]، لان بكل بساطة خلق جيلدون من ماسكزال عدوا بامتياز لما أقدم على قتل أبناء هذا الأخير[604]، ولم يجد بدا ماسكزال أمام قوة خصمه إلى طلب اللجوء لروما واحتمى في مدينة ميلانو (Milan)، أين سيصله نبا قتل ابنيه من جيلدون[605]، ونلحظ أن توظيف النزعات الداخلية هو ديدن الاستعمار عامة، فلقد استغل القائد المورومن ستيلشون، خلاف جيلدون مع أخيه المتبقي ماسكزال ليؤجج التناحر بينهما وينتهي الأمر بانهزام الثائر جيلدون، وحتى الأمير المتعاون لم يسلم من غدر الرومان، إذ فور عودته لروما سيموت غرقا في ظروف غامضة، وبذلك تنتهي شعلة أسرة نوبل إلى الأبد[606]، لتضمن بذلك روما أن يستقر لها الوضع وتقضي على أي محاولة لتجدد المقاومة.

ويبدوا حسب المصادر التاريخية أن انهزام جيلدون كان سريعا وفي مدة قصيرة، مثلما يرويه كلوديانوس[607]، بيد أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه السهولة وهذا بسبب احتكار المعلومة وعدم وجود من يدحضها، كما أن الدراسات الحديثة كشفت أمرا مهما في ما أتت به المصادر، وخاصة ما جاء بقلم كلوديانوس، إلى إظهار خلفية الانتصار السريع لمزاكسال وموقفها من تلك الأحداث ونهايتها لصالح هذا الأخير الذي كان مسيحيا مؤمنا دأب على القيام بواجبه الديني قبل الانطلاق إلى ساحة المعارك ليضمن الانتصار على خصمه الذي كان وثنيا، بالصيام وتراتيل المزامير والصلوات، بالإضافة إلى نبوءة القديس أوبرواز* (Saint

---

603 Lugan, B., 2016. p. 105.
604 La Croix, L., p. 91.
605 Gibbon, E., 1828, Tome 5, p. 325.
606 Meynier, G., 2007, p. 162.
607 Claudien, *Guerre contre Gildon, Ouvres complètes,* I.2, Trad. MM. Héguin de Guerle, Alph Trognon, Paris.

* ولد القديس أوبرواز (340-397م) بأحد مدن غالة حيث كانت تقيم عائلته، و كان يشغل والده منصب حاكم عام، لكن لا يُعلم ما إذا كانت ليون هي المدينة (Lyon) أو أرل (Arles)، أو تراف (Trèves)، وبعد وفاة والده إنتقل للعيش بروما برفقة والدته وأخته، ثم إلى ميلانو حيث سيشغل منصب أسقف، كان من بين الذين دفعوا بأوغسطينوس إلى اعتناق

Ambroise) بالنصر المظفر، وهذا يندرج في إطار تجريم جيلدون وخدمة للمسيحية[608]، مما يجبر كل باحث أو دارس لتاريخنا أن يتوخى الحضر ويمعن العقل ويتدبر في ما ترويه تلك المصادر، والتي كانت من جانب واحد، حيث كرست فكرة إبراز الإمبراطورية الرومانية بوجهها المتحضر، وفي الطرف الأخر خصومها من البرابرة الذين ليس لهم أدنى حس حضاري، ولا تتدرج أفعالهم فيما يتطلبه بنو البشر.

وفي نفس السياق يذكرنا بشاري الحبيب بسياسة روما في التعامل مع الانشقاقات الحاصلة في الشمال الإفريقي بقوله:" وهذا ليس لقوة روما العسكرية إنما لتفرق الأفارقة، إذ نلاحظ أن روما نجحت مرة أخرى في تحقيق مآربها بالمغرب القديم بالأفارقة وعلى حسابهم مثلما نجحت من قبل في ضرب صفاقس بماسينيسا ويوغرطه ببوخوس، وفيرموس بجيلدون وأخيرا جيلدون بماسكزال."[609]

وقد تعاملت روما مع المتعاونين مع الثائر الموري جليدون بكثير من القسوة بنية قاطع دابر أي محاولة لمعاودة التمرد وتهديد مصالح روما، وخاصة أن السلطة الرومانية لا تزال تتذكر تهديد جيلدون بالمجاعة لها ولشعبها، وممن نالهم هذا الإجراء أنصار جيلدون من الدوناتيسيين وعلى رأسهم أوبتاتوس التموقادي، وقد كان مستشارا لجيلدون، فارق الحياة وهو مسجون جراء تعاونه ومساندته للثورة[610] عام 398 م، حتى وان هناك من يشكك في مشاركته أو تعاونه مع الثورة ، لكن تبقى صداقتهما أمر ثابت لا شك فيه[611]، مثلما نالت روما من ممتلكات القائد الثائر بالمصادرة كإجراء ردعي وقمعي ضد جيلدون وعائلته.[612]، وهذا در على الخزينة الرومانية أموالا طائلة، مما تطلب تعيين متصرف خاص بها.[613]

المسيحية، كما خلد اسمه بما قدمه من خدمات إنسانية للفقراء والمساكين، حيث يحكى انه تبرع بجميع ثروته للمحتاجين. للمزيد من المعلومات انظر: Lefort, L., 1852, *Saint Amboise archevêque de Milan sa vie et extrais de ses écrits*, Lille, pp. 5-309.

608 بشاري، م. الح.، ص. 257.

609 بشاري، م. الح.، ص. 257.

610 جوليان، ش. أ.، 1931، ص. 307.

611 Maier, J-L., 1989, *Le dossier du donatisme*, Tome II, Berlin, pp. 104-105.

612 Le Beau, Ch., 1826, p. 152.

613 حفناوي، ب.، 2016، ص. 199.

2- المقاومات ذات الخلفية الدينية.

أ-الحركة الدوناتية.

من المعلوم أن الدوناتية قد دعت إلى الثورة ضد تعسفات السلطة الرومانية وكنيستها التي خرجت عن الخط الصحيح للمسيحية، ويجمع المؤرخون أن الدوناتية بالرغم من مجابهتها لروما وما انجر عنها من ملاحقات وصدمات عنيفة بقيت هي الأكثر حضورا من بين المذاهب الدينية بالشمال الإفريقي منذ عهد الإمبراطور قسطنطينوس إلى غاية الغزو الوندالي على اقل تقدير[614]، أي أنها غطت القرن الرابع وما يليه، وهذا لربما يبين ما مدى تجذر الحركة في الأوساط الشعبية وقوة الحركة في مقارعة خصومها، حيث أنها قد ظهرت للعلن عام 305م، بعد قرار مجمع كيرتا (Concili Cirtiensis) بنسخ قرار قرطاجة من قبل[615]، ويجب التأكيد على جزئية مهمة تمتاز بها الحركة الدوناتية عن غيرها من الحركات الدينية، أنها ولدت بإفريقيا بقرطاجة ونوميديا، فكانت وظلت خاصة بها دون غيرها من المقاطعات الرومانية وهذا رغم تدخل كنائس غير إفريقية في عمليات النزاع بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية من جهة والسلطة الرومانية من جهة ثانية، أو أيضا تدخل قناصل من ايطاليا أو غالة، لكنها تبقى بالرغم من كل ذلك إفريقية بامتياز[616]، وقد بلغت الحركة أوج قوتها في العام 394م، ومن مظاهر هاته القوة التي باتت تؤرق روما، قدرة الحركة على أن تقيم اجتماع لما يقارب ثلاث مائة وعشرة أسقفا بمدينة باغاي[617] في 24 ابريل من نفس السنة[618]، ولعل هذا من بين الإشارات التي تبين مدى اتساع انتشار الحركة وقدرتها على التجنيد.

كما تبدوا أهمية الحركة من خلال محتواها الاجتماعي، بحيث مثلت الطبقة المسحوقة من المجتمع المحلي، وهو الوعاء الذي استمدت الدوناتية قوتها منه بعكس الكنيسة

---

614 حافظ، أ. غ.، 2007، *الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار*، الإسكندرية، ص.210.

615 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.ص. 351-343

616 Monceaux, P., 1909, « L'église donatiste avant saint Augustin », *R.H.R*, Vol 60, Paris, p.1.

617 Lancel, S., 1989, p. 1060.

618 Maier, J-L., 1989. P. 84.

الكاثوليكية التي اعتمدت على السلطة والطبقة الغنية[619]، كما لا بد لنا هنا أن نشير إلى البعد النفسي الذي مثلته هاته الحركة، إذ عبرت عن الروح الماقتة اتجاه السلطة الرومانية وكانت ترمي الحركة عبر نضالها إلى تحقيق هدف سياسي أسمى هو التحرر من تجبر وعدوان الرومان، وبما أن المسيحية تمقت تلك الصفات فلقد أشهرت الدوناتية سلاح المسيحية في وجه روما[620]، وهذا ما يفسر العدد المعتبر من الدوناتيسيين بالشمال الإفريقي أي أن المقاومة عامة أصبح لها جبهتين للنضال احدها الجانب التقليدي أي النضال المسلح، وبظهور الدوناتية نجد نضالا من نوع أخر متمثل في النضال الديني والاجتماعي[621]، ويلخص جمال حمداوي المجال الذي استهدفته الدوناتية من خلال نضالها قوله:" استهدف دوناتوس مقاومة القوات الرومانية ورجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يباركون الاحتلال ويعترفون بشرعية الاستغلال واسترقاق الساكنة المحلية ويناصرون الأرستقراطيين الذين كانوا يحتكرون ثروات الشعب."[622]، كما يتأكد البعد الوطني لهاته الحركة كونها نازعت الحكم الروماني بالشمال الإفريقي[623]، كما روجت السلطة الرومانية للحركة دون أن تدرك ذلك، بحيث أدت عمليات المضايقة وعدم إنصاف الدوناتية في القضايا التي نازعت بها الكنيسة الكاثوليكية، إلى الدفع بمن جهلوها حب الفضول والرغبة في التعرف عليها ومن ثم اعتناق وتبني أفكارها، لان بكل بساطة كانت تحمل فكرة العدالة الاجتماعية، ومحاربة ظلم روما وعمالها بالمقاطعة الإفريقية[624]، ورغم ما بذلته السلطة الرومانية من تدابير وإجراءات قمعية بهدف القضاء على الانقسام الديني بالشمال الإفريقي، ومنها تسخير القديس أوغسطينوس لهذا الغرض، ومن بين ما وظف لإفحام خصومه من الدوناتية وإظهارهم

---

619 شنيتي، م. ب.، 2003، ص. 181.

620 دبوز، م. ع.، 2013، الجزء الأول، ص.407.

621 حمداوي، ج.، ص. 15.

622 حمداوي، ج.، 2007/09/08، "مسيحية ضد روما دوناتوس بطل إفريقي ورمز الثورة والتمرد الغزاة"، *جريدة العرب الأسبوعي*، الجزائر، ص. 28.

623 Modéran, Y., 1989, p. 830.

624 جوليان، ش. أ.، 1959، ص. 297.

بمظهر المذنب وأصحاب بدعة لا تمت بصلة بالمسيحية، الأدلة اللاهوتية والكنسية[625]، لكن الحركة الدوناتية استطاعت ولمدة أكثر من قرن، أن تقف في وجه روما ومعاونيها، وبقيت حتى الفتح الإسلامي في بعض أجزاء من افريقيا.[626]

ويبدوا أن الحركة هي الأخرة قد اقتنعت بضرورة التصدي لظلم السلطة الرومانية[627]، بما تلاقيه منها من ملاحقات وتنكيل في حق مناضليها، أي وبمعنى أكثر وضوح تشكل لدى الحركة جانحان جناح الذي انطلقت به من أول وهلة يوم إنشائها، يتشكل في الأساس من رجال الدين والعلماء ويوظفون الحجة للإقناع وكسب المناظرات الكلامية ضد من انحرفوا في اعتقادهم عن المسيحية الحقة واعتبارها ردة دينية[628]، وجناح ممن اقتنعوا بضرورة استعمال القوة والسلاح، وهم في الأساس الدوارون[629]، وبالتالي أصبحت الدوناتية الإطار الذي التفت حوله حركة الثائرين من الريفيين.

ب-حركة الدوارين (Circumcelliones).

زادت مخاوف الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهور جماعة عرفوا تاريخيا باسم الدوارين بحيث خرجت الخصومات التي كانت بين الكنيستين الرسمية من جهة والدوناتية في الطرف المقابل عن المألوف، أي أنها وبمعنى أكثر وضوح لم تقتصر على الجدل الفكري باستعمال قوة الإقناع والأسلوب اللفظي، إذ أضحى القهر البدني واستعمال القوة هي السمة البارزة منذ إذ ذاك[630]، ويضعها شنيتي في سياق غير الذي أرادته المصادر التي شوهت الصورة الحقيقة لجماعة الدوارين، برسم منظر مجزأ للانتفاضة الشعبية الإفريقية والتي اتفق الوطنيون من الباحثين بتسميتها بثورة الريفيين، ويعيب شنيتي اجترار بعض المؤرخين المحدثين لتلك

---

625 Pérez, C. B., « Les lettres antidonatistes d'Augustin :le vocabulaire employé pour dénoncer les crimes des donatistes », *L'étude des correspondances dans le monde romain de l'antiquité classique à l'antiquité tardive: permanences et mutations,* p. 393.

626 Monceaux, P., 1909, p.1.

627 حارش، م. ه.، 1995، ص. 230.

628 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.242.

629 Heinriche, J. W., 1859. »Donatistes », *Dictionnaire encyclopédique de la théologie catholique,* Tome VI, Trad. I. Goschler, Paris, p. 484.

630 المبكر، م.، 2001، ص.ص. 29-30.

الصورة غير مكتملة المعالم لحركة الدوارين، دون أدنى تمحيص[631]، لكنها مثلت للكثير من الوطنيين هبة اجتماعية تطالب بالإنصاف والعدالة في حق الفلاحين من سكان شمال إفريقيا بعيدا عن اتهامات كل من أوبتاتوس وأوغسطينوس على أنها تمثل الوجه غير المشرف لسكان شمال إفريقيا لأنها وباختصار لم تكن سوى ثلة من قطاع طرق لا تحكمهم أعراف ولا قوانين.[632]

والذي أدى إلى أن تصطبغ هذه الحركة بالصبغة الدينية هو التحالف الحاصل بينها وبين حركة دوناتوس منذ عام 347م، علما انه لم تكن هناك أدنى صلة بين جماعة الدوارين والدوناتية في البد ء[633] ، وأصبحوا من يومها يتسمون بالمقاومين أو المصارعين (Agonistici)، وكذلك بجنود السيد المسيح (Milites Christ)، وتجسد ذلك من خلال شعاراتهم التي كانوا يصدحون بها أثناء معاركهم مثل لله الحمد (Dios-Loudos)، بالإضافة إلى تتويج بعض من محاربهم بالقداسة أمثال أوكسيدو (Oxidos)، وفازير (Fazer).[634]

وفي تخريج من نوع آخر يقع الباحث ربيع العولمي وكغيره ممن سقطوا في جدلية تحديد طبيعة الحركة، دينية أم اجتماعية، فمنهم من رآها ذو طبيعة اجتماعية ومن بينهم شارل أندري جوليان[635]، وهو الأساس الذي أطلقت من اجله في البدء وتيار ثاني يصنفها في المجوعات الدينية، لكن لا يمكن أن نفصل الطبيعيتين للحركة، كونها ذات سمات دينية وبامتدادات اجتماعية وهذا لا يتنافى إطلاقا مع روح المسيحية السمحة، التي تكرس مبدأ المساواة بين البشر وتدعوا إلى العدالة الاجتماعية.[636]

على أن اخطر الضربات التي تلقتها الدوناتية كان في مدينة باغاي (Baguai) عام 347م، وبقيت أحداثها ماثلة لمدة عشرين سنة، نظرا لخطورة ما حدث بتلك المنطقة[637]، وهي

---

631 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.363.
632 قداش، م.، 1993، ص.223.
633 جوليان، ش. أ.، 1931، ص.ص. 300-301.
634 غانم، م. ص.، 2010، الجزء الثاني، ص.ص. 236-241.
635 جوليان، ش. أ.، 1931، ص. 297.
636 الربيع، ع.،2016، ص. 567.
637 المبكر، م.، 2001، ص. 210.

من كانت من وراء اللحمة بين الدوناتية وجماعة الريفيين، وذلك لما حاول الإمبراطور قسنطنس التدخل في إفريقيا للقضاء على الانشقاق الكنسي، بإرسال مبعوثين هما مكاريوس* (Mcarius) وبولس (Paulus)، لكن بوصلهما إلى دواخل نوميديا وتحديدا باغاي، اصطدما بالدوناتيين ودفعا بالجيش إلى التدخل وسقط فيها عدد من الشهداء الدوناتيين منهم دوناتوس أسقف باغاي وماركلوس (Marculus) وماكسيميانوس (Maximianus) وإسحاق (Issac)، على اثرها دعا الدوناتيون الريفيين الى التدخل، فكان سبب توحد الجماعتين مع بعضهما البعض في طريق النضال والتحرر[638]، وبذلك وجدت جماعة الريفيين أرضية ينشطون فيها عبر الانشقاق الكنسي وبرزوا إلى الوجود كحركة تعرف بجماعة الدواريين، وهذا في إطار المطالبة بحقوق المقهورين من الطبقات المحرومة وسيما الفلاحين منهم.[639]

وكما باتت جدلية الصراع الاجتماعي قائمة في هذا الخصام الذي اصطبغ بالصبغة الدينية، حيث انحاز الأثرياء إلى الكاثوليكية التي مثلت الملجأ الأفضل من تهديدات الثوار الريفيين على مصالحهم، أي وجدت الكاثوليكية سندا اقتصاديا وسياسيا قويا بانضمام هؤلاء لها، فكانت إذا المصلحة متبادلة بين الطرفين[640]، وظهرت حركة الريفيين في ظل استغلال بشع للأراضي الزراعية بانتشار الضيع والمستثمرات الفلاحية ذات المساحة الواسعة المعروفة بـ(Domaines, Latifundia, Fundus)[641]، خلال القرن الرابع الميلادي، فأنتظم فلاحون في جماعات مسلحة للتعبير عن غضبهم ورفضهم للواقع المعيش.[642]

ولعلنا هنا أمام نموذج لانتفاضة شعبية عبرت عن ألام ومعاناة الطبقة الدنيا من المجتمع الإفريقي، لأنها وبكل بساطة هي أول من اعتنق المسيحية للوقوف أمام تسلط

---

* مكاريوس صاحب السمعة السيئة بين سكان شمال إفريقيا، لأنه اشتهر بعنفه في التعامل مع الأساقفة الدوناتيين، وكان احد المبعوثين من الإمبراطور قسنطنس عام 347م، في محاولة من السلطة الرومانية لرد الدوناتية عن معتقدها ولم شمل المسيحيين. عد إلى: المبكر، م.، 2001، ص. 277.

638 المبكر، م.، 2001، ص. 206.

639 Potier, B., 2008, « Les Circoncellions. Un mouvement ascétique itinérant dans l'Afrique du nord des IV et Ve siècles » *Ant Afr*, 44, p. 44.

640 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.372.

641 بيكار، ش. ج.، *حضارة شمال إفريقيا (تريبوليتانيا- البروقنصلية- نوميديا- موريتانيا) خلال الفترة الرومانية*، ترجمة وتحقيق وتعليق العربي عقون، 2020، الجزائر، ص. 21.

642 Akkache, A., 1973, *les guerres paysannes de Numidie*, Alger, p.13.

السلطة الرومانية والإختلالات الاجتماعية التي أحدثتها هذه الأخيرة في التوكينة المغاربية[643]، وأولى الأفعال العسكرية لجماعة الريفيين تعود لعام 320م حيث سجلت السلطة الرومانية اعتداء مسلح على جنودها الذين كانوا في مهمة من الإمبراطور لغلق بعض الكنائس بإفريقيا[644]، ويمكننا القول أن هاته المجموعة من الثائرين الأفارقة لا يمكن فصلها عن أي حركة تعبر عن رفضها للأمر الواقع، كما أن هاته المجموعة التي نعتها المسيحيون الكاثوليك بعصابة من اللصوص المفسدين قد عبروا وبشكل قطعي عما كان يحس به كل فرد من الأفارقة اتجاه سياسة روما، ولا أدل على الصبغة الثورية لهؤلاء، هي تواجدهم في اغلب الثورات، فيرموس، جيلدون، ومساندتهم للدوناتية[645]، حيث عظم شانها بربط مصيرها بمصير الدوناتية بعدما أصبحت إفريقيا مسرحا للصراع الديني، والذي نتج عنه اضطهاد من السلطة تحت غطاء ديني هو الآخر.[646]

ج- ثورة فيرموس (Firmus).

الذي جعلنا ندرج ثورة فيرموس ضمن المقاومات ذات الخلفية الدينية هي وجود عناصر من الدواريين والدوناتيين ضمن مكوناتها، حتى أصبح هؤلاء يعرفون برجال فيرموس (Ferminaii)[647]، كما لا بد لنا أن ننوه في هذا المقام الدور الذي لعبه فيرموس في الدفاع ومساندة الدوناتيين[648]، ومن الظروف التي استغلها فيرموس الجو العام الذي خيم على إفريقيا اثر ظهور كل من الدوناتية وثورة الريفيين، فما كان أمامه إلا أن يضيف لكليهما شعلة ثالثة ويقتطف ثمرتها، وهذا ما كان بانضمام اغلب القبائل الإفريقية الناقمة على السلطة الرومانية[649]، وهي في حدود الثلاثة عشرة قبيلة ومنها حتى القبائل التي نجحت روما في

---

643 شنيتي، م. ب.، 2003، ص.178.

644 Akkache, A., 1973, p.13.

645 شنيتي، م. ب.، 2012. ص. 364.

646 جوليان، ش. أ.، 1931، ص. 297.

647 الربيع، ع.،2016، ص.621.

648 Laporte, J. P., 2010, « Nubel , Sammac, Firmus et les autres. Une famille berbère dans l'empire romain », *A.R*, Rome, p. 986.

649 شنيتي، م. ب.، 2012، ص.375.

رومنتها[650]، مما سيضفي صفة الشرعية على قيادته ويتم تزكيته ملكا على رأس تلك القبائل[651]، وتعد كما يذكر لبورت (Jean-Pierre Laporte) الأعنف من بين الثورات التي شهدتها موريطانيا القيصرية.[652]

وتتضح أهمية ثورة فيرموس من السياق الذي يورده الباحث لابورت عن ضخامة جيش القائد الروماني ثيودوسيوس* (Théodose l'Ancien) والعناء الذي وجده في قمع الثورة، مما يبين أنها لم تكن اندفاعا وجدانيا عابرا بل حملت كل معاني الانتفاضة والمقاومة[653]، وتتضح هاته المعناة في طول مدة الحملة التي استمرت من 372 الى 375م [654]، وبالرغم أن فيرموس كان من اشد المتعاونين مع روما ومن هنا تسلم قيادة افريقية حوالي العام 368م جزاء تعاونه مع قائد الفرسان ثيودوسيوس وجزاء وفائه لروما أيضا[655]، ومن مظاهر هاته المعانات الأفكار التي راودت ثيودوسيوس فور وصوله لمدينة سيتيفس (Setifis)، وهي كيف سيتعامل الجيش الروماني مع الطبيعة المناخية القاسية والحارة، وكيف يمكن من تعقب عدو متعود على المنطقة، سريع الحركة، يأبى المواجهة المباشرة ويتبع حرب العصابات والمباغتة.[656]

وقبل أن نستعرض ملابسات وبعض مجريات الثورة بما يخدم الفصل، لابد لنا من العودة إلى شخصية الثائر فيرموس، فكما يصفه لبورت انه بعيد كل البعد أن يصف إلى غير المتحضرين أي من جماعة البرابرة، بل كانت تجتمع فيه كل صفات الشخص المتحضر والذي يستحق أن يكون رومانيا، ولذا نجد فيرموس قد استطاع أن يجمع بين الإفريقي القح

---

650 Laporte, J. P., 2014, « Les révoltés dans la guerre de Firmus en Maurétanie Césarienne (370-375) », *CTHS*, Perpignan, p.122.

651 Lugan, B., 2016. P. 105.

652 Laporte, J. P., 2010, P. 979.

* يعرف أيضا بثيودوسيوس الشيخ (Theodose l'Ancien) حتى يفرق بينه وبين ابنه ثيودوز الكبير الذي تمكن من الوصول إلى سدة حكم الإمبراطورية، وقد تعرض ثيودوسيوس للقتل والتنكيل بقرطاجة عام 375م لربما بأمر من فالنت (Valens) حاكم الشرق. للاطلاع على المعلومة عد إلى: Lugan, B., 2016. P. 105.

653 Laporte, J. P., 2014, p.121.

654 فوكة، م.، 2014، ص. 19.

655 جوليان، ش. أ.، 1931، ص. 306.

656 Ammien Marcellin, *Histoire de Rome*, XXIX. V.7, Trad. M. Nisard, 1860, Paris.

والمواطن الروماني من دون أي صعوبة أو حرج، وقد استفادت عائلة نوبل بشيء من الحظوة لدى سلطة روما، فاغلب افرداها مروا على مناصب مهمة في الدولة الرومانية ومنهم جيلدون – كما جاء سابقا – الذي منح رتبة قائد القوات الرومانية عام 385م[657]، ومن هذا المنطلق تكمن خطورة تبني أفراد هاته العائلة الثورة والخروج عن إرادة الدولة الرومانية، واحتمالية انضمام الفرق العسكرية الموضوعة تحت تصرف هؤلاء الأمراء، مما يخدش ولو بالقليل سمعة روما في التحكم في موظفيها، مثلما كانت أيضا السلطة الرومانية تألب أفراد الأسرة الواحدة على بعضهم البعض بعدما أن يظهروا عدم الرغبة في مواصلة وصاية روما عليهم بمنح المناصب العليا والمهمة لبعضهم، وهذا ما كان مع جيلدون ماسكازال وديوس.[658]

1–دوافع فيرموس لشق عصا الطاعة على روما.

أكثر المصادر تناولا لثورة فيرموس هو أميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcellinus)، ففي مؤلفه تاريخ روما (Histoire de Rome)، الكتاب الخامس عشر الفصل الخامس يسرد أميانوس ملابسات وحيثيات ثورة الأمير الموري بكثير من التفاصيل، بداية من انتقال والده نوبل* (Nubel) من قبيلة يوباليني** (Jubalini)[659]، وهو من أكثر القادة

---

657 Laporte, J. P., 2002, « Les armées romaines et la révolte de Firmus en Maurétanie césarienne », *Centre d'étude et de recherches sur l'occident romain,* N 26, Paris, p.p. 282-283.

658 Camps, G., 1998, « Firmus », *E.B*, N 19, Paris, p. 2848.

* يمثل نوبل الشخصية الأكثر ظهور في قبيلة يوباليني، وقد وجدت عدة نقائش تحمله اسمه بالليبية والبونيقية، حيث كتب بالصيغة التالية (NBL) على مسلتين بالقرب من مدينة قسنطينة، ويبدي لبورت الاختلاف في رد هذا الاسم إلى أصوله إما ليبية أو بونيقية، وبحسب المعلومات المتوفرة فان نوبل قد خلف سبع أبناء وهم زاماك (Sammac)، فيرموس (Firmus)، جيلدون (Gildon)، ماسكازال (Masczel)، مازوكا (Mazuca)، ديوس (Dius)، واخيرا سيريا (Cyria)، وكان كل واحد من هؤلاء الأبناء السبع له معتقده الخاص، فمنهم من تشرب بالثقافة اللاتينية فاصبح كاثوليكيا مثل ماسكازال، ومنهم من اختار أن يكون معارضا لروما فاختار أن يكون دوناتيا مثل فيرموس وجليدون. للمزيد من المعلومات ارجع إلى: Laporte, J. P., 2010, p.p. 982-987.

** حسب المعلومات المتوفرة من مقال لجون بيير لبورت (Jean-Pierre Laporte) ، فان القبيلة تنتمي إلى منطقة جبال البيبان، وقد نجح الرومان في إيصال الثقافة اللاتينية إليها إذ أصبحت نموذجا للرومنة، وقد اعتنق معظمها المسيحية، واتسم نوبل بالوجاهة والقوة، وحمل لقب ملك (Rugulus)، إذ كلفته روما بقيادة إحدى وحدتها العسكرية وهي (Equites Armigeri juniores)، وامتد نفوذ القبيلة من وادي الشلف غربا إلى الصومام شرقا بانتشار أملاك الأسرة الحاكمة فيها. للمزيد من المعلومات انظر: Laporte, J. P., 2010, p. 981.
بشاري، م. الح.، 2012، ص.ص. 247-248.

659 بشاري، م. الح.،2012، ص. 247.

الموريين وجاهة وقوة، إلى عالم الأموات في حدود العام 370م[660]، وإلى غاية إعطاء فيرموس لنفسه حق الموت بالشنق.[661]

يختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في هذا الصدد عن الأسباب والعلل التي دفعت فيرموس إلى الثورة، وعلى ما يبدو من سرد أحداث هاته الثورة أن أسبابها كانت ذاتية لا تمت بصلة إلى تحقيق أهداف تحريرية، وهذا استندا إلى ما قاله اميانوس:"نوبل أقوى الحكام المور آنذاك، قد وفته المنية، تاركا ورائه عدد من الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين، ومنهم زاماك (Zammac) الابن الشرعي[662]، الذي حضي بتزكية القائد الروماني رومانوس* (Comte Romanus)، وقع فريسة غدر أخيه فيرموس، مما دفع إلى الحرب مع الرومان."[663]

ولعلنا أمام تصرف لا يختلف عن سابقيه من إنشاء روما لقيادات محلية تمارس عليها وصايتها، كما حدث في حرب الثائر النوميدي يوغرطة، وهاته الإجراءات المتعلقة بضمان ولاء القيادات المحلية إنما أملتها ظروف روما على انعدام القدرة للسيطرة التامة والكاملة على الشمال الإفريقي الذي مثل مخزنا مهما من مواد غذائية وخام، إذ لا يمكن لروما التفريط بيه بأي شكل من الأشكال، فلذا كانت هذه السيطرة اقتصادية وسياسية أكثر منها عسكرية[664]، وهذا المنحى للسلطة الرومانية يؤكده كامبس بأن قيادة القبائل البربرية كان تحت سلطة مسؤول إمبراطوري (Preafectus gentis) في المناطق التي بسطت روما سيطرتها عليها، أما

---

660 Camps, G., 1998, p.2847 .

661 Ammien Marcellin, XXIX. V.2.54.

662 Laporte, J. P., 2010, p. 991.

*** مثل** رومانوس منصب كونت إفريقيا، وهو أعلى هيئة على الإطلاق بالمقاطعة، فهو قائد القوات الرومانية قاطبة بالمنطقة، وتغطي سلطته مساحة واسعة جدا من ملوية إلى حدود قورناي الفيلان التي تمثل نهاية افريقية، وبذلك فله مكانته التي توضع ما بين أهم الشخصيات في السلطة الرومانية، فكانت جهات كثيرة تخضع له وتأخذ أوامرها منه، ومنها قبائل الأهالي ومختلف القوات النظامية والمساعدة وجيش الحدود، أي انه باختصار يمثل اعلي سلطة بالمنطقة، وممن شغلوا هذا المنصب القائد رومانوس ذي السمعة السيئة، كما عرف عنه تدخله بقوة في الخلاف الدائر بين فيرموس ابن نوبل، وأخوه زاماك، ليصف إلى جانب زاماك ويتسبب في إثارة نزاع دام مدة ثلاث سنوات بين روما المتعاونة مع جيلدون من جهة وفيرموس من جهة ثانية. للمزيد من المعلومات انظر: Tauxier, H., 1890, "Le Comte Romanus", *R.A.F*, N 199, pp. 193-222.

663 Ammien Marcellin, XXIX. V.2.

664 Lugan, B., 2016. P. 97.

التي بقيت خارج السيطرة، تبقى تحت وصاية أصحاب الأرض، لكن ليس بعيدا عن السلطة في شبه الجزيرة الايطالية.[665]

المجال المناسب لاندلاع الثورة هو تصرفات قائد المقاطعة رومانوس، الذي عرف بعجرفته، وسوء تسييره للازمات، وتصرفاته التي كانت تصب في مجال المعاداة لمن كانوا تحت إمرته والداخلين في حلفه وحلف دولته، وبالمقابل وكأنه يحمي القبائل المعادية للسلطة الرومانية والمارقين عليها، أي انه يسير عكس ما كلف به[666]، مثل ما حدث في أزمة لبدة بما لا يخدم مصلحة روما، فظهر عمق الفساد الذي أصبح ينخر جسد الإمبراطورية[667]، لكنه لم يدخر أي جهد في التدخل في تولي عرش نوبل بعد وفاته[668]، ميينى (Gilbert Meynier) يختزل أسباب الانقلاب في العلاقات بين فيرموس والقائد رومانوس إلى الخلاف بين الأخوين زاماك وفيرموس، وتغليب رومانوس الكفة لصالح الأول[669]، ولم ير فيرموس هذا الدعم الذي لقيه أخاه زاماك من السلطة الرومانية الممثلة في شخص رومانوس من قبيل المساعدة البريئة التي لا تنطلي على أهداف خفية، ولذلك سارع لاعتراضها ووأدها قبل أن تأخذ الحجم الذي لا يمكن التحكم فيه.

وبالمقابل الباحث محمد الهادي حارش لا يقتنع البتة في ما ذهب إليه امنيانوس من مسببات للثورة، والتي يحصرها في تصرفات القائد رومانوس فقط، ويبدو أن حارش محق إلى حد بعيد، فمن السذاجة أن نحصر ثورة بحجم ثورة فيرموس في هذا السبب البسيط، وما يدفعنا إلى توسيع دائرة العوامل المفضية لذلك، هي بكل بساطة الوضع العام الذي كانت تعيشه إفريقيا جراء سياسة روما ومنها سياسة تفرقة الصف بين الإخوة الذين تحولوا إلى أعداء، بالإضافة إلى الوضعية الاقتصادية التي ما باتت تتفاقم مع مرور الزمن[670]، ويبدو أن

---

[665] Camps, G., 1998, p. 2845.
[666] Gibbon, E., 1828, tome 5, p.86.
[667] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.302.
[668] Camps, G., 1998, p. 2847.
[669] Meynier, G., 2007, p.161.
[670] حارش، م. اله.، 1993، "ثورة فيرموس 372-375 م"، *مجلة الدراسات التاريخية*، العدد الخامس، جامعة الجزائر 2، ص.11.

روما هي من دفعته إلى الثورة بعدما وضعته في قائمة المتمردين على السلطة[671]، إلا أن هاته الهبة قد زعزعت أركان الحكم في روما[672]، فتظارفت كل تلك الأسباب القريبة منها والبعيدة لتدفع بالثورة إلى الأمام، فأدركت روما أنها أمام وضع لا يقبل المجازفة فيه والتريث بل يجب التحرك بكل سرعة قبل أن تتفاقم الأوضاع في منحى يكون ضد مصالحها بالمنطقة، بما أنها هي من افتعلت المشكلة، مثلما يؤكده اميانوس بقوله:"لقد جلبنا لأنفسنا عدوا لا يمكن ردعه وإقناعه بالوسائل السلمية، ولذا فمن الحكمة أن نسرع في القضاء عليه قبل أن يوسع دائرة الضرر التي سيلحقها بمصالحنا بالمنطقة."[673]

كما نجد إشارة واضحة للباحث جون بيير لابورت بأحقية فيرموس في تولي العرش بعد وفاة والده نوبل، وفي هذا الصدد يسوق لابورت دليل اثري يؤكد ذلك بشكل غير قابل للتأويل، وهذا ربما هو سبب الخلاف بين فيرموس وأخاه زماك ومن ثم قائد المقاطعة رومانوس الذي يمثل السلطة الرومانية، أي أن الخلاف أصبح بين فيرموس من جهة ورأسا السلطة الرومانية من جهة أخرى، فيبدوا أن من سلب العرش هو الأمير زاماك بهمس ودعم من روما، وليس فيرموس فيما ترويه المصادر الأدبية وهذا الدليل يتمثل في إضافة اسم فيرموس بهذه الصيغة (Firme)، مع اسم والده نوبل على نصب إهدائي بقمة بني عيشة (Béni Aicha) قرب مدينة الثنية (Ménerville)، وهي بمثابة الوصية التي تركها نوبل وهو لا يزال حيا[674] ، حتى وان كان هذا الأخير نتاج علاقة غير شرعية.[675]

ونظرا لتصرفات فيرموس التي لم ترق لروما أرسل الإمبراطور فالنتيانوس الأول (364–375م) (Flavius Valentinianus Augustus) عام 373م حملة عسكرية بقيادة ثيودوسيوس[676]، وقبل أن يدخل ثيودوسيوس في معارك مع الأمير الموري، اتبع خطة لإقناع

671 Ammien Marcellin, XXIX. V. 3.
672 Akkache, A., 1973, p. 17.
673 Ammien Marcellin, XXIX. V.3 .
674 Laporte, J. P., 2010, p.p. 997-998.
675 Laporte, J. P., 2010, p. 991.
676 Ammien Marcellin, XXIX. V, 8. 9.

القبائل الإفريقية إما بعدم الانضمام للمقاومة أو على الأقل الامتناع عن دعمها، وقد لخص الباحث لابورت هذا الخطة فيما يلي:

– نشر الرعب والخوف بين الأهالي بانتهاج سياسة قائمة على تخريب المناطق التي يمر بها الجيش الروماني، وإعدام المحاربين والمتعاونين معهم، وإخضاع البقية.

– شراء ذمم أمراء وقادة القبائل بمنحهم وعود كاذبة.

– مساومة القبائل المحاربة بأسر عدد من أفرادها، واقتحام أخرى من اجل نفس الغرض.

– وضع ولاءات على رأس القبائل الخاضعة لضمان استمرار سلطة روما فيها.[677]

وما إن سمع الأمير المتمرد على سلطة روما وزبانيتها، بتولي ثيودوسيوس قيادة الحملة، إلا وأسرع إلى طلب الحوار لما كان يتمتع بيه هذا الأخير من سمعة في قهر أعدائه وتحقيق النصر المؤزر في حروبه، وأمام هاته التطورات لم يرى ثيودوسيوس بدا إلى أن يقبل بالحوار والتفاوض، ويرى إلى أين ستنتهي به الأمور لان بكل بساطة لم يكن فيرموس العدو الذي لا يخشى، وإلا لم يكن أمام القائد الروماني إلا مضى قدما فيما أتى من اجله وهو سحق مقاومة وتمرد فيرموس ولإظهار حسن نيته فيرموس والقبول بالتفاوض طلب ثيودوسيوس من القائد الموري إطلاق سراح أسرى الجيش الروماني، وفي القوت نفسه توجه ثيودوسيوس إلى ستيفيس لتجميع القوة اللازمة للدخول في الحرب[678]، ولم تكن للقائد الروماني نية في التفاوض، كما يتضح ذلك من مجريات الأحداث، بل كسبا للقوت للإعداد الجيد للدخول في الحرب.

وتتضح قوة الأمير الموري من حيث قدرته على الضم لصفوف الثورة كل من الخيالة الرماة المنتمين إلى المجوعة الرابعة، بالإضافة إلى جنود مشاة القسطنطينية والذين سيتعرضون إلى أقصى العقوبات بعد انتهاء النزاع، وهي الموت بسبب انقلابهم إلى صف فيرموس، وهذا ما اعتبرته روما خيانة لا تغتفر في حقها، وبالمقابل جند ثيودوسيوس الفرق

---

677 Laporte, J. P., 2002. p.293 .

678 Ammien Marcellin, XXIX. V, 8. 9.

الرابضة بإفريقيا وتحديدا شرق ستيفيس (سطيف حاليا) منها حسب لابورت الفرقة الثالثة الاوغسطية، بالإضافة إلى المجندين من أصحاب الأرض (consociato indigena milite)، كما أضاف ثيوسوديوس الجند التابعين لفيرموس في ولاية القيصرية بعد اجتياح المنطقة، وبهذا بلغ عدد من كانوا تحت إمرته حوالي 3500 جندي على أكثر تقدير، لكن هذا لم يكن ليكفي أمام عدد المجندين من قبل فيرموس وأخته سيريا (Cyria) فما كان أمام الرومان إلا الانسحاب بدل من المواجهة التي ستؤدي حتما إلى الانهزام.[679]

وتحت غطاء محلي، كما حدث مرات عديدة، تنصلت عن فيرموس اغلب القبائل الداعمة له ومنها قبيلة فليسة وزعيمها إجمازن (Igmazen) بالتفاوض مع ثيودوسيوس، وتشبه هاته المحادثات من اجل تسليم فيرموس والكيد له، بما حدث مع يوغرطة لما هم بوخوس الغدر به وتسليمه للعدو[680]، وبمساعدة أخ الأمير المتمرد جيلدون الذي لم يتوانى في كسر شوكة أخيه وقهره حتى قتل نفسه من حصرته بعد ثلاث سنوات من القتال وقد تنصل من دعمه من قبل، فبقي وحيدا فلم يرى إلا أن يتوارى عن الأنظار وأعطى لنفسه حق الموت.[681]

2-المجال الجغرافي لثورة فيرموس.

امتد فتيل ثورة فيرموس من موريطانيا السطيفية كمنبع لها، إلى أرجاء كثيرة من موريطانيا القيصرية، أي من أعالي سيتفيس (سطيف حاليا) مرورا بسواحل روسيكاد (Rusicade) (سكيكدة)، بعدها كارتناي (Cartennae) (تنس)، وإكوزيوم (Icosium) (الجزائر العاصمة)، ثم القيصرية (Caesarea) (شرشال)[682]، فأثار فيرموس ما كان يكنه الأفارقة من ضغينة اتجاه روما ومعاونيه، وتلقف سكان قبائل جرجرة، والقبائل المورية، وسكان مدن قيصرية، بالإضافة إلى قادة المذهب الدوناتي، نار العصيان والتمرد ضد روما، كما فتح أساقفة دوناتوس كنائسهم لثوار فيرموس متلقين الدعم المادي والمعنوي.[683]، لكن نجد ارنست

---

679 Laporte, J. P., 2002. p.p. 285-290.
680 La Croix, L., p. 89.
681 Lugan, B., 2016. P. 105.
682 Meynier, G., 2007, p.161.

683 حفناوي، ب.، 2016، ص.ص. 195-196.

مرسي (Ernest Mercier) يصف المنظمين إلى الثورة من قبائل والمظلومين من السلطة الرومانية وحتى الجند، أنهم تجتمع فيهم الرغبة في بث الفوضى ولا أمن في ربوع الشمال الإفريقي[684]، ويتضح من خلال هذا الحكم، تحيز الباحث ونيته في تشويه وإظهار الثورة أنها فعل مارق عن القانون.

كما تتضح ما مدى توسع دائرة المقاومة واشتعال لهيبها، من خلال القبائل الملبية لنداء الثورة والتمرد على روما وهي كما يذكر الباحث عكاش احمد:

_قبيلة يوباليني وافليسن (فليسة) بجبال جرجرة (Les Jubalenses et les Isaflenses Djurdjura).

_قبيلة ماسنيسانس أو امسيسن الواقعة على الضفة اليمنى من واد الصومام وتيدنسيس بسهوب الصومام ((Les Tydenses et les Massinissenses (Vallée de la Soummam).

_أولاد عيسى بمنطقة التيطري فيما يعتقد[685] ((Les Jesalenses (Titteri)).

_المازيكس بجبال زكار والنشريس ((Les Mazices (Zaccar et Ouarsenis).

_قبائل الموزوني ((Les Muçones (Bibans)، بين سيطيف والحضنة.

_قبائل الكابراريانس ((Caprarienses (Hodna) وتعني باللاتينية الشعوب التي تعيش في مناطق يكثر فيها حيوان الماعز، على حواف الأطلس الصحراوي، بحسب ما جاء به دوسانج (Desanges)، على أن الأمير فيرموس كان يتحاشى الاصطدام بها وعدم منازعتها ربما لأنهم كانوا محاربين أشاوس.[686]

كما يضيف عكاش إلى قائمة المناطق التي شهدت معارك خلال هاته المدة، كل من زوكابور (Zuccabor) مليانة، كستيلوم تنجيتانوم (Castellum Tingitanum) الشلف، أوزيا (Auzia) سور الغزلان، ويضاف إلى كل ذلك ما عثر عليه في مدينة قالمة من نقائش تحمل اسم فيرموس مما يبين وصولها إلى هناك[687]، كما نظيف خط الحملات العسكرية التي قادها ثيودوسيوس وهي في حدود خمس حملات متتالية.

---

684 Mercier, E., 1888, Tome I, p. 133.
685 La Croix, L., Paris, p. 89.
686 Desanges, J., 1992, « Caprarienses », *E.B,* 11, p. 1756.
687 Akkache, A., 1973, p.p 17-18.

- الأولى: انطلقت من جيجل متجهتا نحو بجاية ثم الجزائر فتيبازة إلى غاية شرشال.
- الثانية: مست كل من حوض الشلف ومرتفعات الونشريس والظهرة.
- الثالثة: امتدت إلى المناطق الداخلية وخاصة حول جبال كابرارنسيس (Monts Caprarnenses).
- الرابعة تركزت في منطقة البابور وسطيف وسور الغزلان.
- أما الحملة الخامسة: فقد شملت ضواحي سور الغزلان.[688]

كما أن الثورة لقيت تجاوبا ايجابيا من جل أفراد أسرة نوبل، فقد أيد كل من ديوس، ماسكزال، سيريا، ومازوكا أخوة فيرموس الفعل الثوري الذي أقدم عليه هذا الأخير، لكن بالمقابل تحالف جيلدون الذي ولد من نفس صلب الأب الذي أعطى الحياة إلى فيرموس وإخوته وتربى فيما بين جدران نفس البيت الذي آواهما في الصغر، مع الرومان، فنال جزاء ذلك الألقاب والرتب، منها قائد القوات، ولقب أيضا بالرجل الشريف (Vir spectabilis)[689]، لكن هذا ليس حبا في جيلدون إنما لاستخدامه ضد بني جلدته وبقاء الرومان بعيدا عن مسرح الأحداث والوقوف موقف المشاهد، وخدمة لمصالحها بالمنطقة.

وبالرغم من عدم تحقيق النصر، وفشل هاته الثورات عسكريا، إلا أن رمزية الفعل الثوري تبقى هي الأكثر حضورا بين سكان الشمال الإفريقي، وتجلت من خلال استمرارية المقاومة ورفض الخضوع للأجنبي عبر العصور والأزمنة المتعاقبة.

[688] فوكة، م.، 2014، ص. 19.
[689] بشاري، م. الح.، 2012، ص. 248.

الفصل السابع

استيلاء الوندال على إفريقيا وتراجع الرومان

1-التعريف بالوندال.

2-ظروف الغزو والاستيلاء على إفريقيا.

3-رد فعل السكان الأصليين من الغزو.

4-مناطق النفوذ الوندالي بإفريقيا.

5-زوال الاحتلال الوندالي في إفريقيا وحلول البيزنطيين بدلهم.

المطاف الذي وصلت إليه روما في إفريقيا هي بداية النهاية التي ستتكلل بنجاح الوندال بالمرور إلى شمال إفريقيا عبر هيسبانيا، وطرد الرومان منها ابتداء من عام 429م إلى غاية عام 455م بالقضاء نهائيا على سيطرة روما إفريقيا[690]، والتي كانت نتيجة حتمية بعد العرض الذي استوفيناه عبر ست فصول من هذا العمل، فبدا واضحا الضعف الذي الم بالإمبراطورية الرومانية التي لم تقدر أن تجدد من ميكانيزمات اقتصادها المتهالك انجر عنه تفسخ اجتماعي متلاحق، حتى وان يرى من يدافع عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية أمثال أندري بيقانيول (André Piganiol) أن نهاية روما كانت على يد الشعوب المجاورة من البرابرة، فهي كانت بنسبة له بمثابة عملية قتل أي بفعل فاعل، ولم تكن على ما يعتقد من تضافر عدة عوامل داخلية، لكن الحقائق التاريخية تثبت عكس ذلك تماما[691]، وواقع الأمر يفرض أن ترتبط كل المستعمرات الرومانية بما فيها إفريقيا بوضع روما المتردي، والذي أجاد الباحث العود محمد الصالح في رسم معالمه بقوله:"كان المجتمع الروماني إبان القرنيين الرابع والخامس صورة معبرة للتحلل والانهيار، حيث سادت الفوضى الفكرية، واليأس السياسي، والفقر الاقتصادي، والظلم الاجتماعي، والتسلط البيروقراطي، والنظم المتحجرة التي لم تتطور."[692] ويأتي هذا الفصل ليظهر كيف تم القضاء على الوجود الروماني بالشمال الإفريقي، وبداية حقبة جديدة من تاريخ المنطقة بحلول الوندال، وتجاوب السكان المحليين لهاته المستجدات، وانعكاساتها على كامل مستويات الحياة للأهالي.

1-التعريف بالوندال.

في دراسة مستفيضة عن الوندال يُظهر كلود بورجوا (Claude Bourgeois) السمعة السيئة التي يتمتع بها هؤلاء، حتى أن التسمية في حد ذاتها ارتبطت بالتخريب والنهب

[690] حارش، م. ه.، 1992، ص.242.

[691] Meynier, G., 2007, p.147.

[692] العود، م. الص.، 2016، "التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والدينية في بلاد المغرب القديم خلال الفترتين الوندالية والبيزنطية"، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 2، ص.29.

"الوندالية"* (Le vandalisme)، فاغلب المهتمين بالشأن الوندالي ترسخت لديهم الصورة النمطية على أنهم شعوب متوحشة تتمتع وتستلذ بإلحاق الأذى بالغير أي أنها شعوب (سادية)[693]، ويجمع اغلب الباحثين على أن موضوع الوندال تم تناوله بشيء من الحساسية والمبالغة الزائدة عن اللزوم، وأن حقيقة الأمر لا تختلف عن باقي الشعوب التي تعرضت لامتحان الحرب، إذ لا تنطلي هذه الأخيرة على روح الإنسانية والرحمة بالأعداء ومثال ذلك ما حدث مع الاشوريون أو غيرهم من الأمم عبر الزمن، فهي تشهد أبشع حالات البشر وحشية والخروج عن قوانين الطبيعة والعدالة، وإنما ما ثبت عن الوندال عدم التسامح أمام كل أشكال المقاومة التي تعترض طريقهم، كما مارسوا عملية الانتقام والعقاب الجماعي من المدن التي قُتل فيها رفاقهم، ولا يستثنون في ذلك أحدا سواء أكان شيخا طاعنا في السن أو طفلا رضيعا، ولا حتى أصحاب المقام من وجهاء تلك المدن، فكلهم في كفة واحدة أمام عدالة الوندال، وكانوا حسب جيبون :"يتسمون بروح ثائرة مدمرة."، لكنه بالمقابل يدحض أغلب ما جاء عن الوندال من روايات لا يقبلها العقل والمنطق، ومثال ذلك ما أتى عن عادتهم انتزاع كل أشجار الفواكه للأوطان التي مدوا يدهم عليها وعزموا البقاء بها، وهذا يتنافى مع النية في الاستيطان والاستغلال،- ثم يضيف – ما جاء عن حروبهم أنهم يذبحون أسراهم أمام المدن المحاصرة كي ينشروا الوباء بين أعدائهم بتلويث الأجواء، لكن يتساءل عن إمكانية أن يبقى الوندال في منأى من ذلك، ويجيب بشكل منطقي وقطعي على أنهم سيكنون أول ضحايا فعلهم هذا[694]، حتى أن بعضهم حصر حياتهم في النهب والتخريب كما جاء في مؤلف جيارًا (Guaillardin)[695]، ويرجع الباحث فايز نجيب اسكندر هذا التحامل المفرط فيه على الوندال، ممن عايشوا فترتهم وكتبوا عنهم القليل أو الكثير، أمثال فيكتور

* في عام 1974 م وفي خضم الثورة الفرنسية حيث كثرت أعمال العنف ضد الأديرة والكنائس، أُعتمد مصطلح "الوندال" من رئيس الدير جريجوار (L'abbé Grégoire)، للدلالة على جماعة من البشر أو شخص عدواني ويتسم بعنف لا نذير له. انظر: Clavé, Y., 2017, p. 318.

693 Bourgeois, C., 1980, « Les Vandales, le vandalisme et l'Afrique », *Ant.fr*, 16, p.213.

694 جيبون، إ.، 1828، الجزء الثاني، ص.172.

695 Gaillardin, M., 1838, *Histoire du moyen âge*, Tome 1, Paris, p.35.

دوفيتا* (Victor de Vita) أو بوسيديوس (Possidius) أسقف قالمة (Calama) وفراندوس أسقف قرطاجة (Ferrandus de Carthage)، وكذلك بروكبيوس (Procopius)، أو غيرهم هو من قبيل عدم وجود مؤرخ وندالي ينصفهم ويروي حقائقهم دون تحامل زائد عن اللزوم[696]، ولدى جوليان نفس الرأي حيث يقدم دراسات المهتمين بالشأن الوندالي من القدامى والمحدثين ، نظرا لان من نقل تاريخهم همو بكل بساطة أعدائهم أو من تعرضوا لبطشهم، وبالتالي لا يمكن أن نتوقع الموضعية والإنصاف[697]، وتتكون لدى الباحثين نظرتين واحدة محلية والأخرى أجنبية وبالتالي يمكن أن تطفوا الوقائع التي تجانب الحقيقة. فمثلا فكتور دي فيتا يروي مرور الوندال إلى الشمال الإفريقي، وهو يتحصر إلى ما آل إليه بقوله:" قد وجدوا الولاية تنعم في السلم والاستقرار، لكن جحافل الهمجية قد عاثت فسادا في هذه الأرض الطيبة، مدمرين، دافعين بسكانها نحو الهجرة القصرية، ناشرين للرعب بإضرام النار في كل مكان وقتل من اعترض سبيلهم، حتى الأشجار المثمرة لم تسلم من همجيتهم."[698]، لكن يان لوبوييك (Yann le Bohec) يضع هاته الشهادات لفيتا في قفص الاتهام وتحت المحك ويتهمه بعدم الموضوعية في تناول حقيقة الوندال، ولا يمكن اخذ ما كتب على محمل الجد لأنه بكل بساطة روماني بدرجة أولى، ثم بدرجة ثانية ذو عقيدة تختلف عن عقيدة الوندال فكان من النيسيين (Nicéen)، حتى وان كان في آخر المقال يقر بأن الوندال هم من الهمج الذين لايحكمهم قانون ولا ضمير متماهيا في ذلك مع رأي كورتوا (Christian Courtois) ودي فيتا و أمثالهما ، لكن لم يصل لوبوييك إلى هاته القناعة إلا بعدما ساق ما كان عليه

---

* فيكتور دوفيتا أحد رجال الدين المسيح بمدينة قرطاجة، ولد بمدينة بيزاسيوم المزاق بتونس الحالية قرب مدينة القيروان لربما عام 440م، تمثل الأحداث التي سردها عن اضطهاد المسيحيين الكاثوليك بمثابة شهادة عيان لما حصل للأفارقة في الفترة الوندالية، ولذا تمثل أعماله احد أهم المصادر للفترة التي عايشها، ويغطي مؤلفه الأحداث التي مرت بها إفريقيا من عام 429م سنة مرور الوندال إلى الشمال الإفريقي بقيادة جنسريك إلى غاية وفاة هونريك عام 484م. انظر: Lancel, S., 2000, « Victor de Vita, témoin et chroniqueur des années noires de l'Afrique romaine au Ve siècle », *C.A.R.I*, N 4, pp. 1199-1219.

العود، م. الص.، 2010، *التحولات الحضارية في شمال إفريقيا في الفترة الوندالية 429-534 م*، قسنطينة، ص. 96.

[696] إسكندر، ف. ن.، 2006-2007، "الشمال الإفريقي في عهد الوندال"، حوليات التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الخامس، القاهرة، ص. 143.

[697] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.321.

[698] Victor de Vita, *Histoire de la persécution vandales*, I. I, numérisé par Marc Szwajcer.

كل جنود الأمم السابقة من عادات لما يحقق هؤلاء النصر على خصومهم، حتى الجيش الروماني هو الآخر لا يستثنى من ذلك، وهذا باقترافهم جرائم ضد أعدائهم، قتلا ونهبا وحرقا، ومنها حريق قرطاجة الذي أقدم عليه الرومان بعد انهزام القرطاجيين، وهذا ما يعني أن كل تلك الأمم كانت في كفة واحدة من الهمجية عندما يتعلق الأمر بالحروب والمعارك.[699]

وهم في حقيقة الأمر شعوب اختلطت ونهلت من بعضها البعض عبر العصور والأزمنة المتعاقبة، ، وتغلب عليها فيما يعرف عنها اللغة الجرمانية، ظهروا على مسرح أحداث التاريخ الأوروبي بداية من 31 ديسمبر من عام 406م[700]، لما بدؤوا في استكشاف مغاور القارة العجوز باجتياز نهر الراين* (Le Rhin)[701]، وقد أجتهد البعض من الباحثين على إيجاد أصل للتسمية، فمنهم من ارجع أصولها إلى علم المواقع، فرآها اقرب إلى منطقة ببلاد السويد تعرف بوندل (Vendel)، والبعض الأخر رجح أن يكون مرجعها اعتمادا على الدراسات اللغوية، على أنهم شعوب من الدانمركيين وليسوا على الإطلاق من السويد، وبين هذا وذاك لا يمكن الجزم بصحة تلك الفرضية أو هاته[702]، لكن الثابت في هذا الجدل كله وحسب ما ترويه وتوثقه المصادر الأدبية، أنها قبائل نزحت من بحر البلطيق**، وقد استقرت

---

699 Le Bohec, Y., « Le visage de la guerre pour les civiles dans l'antiquité Victor de Vita et les Vandales », *B.A, Ant. Clas*, p. 237.

700 Bourgeois, C., 1980, « Les Vandales, le vandalisme et l'Afrique », *Ant.Afr*, p.216.

* الراين من بين أهم وأطول الأنهار التي تجري بأوروبا، يخترق عدة دول بدءا بسويسرا حيث ينبع من الجليد المتواجد في أعالي جبال القديس قوثار (Saint-Gthard)، ويتغذى أيضا من مجاري تنبع من الألب، ليصل إلى بحيرة كونستانس (Le Lac de Constance) ثم يخترق الحدود بين فرنسا وألمانيا، ومن ألمانيا إلى الأراضي المنخفضة ليصب ببحر الشمال، يحتل مكانة اقتصادية مهمة خاصة بالنسبة للمدن التي يمر بها مثل بال (Bale)، ستراسبورغ (Strasbourg)، مايونس (Mayence)، كولون (Cologne)، يتصل بشكل طبيعي مع انهر أخرى مهمة بفرنسا وألمانيا وهولندا، منها الموزيل (La Moselle)، لومان (Le Mein)، لموز (La Meuse). للمزيد من المعلومات عد إلى: De fontaine, A-J-Ch., 1833, *Des travaux du fleuve du Rhin*, Paris, p.3.

701 Morazzani, A., 1966, « Essai sur la puissance maritime des Vandales », *B.A.G.B : Lettres d'humanité*, N 25, Paris, p. 542.

Le Bohec, Y., 2018, « La conquête de l'Afrique romaine par les vandales (429-439 après J.-C.) », *Revista de Historia Antigua*, p.110.

702 حارش، م. ه.، 1992، ص. 233..

** يكاد يكون البلطيق بحر مغلق لأنه محاط باليابسة من كل جهاته كالجزر الدانمركية، وأوربا من الشمال والشرق والجنوب، بالإضافة إلى شبه الجزيرة الاسكندينافية، وهو قليل العمق أقصى حد له 460 متر، تتربع على مساحته 415000

في القرن الأول للميلاد بسهول الأودر* (Oder)، والفستول الأعلى (Vistule supérieure)، وما كاد القرن الثاني يحل حتى تفرقت شيعا لمدة قرنين من الزمن لما داهمها القوطيون** (Goths)، ثم التحمت من جديد في منطقة الراين بعدما تشكل منها فرعين هما سلينخ (Silings) وهستنخ (Hasdings)[703]، وبعدما الحقوا الدمار بغالة واجتازوا البرانس (Les Pyrénées) ثم استقروا بهيسبانيا وأسسوا بها ثلاث ممالك اتحدت مع بعضها لاحقا، لكن القوط الغربيون زعزعوا أركانها مرة أخرى وأرغموهم على الهجرة نحو الضفة الشمالية للمتوسط عام 429م.[704]

2-ظروف الغزو والاستيلاء على إفريقيا.

لم يتلقى الوندال أي مقاومة تذكر من الأهالي في بدايات التغلغل في الشمال الإفريقي ولربما هذا يعزى إلى حالة التذمر للسكان الأصليين من الرومان وأتباعهم[705]، حتى أن الرومان أنفسهم فضلوا أن ترفع روما يدها عن المنطقة وباركوا هذا الغزو الذي يصب إلى حد ما في مصلحتهم بعدما ضاقوا ذرعا من قساوة السلطة الرومانية، ومنها ثقل الضرائب التي كادت أن تنقلهم إلى دائرة الفقر[706]، أي أن سكان إفريقيا كانوا يرون في الغازي الجديد

كلم، تصب فيه سبع انهر بمعل 480 كلم مكعب من المياه العذبة، وهي نيفا (Neva)، الفيستول (Vestule)، دوجافا (Daugava)، اوناس (Nem unas)، كيمي جوكي (Kemijoki)، الأودر، وقوطا الف (Gota alv). للمزيد من المعلومات انظر: Iolanda, o., Massoud, S., Valkunas, L., Zlatnansky, J., 2001, « La Baltique, mer dynamique », *Bulletin AIEA*, Autriche, p.10.

* الأودر من انهر أوروبا الوسطى، يبلغ طوله 854 كلم، يمرعلى كل تشيكوسلوفاكيا ثم بولونيا وألمانيا ليكون حدا طبيعيا بينهما، ويصب ببحر البلطيق، كما يعد ثاني اكبر نهر في بولونيا بعد نهر الفيستول. انظر: العود، م. الص.، 2010. ص.61.

** بالرجوع إلى العادات والتقاليد الممارسة من شعوب القوط يرجح أن تكون أصولها من القبائل الجرمانية هي الأخرى، وترجع اصولها الى المنطقة الاسكندنافية، وعرفت بحروبها مع الإمبراطورية الرومانية بداية من القرن الثالث الميلادي، مما أدى إلى أن تنقسم إلى قسمين هم قوط الشرق وقوط الغرب. للاطلاع على المعلومة عد إلى: العود، م. الص.، 2010، "التحولات الحضارية في شمال إفريقيا في الفترة الوندالية 429-534 م"، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، ص.30.

[703] جوليان، ش. أ.، 1931، ص. 322.

[704] Guizot, M., 1851, *Histoire des origines gouvernement représentatif en Europe*, Paris, p.39.

[705] Meynier, G., 2007, p.175.

[706] أيت عمارة، و.، 2014، "مقاومة الأفارقة للتواجد الوندالي في إفريقيا"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 9، جامعة معسكر، ص. 280.

مخلص لهم من الوضعية التي وضعهم فيها الرومان، أو هي بكل بساطة عملية انتقام لا أكثر.

الباحث يان لوبوييك يطرح جملة من التساؤلات، قد تلخص كل ما يجب معرفته عن دواعي وظروف المرور من الضفة الشمالية للمتوسط إلى الضفة الجنوبية منه، واتت هذه التساؤلات على النحو التالي: لماذا قام الوندال بهذه الرحلة تحديدا؟ متى وأين؟ في أي الظروف تم العبور؟ وما رد فعل الجيش الروماني اتجاه هاته الأحداث، وما هي التدابير التي قام بها للتصدي لعملية الغزو؟[707]

تتلخص ظروف عبور الوندال إلى السواحل الغربية لإفريقيا بإمرة ملكهم جنسريك* (Genséric)[708]، والذي اتخذ قرار منذ عام 439م بإقامة مملكة لشعب الوندال في ما كان من قبل مملكة قرطاجة بعد الاستيلاء عليها، وما إن حل عام 442م حتى وضع الوندال يدهم على كل ما كان تحت حكم الرومان بموجب اتفاقية تنص على مد النفوذ الوندالي من قادش إلى معبد الفيلان.[709]

والواقع أن دوافع الوندال بالمرور إلى الضفة الجنوبية للمتوسط قد أملاها الوضع الاقتصادي الذي كانت تعيشه إفريقيا، من رفاه ووفرة في الإنتاج، مثلما يصوره جيبون قائلا:" فلقد كانت المنطقة آهلة بالسكان، وكان هؤلاء السكان يحتفظون بقدر وفير من المواد الغذائية لاستعمالهم الخاص، ويصدرون سنويا وخاصة القمح، كميات كبيرة وبصورة منتظمة

---

707 Le Bohec, Y., 2018, p.p.111, 112.

* على الأرجح يكون جنسريك من مواليد عام 389م بمقاطعة بانونيا (Pannonia)، وعليه قد يكون قد بلغ عمر العشر سنوات لما عبر شعب الوندال نهر الدانوب بقيادة أخاه الملك جنثاريك (Guntharic)، وتحقق غزو غالة مع شعوب أخرى (Alains) و (Suèves)، ثم احتلال هسبانيا عام 409م، إلا أن دور جنسريق لا يظهر في هاته الأحداث ولا يعلم أثره في الخراب اللاحق بتلك المقاطعات، وتبدأ المصادر تتحدث عنه منذ عام 428م، لما اعتلى العرش وهو ابن الأربعين، كان يعاني من العرج بسبب سقوطه من على صهوة جواده، وهوقصير القامة وممتلئ، سريع الغضب لكن كان شديد الذكاء والفطنة. للمزيد من المعلومات عد إلى: Modéran, Y., 1998, « Genseric », *E.B*, N 20, Aix-en-Provence, p.1.

708 Modéran, Y., 1998, p.p.1-2.

709 أيت عمارة، و.، 2015، "التجارة ومواردها في إفريقيا الوندالية"، عصور الجديدة، العدد 16-17، جامعة وهران، ص. 9.

حتى استحقت إفريقيا اسم المخزن العام للحبوب بالنسبة لروما وللجنس الإنساني."[710]، يضاف إلى ذلك ما عاناه الوندال من حروب غير منتهية مع الرومان والقوط الغربيون (Wisigoths)، وتضييق الشعوب الأخرى عليها، حتى حلفاء الأمس مثل السياف* (Suèves) أصبحت لهم أطماع في مناطق نفوذهم، مما دفعهم عام 420م للاستقرار في جنوب هيسبانيا (Bétique)، والذي دام مدة عشرون سنة[711]، ما بين الانتقال من غالة إلى الشبه الجزيرة الأيبيرية خلال الفترة الممتدة بين 409 و429م[712]، أي أن الأمر لم يعد يحتمل على كامل الأصعدة، ومما حمس الوندال أكثر على غزو شمال إفريقيا بالإضافة إلى كل ما سبق، طلب بونيفاسيوس والي إفريقيا مساعدة جنسريك مما لفت أنظاره إلى الضفة الجنوبية، التي تهنأ بالاستقرار أكثر من أي منطقة قريبة، وقد منحهم القائد الروماني المتمرد صكا على بياض للمرور إلى المنطقة.[713]

وفي هذا الصدد يطرح لوبوبيك كباحث يجب أن يرصد كل الاحتمالات الواردة للوصول إلى الواقعة الأقرب إلى الحقيقة، عن شخصية بونيفاسيوس ودعوته للوندال لمؤازرته على المحك، عارضا الآراء المتناقضة عن وطنية الرجل من عدمها، أمام هذا الموقف الذي يشكك الباحثون أيضا في وقوعه فعلا، ويخلص في الأخير إلى أن الأمر يستدعي الحيرة والاندهاش، وأمام احتمالية وقوع هذا الطلب مما دفع بلبوبيك أن يضع القائد الروماني إما في خانة الخيانة أو بدرجة اقل تحت طائل الغباء، أو احتمالية اجتماع الصفتين معا في شخص

---

710 جيبون، إ.، 1828، الجزء الثاني، ص.ص. 171-172.

* تؤكد الدراسات التاريخية بأصولها الجرمانية، حتى وان ظهر اختلاف بين الباحثين في اعتبارها شعب ينفرد لوحده بخصائصه الاثنية والمرفولوجية أو اعتبارها فرع من الفروع المنحدرة من المجوعة الجرمانية، والتي استقرت بداية من حكم الإمبراطور الروماني أغسطس بالمناطق الخصبة بدواخل جرمانيا أي ألمانيا حاليا، والتي عرفت بخصوبة أرضها ومناعة حدودها بما وفرته طبيعتها الجبلية والغابية من حصانة، ويمثل السياف أحد أقدم الفروع المنتسبة للعائلة الجرمانية، والتي ضاقت عليها المناطق الشمالية لجرمانية مما دفع بها للهجرة نحو غالة، زمنها إلى هسبانيا لتصدم بالوندال هناك. للمزيد من المعلومات انظر: Moke, H. G., 1837, « Des principales branches de la race germanique », *Archives historiques, philosophique et littéraire*, Tome 1, Belgique, p.p. 348-355.

711 Lancel, S., 2002, « L'Afrique Vandale », *Clio*, Paris, p.1.

712 Le Bohec, Y., 2018, p. 110.

713 Modéran, Y., 1998, p.2.

بونيفاسيوس، والذي سيكلفه الكثير ويرجع عليه بالحسرة والندم[714]، غير أن كورتوا يستبعد أن يكون قرار بونيفاسيوس هو السبب الرئيسي من وراء غزو جنسريك للمنطقة[715]، ومن تداعيات هذا القرار غير المحسوب العواقب، أن القسمة التي رضي بها القائد الروماني حيث احتفظ بنوميديا بالإضافة إلى افريقية من السرت الصغير إلى غاية الامبساقا (L'Ampsaga) (الوادي الكبير)، لكن طموحات جنسريك لم تتوقف عند هذا الحد مواصلا تقدمه[716] ، كما أن الأمور نحت باتجاه المصالحة ولم الشمل بينه وبين بلاسيديا (Placidie)[717]، فتراجع بونيفاسيوس عن هذا التحالف مطالبا الوندال بمغادرة موريطانيا حتى انه وظف الإغراء المادي باقتراح مبلغ من المال دون ادني جدوى[718]، ما اعتبره جنسريك بمثابة اهانة يجب الرد عليها بالحرب على حليف الأمس، وهذا ما كان بالفعل[719]، فتلقى القائد الروماني الهزيمة على يد الوندال ما بين قالمة وهيبون[720]، ويصور الباحث جيارد هذا المشهد القاسي والذي يضاف إلى قائمة الأعمال الهمجية لجماعة الوندال قوله:

لما طلب بونيفاسيوس من الوندال مغادرة موريطانيا، أثار غضب جنسريك واعتبرها بمثابة الاهانة التي لا يجب التغاضي عنها بأي حال من الأحوال، وكان رده قاسيا بحرب مدمرة، فقتل كل من اعترض طريقه، واقتلع الأشجار، وحطم الحقول، فمات كل من تحصن في الكهوف والمغارات جوعا، حاصر

---

714 Le Bohec, Y., 2018, p. 112.
715 Le Gall, J., 1957, « Christian Courtois. Les vandales et l'Afrique », Compte rendue, *R.B.P.H,* Tome 35, p. 443.
716 Ludwig, M., 1836, *Histoire des Wandales: depuis le première apparition sur la scène historique jusqu'à la destruction de leur empire en Afrique,* Paris, pp. 143-144.
717 Gibbon, E., 1819, Tome 6, Chapitre XXXIII, p. 205.
718 Théry, M., 1870, « Etude sur un chapitre de l'histoire du V siècle », *Mémoire de l'académie impériale des sciences, arts et belles-lettres de Caen,* Calvados, p.212.
719 Meynier, G., 2007, p. 175.
720 Mercier, E., 1888, Tome I, p. 144.

القلاع إلى حد الدمار، اعدم السجناء، فكان الانهزام حليف بونيفاسيوس، الذي لجأ إلى هيبون للتحصن.[721]

حيث قضى القديس أوغسطينوس نحبه خلال هاته المحنة في أواخر أوت من عام 430م وهو ابن سادسة والسبعون ربيعا[722]، ودام حصار هيبون مدة أربعة عشر شهرا بعدها فتحت أبوابها مستسلمة لجنسريك وجنوده شهر أوت من عام 431م، وبعد مصرع بونيفاسيوس لم يبقى للرومان سوى الاتفاق مع الوندال وكان ذلك عام 435م، حيث سيطر الوندال على كل من الموريطانيات الثلاث بالإضافة إلى جزء من نوميديا، وبالمقابل أرسل جنسريك ابنه هونريك* (Hunérich) كرهينة لروما وتعهد بدفع غرامة سنوية، ولم يعمر هذا الاتفاق سوى أربع سنوات، بعدها سيسترجع جنسريك ابنه ثم يتخلي عن الاتفاق بمعاودة الغزو، فاستولى على قرطاجة عام 439م على حين غفلة من أهلها[723]، فكان ما كان من تدمير وتخريب اظهر ما تحز بيه نفس جنسريك من كراهية وضغينة اتجاه كل ما هو روماني، فطال التخريب المسارح ودور العبادة وطرد رجال الدين الكاثوليك، ثم استمر الغزو إلى باقي المناطق الأخرى[724]، وكان اتفاق 11 فيفري عام 435م بمدينة عنابة بين جنسريك ومفاوض الإمبراطور تريجاتيوس (Trigétius)[725]، بمثابة الهدنة التي تسبق الحرب، من اجل

---

721 Gaillardin, M., 1838, Tome 1, p. 35.

722 Meynier, G., 2007, p. 175.

* هونريك الابن الأكبر لملك الوندال جنسريك، لكن المصادر المتوفرة لم تتطرق لتفاصيل حياته قبل اعتلاء العرش عام 477م بعد وفاة والده، ويعتقد ان يكون في حدود الخمسين عاما لما وصل الى الحكم، كورتوا يصفه انه الشخص الذي أثرت فيه الرومنة إلى حد ما لأنه بكل بساطة قد ترعرع في إفريقيا، كما بقي أسير بقصور روما لمدة معينة، تزوج إحدى بنات الإمبراطور فلينتيانوس الثالث اودوسي (Eudocie)، التي على ما يبدوا أنها لم تكن راضيا بهذا القران، لذا في عام 472م فرت من قرطاجة إلى بيت المقدس وماتت هناك، وتوثق المصادر أبشع الجرائم في عهده حتى وان هونريك تبنى سياسية مهادنة وتخلى عن الغزو لكي يوسع دائرة نفوذه كما عهدنا ذلك مع والده، بل سعى للحفاظ على ما ورثه دون الدخول في نزعات مع روما أو الأهالي، إلا أن فترته افتتحت ببداية ثورات الأفارقة ضد التواجد الوندالي ومنها ثورة الأوراس، وفي خضم وباء الم بالمنطقة سينتقل هونريك إلى عالم الأموات عام 484م. للمزيد من المعلومات انظر:
Courtois, Ch., 1955, p.p. 262-265.

723 أيت عمارة، و.، 2014، ص.ص. 280-281.

724 Gaillardin, M., 1838, Tome 1, p. 38.

725 Mercier, E., 1888, Tome I, p. 145.

إعادة ترتيب الشؤون العسكرية، لمواصلة المشروع التوسعي والاستيطاني الذي جاء الوندال من اجله.[726]

ومن جهة أخرى، فإن ما كان من قوة روما البحرية التي كان يضرب بها المثل لما أحكمت سيطرتها على كامل حوض البحر المتوسط عام 30 ق.م، وأضعن لها كل شعوبه، أصبحت هذه القوة البحرية لا تفي حتى بغرض الدفاع وصد هجوم الوندال الذي بات المتفوق الوحيد في الجزء الغربي للمتوسط[727]، أي وبكل بساطة تبدوا إفريقيا أمام قلة دفاعاتها لقمة سائغة للشعب الوندالي المتعطش للغزو والاحتلال وخاصة انه لم يعد له امن ولا استقرار في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد قرار القوط الاستيلاء عليها[728]، وفي خطوة جريئة قام جنسريك وهو قريب العهد بالملك، أي في حدود شهر ماي من عام 429م على الدفع بشعبه مع ما تبقي من شعب الألان* (Alains) الذين مروا بامتحان الحرب ضد القوط وسّحقوا فيها عام 418م، على ظهر قوارب وسفن تجارية استولوا عليها من خصومهم، انطلاقا من جزيرة طريفة** (Tarifa) في الجنوب الهيسباني بمقاطعة قادش إلى مدينة طنجة المغربية، نحو مغامرات جديدة تنتظرهم بشمال إفريقيا التي أبرقت لهم بعهد مملوء بالرفاهية ورغد العيش، وقد كانوا حوالي الثمانون ألف شخص بين عسكري وشيخ وامرأة وطفل، متوجهين إلى الشرق من طنجة[729]، لكن كانوا في قلة من جندهم[730]، إذ تتضارب الأرقام

---

726 Le Bohec, Y., 2018, p. 133.

727 Morazzani, A., 1966, p.p. 439-542.

728 Le Bohec, Y., 2018, p. 112.

* الألان هم شعوب تنحدر من المناطق السهبية ببلاد الفرس، وقد اختلطت بأجناس أخرى انحدرت من جبال القوقاز منذ أكثر 1500 سنة خلت، والتي تستل منها الشعوب القوقازية الحالية، وقد مارس الألان حرفة الرعي طبقا للمناطق التي نشأوا فيها، وهي حسب الدراسات الانثية من أقدم العناصر التي عاشت بالقسم الشمال للقوقاز جانبا الى جنب مع شعب الكوبان (Kobane)، الذي تتحد معه في العادات والصفات الخلقية إلى حد كبير. للمزيد من المعلومات انظر: Kovalevskaja, V. B., 1989, « Le Caucase et les Alains » *D.H.A*, Vol 15, N 2, p.p. 359-.372.

** تقع طريفة على مرمى حجر من مدينة طارق الاسبانية، في المضيق المقابل لها وتتصل باليابسة بحزام من الحجارة على طول الجهة الغربية بمسافة ثمان كيلومترات، وتتميز بضحالة مياهها من الناحية الشرقية التي تعيق حركة مرور السفن وتشكل خطورة عليها. لمزيد من المعلومات انظر: Cuvillier, A., Bouin, Ad., 1845, *Essai d'un dictionnaire des principaux ports et mouillages,* Paris, p.159.

729 Modéran, Y., 1998, p. 2.

730 Carcopino, J., 1956, « Les Vandales et l'Afrique », V, *Revue des deux monde,* p.231.

بين عشرون ألف جندي[731]، وخمسون ألف، لكن الوضع لم يبقى على حاله بل تضاعف العدد بالتحاق الأفارقة المتذمرين من السلطة الرومانية والحانقين عليها. [732]

وإزاء العدد المعتبر للعابرين بين الضفتين للمتوسط، أي في حدود الثمانون ألف نفس كما تشير المراجع التاريخية، ورغم قصر المسافة، إلا أن البعض من الباحثين قد استهوته طريقة العبور والإمكانات التي رصدت لها، علما أن الوندال لم يكتسبوا خبرة بحرية من قبل ولم يكن لديهم أسطول بحري يفي بالغرض[733]، فكورتوا حسب لوبوبيك يميل إلى الاعتقاد أن الوندال قد استعانوا لنقل من تبعوهم في هاته المغامرة، خمس مائة قارب من الحجم الصغير يتسع كل واحد منها لخمس أشخاص لا أكثر، يقوم بعملية إنزال والعودة إلى مكانه خلال يوم واحد، أي وبعملية حسابية بسيطة يكون هذا العبور قد استغرق أكثر من شهر أي اثنان وثلاثون يوما لإتمامه[734]، ولم يجدوا أي صعوبة في اجتياز المضيق الفاصل بين هيسبانيا وإفريقيا كما يذكر فكتور دو فيتا، وهذا النجاح يرجعه دو فيتا إلى مهارة قائدهم جنسريك.[735]، ناهيك عن تلك المهارة فلقد برزت مهاراته كذلك في إدارة الأزمات وتدبر أمر من هم تحت سلطته، فلقد اظهر جنسريك قدرته في استغلال الفرص، كما حدث مع النزعات التي بدأت تعسف بروما بداية من اغتيال فلنتسيانوس بيده ابيتوس، حتى مماته هو الآخر بخنجر الغدر بيد أتباع من اغتال من قبل بعد ستة أشهر فقط، فاغتنم جنسريك الفرصة بانشغال الرومان في خلافاتهم، ودخل روما نفسها دون مقاومة تذكر يوم 2 جوان 455م، فغنم منها الكثير ثم عاد وجنوده إلى قرطاجة، بعدما استباحوا مدينة روما مدة خمسة عشر يوما.[736]

وفي جدلية طويلة يستعرض كورتوا كل الاحتمالات الواردة لعملية الإنزال التي قام بها جنسريك بالقرب من مدينة طنجة، حيث أنها انتهت حسب اعتقاده في أواخر شهر جوان من

---

731 Le Bohec, Y., 2018, p. 115.
732 Courtois, Ch., 1955, *Les Vandales et l'Afrique,* Paris, p.216.
733 Carcopino, J., 1956, p. 231.
734 Le Bohec, Y., 2018, p. 114.
735 Victor de Vita, I. I.
736 جوليان، ش. أ.، 1931، ص. ص. 332-333.

عام 429م، أو بعد ذلك بقليل، لتبدأ بعدها مسيرة طويلة وشاقة إلى الأراضي الخصبة بنوميديا وما خلفها والتي استهدفها الوندال، وقد استنفذت جهدا ووقتا، فمثلا من طنجة إلى ولاد ميمون (Altava) (Lamoricière) بالغرب الجزائري الواقعة قرب مدينة تلمسان، على مسافة سبع مائة كيلومتر قد تكون هاته المغامرة أخذت من حوالي شهرين إلى ثلاثة أشهر بالإضافة إلى العوائق التي اعترضت طريقهم وأهمها مقاومة الجيش الروماني[737]، وكما ذُكر سالفا أن الوندال لم يبلغوا هيبون إلا في حدود العام 430م من شهر جوان، على مسافة ألف ومائتين كيلومتر، في مدة سبعة أشهر، وهنا يستعرض العود محمد الصالح ما جاء به كورتوا من افتراضات للطرق التي سلكها الوندال، وهي ثلاثة:

-الطريق الأول: شمالا على طول الساحل.

-الطريق الثاني والثالث: بدواخل بلاد الشمال الإفريقي ، الأول على حواف هضاب الشلف والصومام، والثاني على طول الليمس الوهراني.[738]

وبعدد محدود من الجند ما بين خمسة عشر ألفا أو العشرون ألفا، استطاع جنسريك كما يقول كورتوا أن يهزم دفاعات روما الضعيفة، والتي تهاوت بشكل سريع[739]، ولم يكن في مقدور روما الوقوف في وجه الوندال، وبذلك افتك جنسريك إفريقيا من يد السلطة الرومانية وأصبح سيد إفريقيا من دون منازع، واخضع من سقط في الأسر للعبودية[740]، وتبين بوضوح أن جنسريك كما يذكر جوليان: "تربع على كرسي الزعامة في العالم الغربي بفضل جيشه وأسطوله ودبلوماسيته، (...)، وأصبح في الظاهر على الأقل سيد افريقية من أقصاها إلى أقصاها."[741] (أنظر الخريطة رقم:5، ص.212.)

---

[737] Courtois, Ch., 1955, p. 162.

[738] العود، م. الص.، 2010، ص. 82.

[739] Courtois, Ch., 1955, p. 230.

[740] Procope, *Histoire de la guerre des vandales*, I. IV. 1, Trad. Dureu de la Malle, 1852, Paris.

[741] جوليان، ش. أ.، 1931، ص. 333.

ولعلنا هنا أمام مفارقة صادمة، فقد تم نزول الوندال على السواحل المغربية دون وجود اثر للجيش الروماني في موريطانيا الطنجية، ويؤكد لوبوبيك أنها موجودة ولكن ربما على الوثائق الرسمية فقط.[742]

[742] Le Bohec, Y., 2018, p. 114.

الخريطة رقم:5- **إفريقيا في الفترة الوندالية.**

نقلا عن. أيت عمارة، و.، 2015، ص. 15.

3- رد فعل السكان الأصليين من الغزو.

مثلما اشرنا سابقا أن الوندال لم يتلقوا أي ردود فعل سيئة من الأهلي اتجاههم، بل وصل الأمر أن ساد بينهم نوع من التعايش والتعاون[743]، ومن بين مظاهر هاته العلاقة التي اتسمت بالطابع التعاوني، أن ظهر هذا التواصل في فترات سابقة لحملة الوندال على إفريقيا بمد المور يد المساعدة لحلفائهم الجدد في حربهم على كل من روما وصقلية[744]، فقد جند جنسريك لما غزا روما عام 455م بعضا من المور[745]، كما أوكلت لهم مهمة حماية سردينيا والدفاع عنها بعدما اجتاحها الوندال[746]، حتى أن الثروة التي جمعها جنسريك والتي كانت من وراء الاحترام والمهابة التي أبداها المغاربة اتجاهه، ولم يتجرؤوا على محاربته، قد جمعها هي الأخرى بمساعدة الأفارقة أنفسهم[747]، وأصبح ملك الوندال في نظر الكثير من الأفارقة هو سيد الأرض بدلا من الإمبراطور الروماني.[748]

ومع تبني الوندال للمذهب الاريوسي وجد المسيحيون الكاثوليك أنفسهم أمام اضطهاد من نوع آخر مارسه حكام الوندال عليهم لإجبارهم على التخلي عن دينهم ففي فترة حكم هونوريك ابن الملك جنسريك ما بين عامي 477 و484م، أُقترفت أبشع الجرائم في حق الكاثوليك، وهذا بنية القضاء التام على الكنيسة الكاثوليكية من مناطق النفوذ الوندالي[749] بدأت هذه المواجهات منذ عام 482 م[750] ، وفيما يرويه بروكوبيوس القيصري عن

[743] أيت عمارة، و.، 2015، ص.9.
[744] أيت عمارة، و.، 2014، ص. 281.
[745] Lugan, B., 2016. P. 109.
[746] حارش، م. ه.، 1992، ص. 246.
[747] العود، م. الص.، 2016، ص. 116.
[748] Carcopino, J., 1956, IV, p.227.
[749] Maraval, P., 2003, « Victor de Vita, Histoire de la persécution vandale en Afrique », *R.H.Ph.R*, Strasbourg, p. 362.
[750] Konrad, V., 2013, « Les Vandales en Afrique du nord+fossoyeurs ou héritiers de la romanitas », *La lettre du collège de France*, 37, p. 26.

غوندامونـدوس* (Gunthamundus) حفيد جنسريك الذي لم يبخل في التفنن بتعذيب النصارى الكاثوليك، والمانويين (Manichéens) الذين تعرضوا للتعذيب بالنار أو طردوا بشكل نهائي من إفريقيا[751]، بالإضافة إلى قطع الأيدي والألسن[752]، لكن أمر استعمال القوة لردع الأفارقة عن دينهم لم يعد قائما لما آل العرش لأخيه تراسامونـدوس** (Thrasamundus)، حيث وظف هذا الأخير أسلوب اللين بدلا من التشدد والغلظة في ردع الأفارقة الكاثوليك عن مذهبهم هذا بإكرامهم بالمال حينا ومنحهم المناصب حينا أخر، كما كان يتحايل على من يرفض التخلي عن دينه بمساومته حينما يرتكب جرما بالإعفاء مقابل التخلي عن الكاثوليكية[753]، وكان هذا الأسلوب غير مألوف لدى الوندال، والذي ربما يدل على اكتساب خبرة في ممارسة الحكم والسياسة والخروج من دائرة الهمجية والبربرية التي عرفوا بها.

ومهما يكن من أمر فان الأفارقة قد انقلبوا إلى المخاصمين للوندال بعد رحيل ملكهم جنسريك إلى عالم الأموات عام 477م، وشهدت المنطقة جملة من القلاقل والاضطرابات، ولم تخبوا شعلتها طيلة الوجود الوندالي بالمنطقة[754]، فلم يعد الأفارقة راضون على حكم الوندال، مثلما كانوا من قبل غير راضين على حكم الرومان، ومن بين أهم الانتفاضات التي قاموا بها، ثورة الأوراس عام 488م، حيث اعتبرها المؤرخون من أهم واخطر الثورات ضد التواجد الوندالي، حيث تحصن الأهالي بالجبال ولم يقدر خصومهم الوصول إليهم، ولا أن يلحقوا الهزيمة بهم، كما أن ثورة الأوراس هي الشرارة الأولى ضد

---

* تاريخ ميلاده غير معروف، تولى عرش الحكم عام 484 في يوم 22 من شهر ديسمبر، حسب بوكوبيوس ستنطفئ حياته بسبب المرض، وجد له اثر في كثير من النصوص ومنها ألواح البرتيني (Albertini). انظر: Courtois, Ch., 1955, p. 400.

[751] Victor de Vita, II. I.

[752] العود، م. الص.، 2016، ص. 264.

** اتصف تراسامندوس كما يشهد بذلك الحليف والعدو، بالجمال ونبل الأخلاق، ومما زاد في أهميته كونه حامل لثقافة عالية، ولم يمنعه تمسكه بالمذهب الاريوسي أن يعامل خصومه من الكاثوليك برفق ورحمة، وحاول استمالتهم بمنحهم الألقاب الشرفية. للمزيد من المعلومات انظر: جوليان، ش. أ.، 1959، ص.. 345.

[753] بروكوبيوس القيصري، *الحروب والتاريخ السري*، III، VIII، ترجمة صبري أبو الخير، الإسكندرية.

[754] أيت عمارة، و.، 2014، ص.282.

الاحتلال الوندالي للشمال الإفريقي في عهد هونريك الذي لم يكن بقوة وعزيمة والده[755]، لذلك تحمل هاته الثورة رمزية كبيرة لدى سكان المنطقة إذ تعبر عن الرفض القطعي والشامل لأي تدخل أجنبي واستمرارية هذا الرفض غير المنقطع حتى تحقيق التحرير.

وبنفس الروح القتالية والتصميم في صد الوندال، قام سكان الأوراس بإفتكاك مدن كثيرة كانت بحوزة أعدائهم البرابرة، وهي تيمقاد وتبسة ولمباز وقصر باغاي حتى أنهم بلغوا حدود مدينة كيرتا، كما امتدت الثورة بلهيبها إلى المناطق الغربية حيث انتفض المور واستولوا على موريطانيا[756]، واستعصى على الوندال صدها[757]، وكنتيجة لوطأة ثورة الأوراس وغيرها من الثروات التي سيأتي ذكرها لاحقا، غلق ملك الوندال باب النزاعات الخارجية، ليتفرغ لإخماد تلك القلاقل التي باتت تزعجهم وتهدد وجودهم[758]، وقد بلغ عدد المتمردين على سلطة الوندال في انتفاضة الأوراس ما قدره ثلاثون ألف ثائر، مما يدل على حجم التذمر الذي بات لدى سكان شمال إفريقيا اتجاه حكم هونريك[759]، كما يروي كاركوبينو (Jérôme Carcopino) الثورة التي ألحقت وسمة العار بالوندال وبسمعتهم العسكرية، والتي أعقبت ثورة المور الأولى بما يقارب الثلاث عقود، في عهد الملك هلدريك* (Hildéric)، وهذا ما توثقه ألواح ألبرتيني**، فكان أن ثار الجند على ملكهم نتيجة لذلك[760]، واستطاعت

---

[755] العود، م. الص.، 2010، ص. 109.

[756] أيت عمارة، و.، 2014، ص. 284.

[757] Carcopino, J., 1956. P. 232.

[758] جوليان، ش. أ.، 1959، ص. 347.

[759] أيت عمارة، و.، 2014، ص. 284.

* يعني هلدريك القوي في المعارك، وهو احد أبناء الملك هونريك، غير أن تاريخ ميلاده مجهول لكن يفترض أن يكون سنة 457م، سيخلف تراسماندوس في تولي أمر الوندال يوم 7 جوان من عام 523م، اعتنق الكاثوليكية عكس ما كان عليه الوندال من الاريوسية، وكان تابعا لسلطة القسطنطينية فكان يجري عكس تيار من سبقوه، أسقطه من العرش جاليمار (Geilimer)، ثم وضع في الاعتقال، وبعدها نفذ فيه حق الإعدام مع مجموع حاشيته عام 533م بعدما رفض هذا الأخير تسليمه لإمبراطور جوستنيان (Justien). للمزيد من المعلومات انظر: Courtois, Ch., 1955, p.p. 397, 398.

** ألواح ألبرتيني هي في حدود خمسة وأربعون لوحا خشبيا، اكتشفت عام 1928 في جنوب مملكة الوندال، من بعض سكان المنطقة، وكان وقتها اوجان البرتيني (Eugene Albertini) مدير مركز الآثار في الجزائر، حيث استشعر أهميتها وابرق إلى الأكاديمية الفرنسية بذلك، حيث سيخصص لها دراسة مستفيضة في جريدة العباقرة (Journal des savants) عام 1930، تؤرخ لفترة حكم الملك غوندامندوس، القدم يظهر عليها تاريخ 13 مارس 493 م، إلى غاية 21 ابريل 496 م. للمزيد من المعلومات انظر: Tessier, G., 1953, « Tablettes Albertini, actes privés de l'époque vandale (fin du Ve siècle) », *B.E.Ch*, tome 110, pp. 225-229.

[760] Carcopino, J., 1956. p. 232.

هاته الثورات أن تعري حقيقة قوة الوندال، التي لم تعد كما كانت عليه منذ عهد الملك جنسريك[761]، فحصيلة كل ما أتى ذكره أن الأفارقة لم يعودوا راضين على حكم الوندال، مثل ما كانوا من قبل غير راضين على حكم الرومان.[762]، كما اتضح مع مرور الوقت فقدان كل ما كان عليه الوندال من غلظة وبشاعة حتى اتجاه ذويهم، وهذا ما يسرده بشكل مطول كاركوبينيو عن تلك الشدة والقسوة التي تبدوا لربما مبالغا فيها[763]، لكن هذه السمعة السيئة هي ما جنبت الوندال امتحان الثورات ضدهم من الأهالي ، لكن بغيابها مع وفاة جنسريك وتولي ملوك ضعاف، لم يعد من سبب للتخلي عن المقاومة، وهذا ما كان فعلا على طول الفترة الوندالية.

وكان من اثر ثورة الأوراس كذلك أنها تمكنت من افتكاك الاستقلال قبل وفاة هونريك، وضربت في الصميم أسطورة التفوق العسكري للوندال عرض الحائط[764]، مما يدفع أكثر بسيل المقاومة إلى الأمام دون هوادة.

ولم تتوقف الثورة ضد الوندال عند سكان منطقة الأوراس فحسب، بل ستستمر مشتعلة لتغطي مناطق أوسع كالنار في الهشيم، ومنها ثورة قبائل الجمالة بقيادة قباوة، من جبال نفوسة وطرابلس[765]، ويستعرض موديرو دور المور في الأحداث التاريخية للشمال الإفريقي، وما يهمنا هنا هو الفترة الوندالية تحديدا، حيث برز دورهم في الاستيلاء على مناطق كثيرة بمعية الوندال ومنها روما عام 455م.[766]

---

761 Konrad, V., 2013, p. 27.

762 فرحان، م. ن.، 2017، "حروب الإمبراطور جستنيان الأول (527-565 م) في المصادر والمراجع العربية والبيزنطية"، *حوليات كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية*، المجلد 3، العدد 33، الأنبار، ص.1205.

763 Carcopino, J., 1956. p. 230.

764 حارش، م. ه.، 1992، ص. 246.

765 أيت عمارة، و.، 2014، ص. 284.

766 Modéran, Y., 2003, p. 541.

ولم يمضي زمن طويل حتى اتقدت الثورة من جديد في مقاطعة بيزاسيوم (المزاق) في فترة حكم الملك هلدريك (523–530م)، تحت قيادة الملك انطلاس* (Antalas)[767]، وقد سبق هذا الفعل التحرري ما أقدم عليه قنفان (Guenfen) والد انطلاس من قبل، حيث وحد القبائل المتواجدة في براري تونس الحالية خلال سنة 510م وانشأ كيان سياسيا، فكان الزناد الذي سيصوبه من بعد ابنه انطلاس على الوندال ويزعزع أركان ملكهم[768]، فتمكن هذا الأخير من إلحاق الهزائم بالوندال بالرغم من خبرة قائدهم اعومر، بحيث سيطر المور على مدن سواحل البيزاسيوم، واستغل انطلاس الخلاف الحاصل داخل الأسرة الحاكمة، حيث لم يعترف ثيودريك ملك القوط وشقيق زوج تراسمندوس بتوليه العرش، لتتضافر جهودهما على دحر الوندال، كما أن انطلاس جلب إلى هذا التحالف أيضا مور طرابلس، فاشتعلت المنطقة برمتها نارا على الوندال، ولاقت أويا ولبدة وسبرطة شطرا من هاته النار المشتعلة.[769]

ولقد بلغ تمرد الأهالي على حكم الوندال درجة من الحدة والتوسع إلى الحد الذي اجبر الوندال على الانسحاب والتمركز بالمناطق الساحلية من نوميديا والبروقنصلية وبعض من المناطق الداخلية لتلك الولايات، وبذلك يمكن القول أن مملكة الوندال انحصرت سلطتها بتلك المناطق دون غيرها، لان باقي المناطق كصحراء طرابلس والبيزاسيوم مرورا بجبال الأوراس وما يفصلها عن جبل الناظور من هضاب عليا أصبحت ساحة للمقاتلين الأفارقة.[770]

* انطلاس من ذرية الملك قنفان، يرجح أن يكون قد جاء إلى الدنيا في الفترة الممتدة ما بين عامي 493 و500م، كان قائد للفركساس (Frexes)، ومن ضمنهم الفرشيش (Frechich)، وكانت تمدد مضارب هؤلاء على الحدود التونسية الجزائرية ما بين القسرين تالة وتبسة، بدا يظهر كقائد متمرد على سلطة الوندال منذ سن 17 سنة، مما سيؤهله لعرش الحكم بعد والده، وكان مطبوعا بالطابع المحلي بعيدا عن تأثيرات الرومان أو الوندال ومن بعد البيزنطيين، وسيظهر عدائه ليس ضد الوندال وحسب، بل أيضا ضد البزنطيين من بعدهم. للمزيد من المعلومات انظر: Camps, G., 1988, « Antalas », *E.B*, 5, p.p 706-708.

[767] أيت عمارة، و.، 2014، ص. 286.

[768] Courtois, Ch., 1955, p. 343.

[769] أيت عمارة، و.، 2014، ص. 286.

[770] Mercier, E., 1888, Tome I, p. 151.

4-مناطق النفوذ الوندالي بإفريقيا.

فعلا تمكن الوندال من طرد الرومان من شمال إفريقيا، لكن لم يتمكنوا من السيطرة عليها بشكل تام وكامل، نظرا لقلة عددهم بالدرجة الأولى ثم بدرجة ثانية عدم قدرتهم على التأقلم مع المناخ الحار للمنطقة، كما استأنسوا العيش في رغد القصور والبيوت الواسعة المحيطة بقرطاجة، هذا كله كان لصالح الأهالي الذين أحسوا بنوع من الاستقلالية في إدارة شؤونهم بعيدا عن وصاية أي من كان، ولعمري هذا قد يكون من ضمن الأسباب الرئيسية لضياع ملك الوندال بالشمال الإفريقي[771]، في مدة لا تزيد عن القرن تقريبا (430-534م)[772]، كما اتضحت في الفترة الوندالية معالم الممالك المحلية أو على الأقل كنفدرليات مستقلة ومكتملة السيادة ، تتمتع بقيادات نصبت نفسها على أساس الملك (Rex)، وانتشرت فيما يذكر كورتوا على طول السلسلة الممتدة من الملوية إلى غاية جبال الأوراس.[773]

لكن الثابت أن إفريقيا في الفترة الوندالية كانت أفضل حالا مما كانت عليها أثناء الاحتلال الروماني، إذ تحسنت التجارة وارتفع المستوى المعيشي للناس، وهذا بانخفاض أسعار المواد الاستهلاكية والضرائب وتوقف نقل المنتوجات إلى روما فيما يعرف بالأنونة أو المعونة، ففاض الإنتاج عن الطلب وبالتالي تحسنت أحوال الناس وقلت حالات العوز ومظاهر البؤس، حتى وان عرفت إفريقيا مجاعة عام 484م نتيجة للظروف الطبيعية من شح المطر وجدب الأرض ومات ألاف من قطعان الماشية، التي كانت موردا رئيسيا لسكان المنطقة مما دفع بهم للهجرة نحو الشمال صونا لحياتهم وحياة ذويهم[774]، ولم تكن المرة الأولى التي شهدت فيها المنطقة مجاعة في الفترة الوندالية، فقد حدثت مجاعة قبل ذلك في بدايات الغزو، أثناء عهد الملك جنسريك عام 430م عندما حاصر هيبون واضطر لرفعه لما

[771] Albertini, E., 1955, 121.
[772] Meynier, G., 2007, p.177.
[773] Courtois, Ch., 1955, p. 333.

[774] أيت عمارة، و.، 2015، ص.ص.10-11.

اشتد الجوع بجنده واثر فيهم[775]، وأتاح اتفاق هيبون لسنة 435م أن يمد جنسريك نفوذه على جزء مهم من موريطانيا السطيفية (Mauretania Sitifensis) إلى غاية منطقة الحضنة، ومن نوميديا حتى حدود الأوراس، بالإضافة إلى المناطق الشرقية من البرونقصلية، كما منح هذا الاتفاق حق إنشاء كيان سياسي يتبع لسلطة الإمبراطورية، على أن يتعهد جنسريك بالاكتفاء بما حققه من توسع دون غيره، ويتوقف عن أحلامه في مد النفوذ إلى مناطق غير التي يتواجد فيها إلى غاية عام 435م.[776]

وهنا ينبغي أن نشير على أن جنسريك قبل أن توافيه المنية عمل على توطيد حكمه بالمنطقة، فكما اشرنا سابقا أن اتفاقية 442م مع الإمبراطور فالينتيانوس الثالث، قد نقلته من صف قائد لشعبه إلى درجة ملك، لكن تحت وصاية عرش الإمبراطورية، وبالمقابل حصل على أغنى المناطق بالشمال الإفريقي، أي خرج منتصرا في جميع أحواله، والمناطق التي حازها وفقا لذلك هي البرونقصلية، وبيزاسيوم* (المزاق) (Byzacène ou Byzacium)، ونوميديا الشرقية بما فيها منطقة الأوراس، وطرابلس (La Tripolitaine)، على أن يتخلى الوندال عن نوميديا الغربية وموريطانيا[777]، كما مر جنسريك وقتها على محنة الفتنة الداخلية، فلم يرق لطبقة النبلاء من الوندال أن يوسع جنسريك من حكمه ويزيد من قوته، لكن العاهل الوندالي لم يجد بدا إلا اجتثاث تلك الفتنة من أصولها وتم قمعها بكل قوة ودون رحمة[778]، ولا بد من الإشارة على أن الوندال قد سيطروا كذلك على بعض الجزر المقابلة

[775] العود، م. الص.، 2016، ص. 160.

[776] Lugan, B., 2016. P. 109.

* ما بين عامي 294-305 انشأ على التوالي كل من ديوكليسيانوس وماكسيمانيوس محافظتي بيزاسيوم وطرابلس، حيث كانت محافظة بيزاسيوم تتبع للبروقنصلية قبل التعديل الذي قام بيه ديوكليسيانوس، وكان تاريخ إنشائها 1 جويلية من عام 294م، والتي لم تستفد من حامية عسكرية، وتقع في تونس الحالية، وأيضا لم تكن طرابلس بالمحافظة المستقلة بل كانت تابعة لمقاطعة افريقية، ومنحت صف القنصلية منذ عام 283م، حتى وان كانت الأدلة المادية تثبت أن المحافظتين قد استفادت من التنظيم وإنشاء الجانب المؤسساتي لها في نفس السنة، كما شهدت كلتا المحافظتين نوع من الاستقرار في خريطتهما السياسية من عهد ديوكليسيانوس إلى الغزو الوندالي لبلاد المغرب القديم. للمزيد من المعلومات انظر: Chastagnol, A., 1967, « Les gouverneurs de Byzacène et tripolitaine », *Ant.Afr*, p.p. 119-134.

[777] Modéran, Y., 1998, p. 2.

[778] Modéran, Y., 1998, p. 5.

للساحل الإفريقي في وقت متأخر مثل جزر البليار* (Les Baléares) وجزيرة سردينيا (la Sardaigne) خلال العام 455م، أي بعد وفاة الإمبراطور فلينتيانوس الثالث.[779]

لكن الحقائق التاريخية تثبت على أن الوندال بالشمال الإفريقي لم يتمكنوا من فرض قالب سياسي وثقافي، نظرا لقلة عددهم، وبالتالي كان تدخلهم في حياة الأهالي جد محدود ونادر، واقتصر على التدخل المباشر عند حدوث الأزمات فقط[780]، ووفقا للاتفاق المبرم سنة 442م الذي يعتبر امتداد للاتفاق عام 435م، لكنه يوسع في المجال الترابي لا أكثر، بدأ الوندال في إرساء مظاهر السيادة والملك بضرب العملة، والتي كانت إما فضية أو برونزية[781]، وبذلك مثّل اتفاق 442م إضفاء الشرعية على التواجد الوندالي بالمنطقة، كما جاء بقلم كورتوا :"هذا الاتفاق هو بمثابة شهادة ميلاد لدولة الوندال."[782]

بيد أن هذا الاحتلال الذي كان سريعا ودون خسائر كبيرة من الجانب الوندالي، لم يلحق التغيير الذي قد نظنه حدث في مناحي الحياة لدى سكان الأهالي ، فعلى سبيل المثال العمارة ونسق المدن لم يطرأ عليها تقريبا أي تبديل، ومثال ذلك مدينة قرطاجة التي سقطت في شراك الوندال دون مقاومة عام 439م، لم تتعرض لا للحرق أو للتخريب التام، فبقيت محافظة على شكلها الذي كانت عليه في العهد الروماني، والثابت في كل هذا أن الوندال لم يهتموا كثيرا بترك بصماتهم على العمارة ولم يظهروا أي اهتمام بذلك، إلا أننا نجد تشييد بعض الكنائس في الفترة الوندالية مثل كنيسة عين غراب بالقرب من مدينة تبسة الحالية[783]،

* تقع جزر البليار على مرمى حجر من أوروبا، وهي أرخبيل جزري تقدر مساحته بخمسة ألاف كيلومتر مربع ببحر البليار بين أوروبا وإفريقيا، تتمتع بمناظر طبيعية ساحرة مما أهلها أن تكون محطة سياحية مفضلة، واهم هاته الجزر ايبزا (Ibiza) ومينوركا (Minorque) وبالما (Palma). للمزيد من المعلومات انظر: Knafou, R., 1990, « Les Baléares, laboratoire d'une société nouvelle », *Espace géographique*, Tome 19-20, N 2, p.p. 135-148.

779 Courtois, Ch., 1955, p.p. 186-187.
780 Carcopino, J., 1956. P. 228.
781 Duval, N., 1984, p. 270.
782 Courtois, Ch., 1955, p.173 .
783 Courtois, Ch., 1955, p.p. 313-314.

وهذا ما تؤكده أيت عمارة ويزة في مقال مطول حول ردود الفعل المحلية على عمليات الاحتلال، أن اثر الوندال العمراني غير باد في إفريقيا.[784]

إجمالا وعلى الرغم من إنهاء السيطرة الرومانية على الشمال الإفريقي، فان قبضة الوندال كانت محدودة حسب ما يذكر كورتوا مستدلا بما عثر عليه من عملة على طول المناطق الشرقية بداية من قسنطينة، لكن بالمقابل لا وجود لها في المناطق الغربية.[785]، وقبل أن نختم عملنا عن مناطق النفوذ الوندالي، لابد من الإشارة على أن الاحتلال الوندالي أصبح واقعا لا يدعوا إلى الشك والريبة، لكن في خضم كل هذا بقيت بعض من معالم الحضارة الرومانية مستمرة الوجود، ومنها العمل بالقانون الروماني الذي بقي ساري المفعول، بالإضافة إلى سبل التسيير الإداري التي تواصل العمل بها، كما استمرت عبادة الملوك والوجهاء مثلما كان موجود أيام السلطة الرومانية.[786]

5-زوال الاحتلال الوندالي في إفريقيا، وحلول البيزنطيين بدلهم.

أمام تصرفات الوندال بتحطيم حصون وقلاع المدن الإفريقية، من اجل حرمان الأهالي من أي أمل للمقاومة والتصدي، بالإضافة إلى عدم التفكير وإهمالهم لإنشاء دفاعات بحرية بامتلاك أسطول حربي، كانا من وراء الهزيمة غير المتوقعة بوصول البيزنطيين عام 534م[787]، أضف إلى ذلك الأسباب الأخرى البعيدة التي كانت من عوامل هذه الانتكاسة مثل ما يرصدها كاركوبينو بقوله :"الوندال هم الآخرون سيفشلون بدورهم. وهذا نظرا إلى أنهم قد توقفوا عن الغزو، ولم يعودوا قادرين على القيام بدورهم العسكري، وسكنوا إلى الراحة بعد عمليات النهب التي قام بها ملكهم جنسريك، وألفوا حياة البذخ وركنوا إلى الدعة التي منحتهم إياها ثروات إفريقيا الزاخرة."[788]، كما يضيف ارنست مينيي إلى كل ما ذكر من مسببات

[784] أيت عمارة، و.، 2014، ص. 278.

[785] Courtois, Ch., 1955, p. 178.
[786] Clavé, Y., 2017, p. 318.
[787] Le Bohec, Y., 2018, p. 135.
[788] Carcopino, J., 1956. p. 232.

الفناء الوندالي بإفريقيا، تبنيهم لسياسية قائمة على النهب والسلب، دون التفكير في الاستيطان والاندماج الاجتماعي، واكتفوا بالاستقرار في المناطق الشمالية، وواصلوا فيما يجيدونه اي الحروب.[789]

وفي نفس السياق الذي استجده الغزو البيزنطي لمقاطعة إفريقيا عام 534م، بحيث لم تكن المرة الأولى التي حاول في الرومان استعادة المقاطعة، لما تمثله هاته الأخيرة من روابط خاصة، كانت تعرف أيضا بخصوصيتها التي سردناها سابقا ومنها القرب الشديد، إذ كانت بمثابة الفناء الخلفي للإمبراطورية، زد إلى ذلك ما تزخر به المقاطعة من إمكانات اقتصادية هائلة، لكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل بعد ما اصطدمت بجدار الدفاع الوندالي، ومنها الحملة الكبرى لعام 468م.[790]

ومهما يكن من أمر، فان الشمال الإفريقي قد انتقل إلى أحضان الإمبراطورية البيزنطية الوريث الشرعي لتركة روما، لكن بتدفق بشري أكثر وديمومة زمنية أطول من الفترة الوندالية[791]، حيث استغرق هذا الوجود ما يزيد عن القرن، أي مدة 164 سنة ما بين العام 534م إلى غاية الفتح الإسلامي عام 698م.[792] (أنظر الخريطة رقم: 6، ص. 227.)

ولا جدال في أن ثورات الأفارقة، كانت الباب الذي فتح الطريق إلى زوال النفوذ الوندالي على إفريقيا، وبالتالي كان لابد من مواجهات عدة جبهات سواء على الصعيد الداخلي، بتنامي سلطة الممالك المحلية المزدهرة حتى بداخل حدود السيطرة الوندالية، بالإضافة إلى تفاقم مشكل القبائل المتاخمة للحدود الجنوبية والتي باتت تهدد الكيان الوندالي.[793]

---

789 Mercier, E., 1888, Tome I, p. 166.

790 قداش، م.، 1993، ص. 246.

791 Konrad, V., 2013, p. 27.

792 Carcopino, J., 1956. p.p. 230-231.

793 Courtois, Ch., 1955, p. 353.

فمنذ شهر ابريل من عام 534م أمر الإمبراطور البيزنطي جوستنيان الأول* (فلافيوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس) (Caesar Flavius Petrus Justinianus Sabbatius Augustus) أن تلحق كل المناطق التي امتدت إليها سلطة روما سابقا قبل الغزو الوندالي، واعتبارا لذلك يخضع كل سكانها للسلطة الجديدة ويعتبرون رعايا تابعين لها[794]، واعتبر جوستنيان نفسه مخلص الأفارقة من ظلم الوندال، وعليه واجب استرداد أملاك الإمبراطورية واستعادة البحر المتوسط باعتباره بحيرة رومانية[795]، وأرسل لهذا الغرض حملة عسكرية بقيادة بيليزار** (Bélisaire)[796] عام 533م، قدر عددها بثمانية ألاف جندي، ومائة وعشرون سفينة[797]، وهناك من يرفع عدد جند الحملة البيزنطية إلى ستة عشر ألف رجل موزعين على النحو التالي: عشرة ألاف من المشاة، خمسة ألاف من الفرسان، ست مائة من شعب الهان (Huns) أربع مائة من الهيرول (Herules)[798]، واقتنع بفكرة إعادة بعث الإمبراطورية الرومانية القديمة (Imperium)[799]، بشقيها الغربي والشرقي، ولا تنتهي مهمة جوستنيان

* ولد جوستنيان الأول سنة 482م، ويرجح أن يكون من أصول ايللرية، الذين حافظوا على اللسان اللاتيني بعكس باقي البلقان، مسقط رأسه بغرب شبه الجزيرة بقرية بدريانا (Bederiana) التي تقع على مقربة من مدينة اسكوب الحالية، كان يتسم بالوسامة وطول القامة، وينتمي إلى أسرة فقيرة تمتهن الفلاحة، كما يعد من أهم أباطرة روما الشرقية حتى أن الباحثين قد نعتوا الإمبراطورية الشرقية بإمبراطورية جنستنيان في الفترة الممتدة من 527-565م، لان قيام هاته الإمبراطورية واستمراريتها يعود إلى جهوده بشكل خاص، وكان كما قيل عنه إمبراطور الروماني الشرقي بميول وأفكار غربية، ظهر على الساحة السياسية بفضل خاله جنستين، ولما توفى هذا الأخير عام 527م، تولى حنستنيان الحكم، وهو ابن الخامسة والأربعون، كانت ثيودورا زوجته المقربة إليه، اظهر حزما في ملاحقة وضرب المعارضة، كما حارب الهرطقة الدينية، ومنع جماعة الطبيعة الواحدة من النشاط داخل الإمبراطورية. للمزيد من المعلومات انظر: اسمت، غ.، 1977، *إمبراطورية جنستنيان*، جدة، ص. ص. 1-16.

[794] Lugan, B., 2016. p. 112.

[795] فرحان، م. ن.، 2017، ص. 1203.

** بيليزار، من مواليد داردانى (Dardanie) بثراس (Thrace) الواقعة بين بلغاريا اليونان وتركيا حاليا، في حدود العام 500م، ونظرا لما أظهره من قدرات في الميدان العسكري، جعل منه الإمبراطور جنسينيان أول جنرال لدى الإمبراطورية البيزنطية، تمكن من هزم الفرس عام 530م، وقهر الوندال في إفريقيا واستعادها منهم عام 5 33م، كمااحتل صقلية عام 535م، ثم نابولي وبعدها روما، وأمام التفوق الذي أظهره هذا الأخير والانتصارات المحققة، كثر أعدائه والمتآمرين عليه، فكثرت المكائد ضده لإسقاطه، وتشويه سمعته في نظر السلطة، وشغل في آخر أيامه قيادة الحرس الإمبراطوري بالقسطنطينية، انتقل إلى عالم الأموات خلال العام 565م. للمزيد من المعلومات انظر:

Galibert, L., « Vandale durant 100 ans, expédition de Bélisaire » *L'Algérie ancienne et moderne,* Url https://www.algerie-ancienne.com/Salon/Galib/4Vandal/09belisaire.htm. Vue le 05/12/2020 a 21.10.

[796] Procope, *Livre de la guerre contre les Perses,* I. XXVI. 1.

[797] حمدان، م. أ.، 2017، *تاريخ بيزنطة السياسي والحضاري (330-1453 م)*، الأردن، ص. 52.

[798] جوليان، ش. أ.، 1931، ص.ص. 356-357.

[799] Belkhodja, Kh., 1970, « L'Afrique Byzantine à la fin du VIe et au début du VIIe siècle », *Revue de l'occident musulman et de la méditerranée,* n 8, p.55.

حسب اعتقاده عند هذا الحد، بل رأى أيضا أن لابد من استرجاع ما أخذه أعداء الإمبراطورية من برابرة جرمان من أراضي[800]، ومن ضمنها إفريقيا.

ولم تستغرق مدة إنهاء الوجود الوندالي بالشمال الإفريقي أكثر من ستة أشهر، وهنا لربما يجرنا إلى لفت الأنظار إلى سرعة الغزو الوندالي للمنطقة، فكما كان سريعا في بدايته أتت نهايته سريعة هي الأخرى[801]، حيث حقق القائد بيليزار على خصومه بقيادة ملكهم جيلمار* (Geilimer) نصرا مؤزرا، بعد جولتين من المعارك فقط، في ديسموم، فانسحب الوندال تاركين الطريق مفتوحا نحو قرطاجة التي استسلمت دون مقاومة تذكر[802]، كما نجد بحسب بروكوبيوس أن السكان المور وقفوا على الحياد أمام التطورات الحاصلة على أرضهم، ولم ينحازوا لأي طرف إلا ثلة منهم، وهذا بالرغم من محاولات الإغراءات المادية التي قدمها بيليزار إلى قادتهم، ويحصيها بروكوبيوس بقوله:" صولجان من فضة مذهب، تاج من فضة مزخرف، معطف ابيض يربط على الكتف اليمنى بماسك من ذهب، تنورة بيضاء مزينة بعدة أشكال ملونة، وأخيرا أحذية مطرزة بالذهب الخالص، هي الهدايا التي أرسلها بيليزار إلى كل أمراء المور، بالإضافة إلى مبلغ مالي معتبر. لكن ولا احد من هؤلاء القادة قد أرسل له دعما عسكريا كما كان يتوقع، كما أنهم لم يشاركوا في النزاع إلى جانب الوندال والتزموا الحياد، منتظرين نتيجة الحرب. "[803] ، كما وصلنا أن بيليزار قد تعاون مع أوستروغوت (Ostrogoth)، وقد انزل البيزنطيون جيشهم جنوب هيدروميترم (سوسة)، الذي التزم بعدم إلحاق أي أذى بالأهالي وممتلكاتهم والظهور بمظهر المحرر، مما سهل من مهمة بيليزار في كسب حياد القبائل وتعاون رجال الدين الكاثوليك، فكان كما يذكر قداش : "السير

---

800 حمدان، م. أ.، 2017، ص. 55.

801 Carcopino, J., 1956. p. 231.

* يجهل تاريخ ولادته، لكن ما نقلته المصادر على أن جليمار كان اكبر الأمراء سنا، وبالتالي يشمله القانون الذي وضعه جنسريك قبل وفاته بتولي الأكبر سنا للحكم، انقلب على هلدريك في 15 جوان من العام 530م، وأسره نتيجة ولائه لبيزنطة، انهزم أمام بيليزار عام 534م، واستسلم متوجها إلى بيزنطة، رده بيليزار إلى قرطاجة ورماه في السجن، وتمت معاملته باحترام ورفق، ثم اخلي سبيله ومنح أراضي بالأناضول (Galatie)، كما تجهل كذلك سنة وفاته. للمزيد من الإيضاح انظر:.Courtois, Ch., 1955, p. 402

802 حمدان، م. أ.، 2017، ص. 62.

803 Procope, *Histoire de la guerre des vandales*, XXV. 2.

إلى قرطاجة نزهة عسكرية"، وكلل النصر في ديسيموم باستسلام جيلمار مارس 534م، ونهاية مملكة الوندال.[804]

لكن لم تمر عملية الاسترداد هاته بسلام فقد نظر إليها الأفارقة على أنها من قبيل الغزو، وتعاملوا معها على النحو الذي تقتضيه ضرورة الدفاع عن الأرض والممتلكات، فمنذ ربيع عام 534م التهبت نار المقاومة، ففي البيزاسيوم المزاق كانت ما بين (534–535م)، وفي نوميديا خلال المدة (534–539م)[805]، ولقد حاول جوستنيان إرجاع إفريقيا إلى الوضع الذي كانت عليه قبل الغزو الوندالي ومنها قضية الحدود، لكنه اصطدم بواقع لم يكن يتوقعه حيث أن المناطق التي كان المعمرون الرومان يستغلونها أصبحت في قبضة الأهالي، ولم يعد بالمقدور استعادتها، لان بكل بساطة قد تشكلت فيدراليات محلية قوية بتلك المناطق، كما يبدوا عدم رغبة السكان المحليين التخلي عنها بأي شكل من الأشكال.[806]

ويتبين من العرض السابق وكأن الحاكم الجديد لإفريقيا الإمبراطور جوستنيان قد أصبح متحكما في الوضع، وقد وفق إلى حد كبير في تلميع سمعة الإمبراطورية الرومانية، لكن الواقع يظهر عكس ذلك تماما، فالباحث بلخوجة خالد يعرض لنا الصورة القاتمة التي تركها وراءه جوستنيان ليلة اعتلاء خلفه سدة الحكم الإمبراطور موريسيوس (Tiberius Flavius Mauricius)، ومنها سوء الإدارة وتفشي الفساد في أوساط الجيش، تفاقم الفوارق الطبقية بين الرعية، تواصل الأزمة الدينية والانقسام الكنسي[807]، حتى وان كانت نية هذا الأخير لربما صادقة، من المنطلق الذي تسرده المراجع التاريخية، أن جوستنيان أراد بعد أن حقق انتصارات في ساحة المعارك، باستعادة إفريقيا من الوندال، وايطاليا من القوط، أن يخفف من عبء الضرائب ويحسن من أحوال معيشة رعياه في كل أرجاء الإمبراطورية لكن

[804] قداش، م.، 1993، ص. 250.

[805] Lugan, B., 2016. pp. 112-113.
[806] Mercier, E., 1888, Tome I, p. 167.
[807] Belkhodja, Kh., 1970. pp. 55-56.

هذا يتنافى ومتطلبات الفترة من الحفاظ على المناطق المسترجعة وتهيئتها من جديد[808]، كما لم تنجح إمبراطورية الشرق أن تعيد إلى الحياة حضارة روما بالشمال الإفريقي، وبدا من معالمها قصر مدة انتعاشها، إلى أن بعثت إلى العدم بحلول الفتح الإسلامي.[809]

[808] نورمان، ب.، *الإمبراطورية البيزنطية*، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، 1950، القاهرة، ص.ص. 49-50.

[809] Carcopino, J., 1956. P. 233.

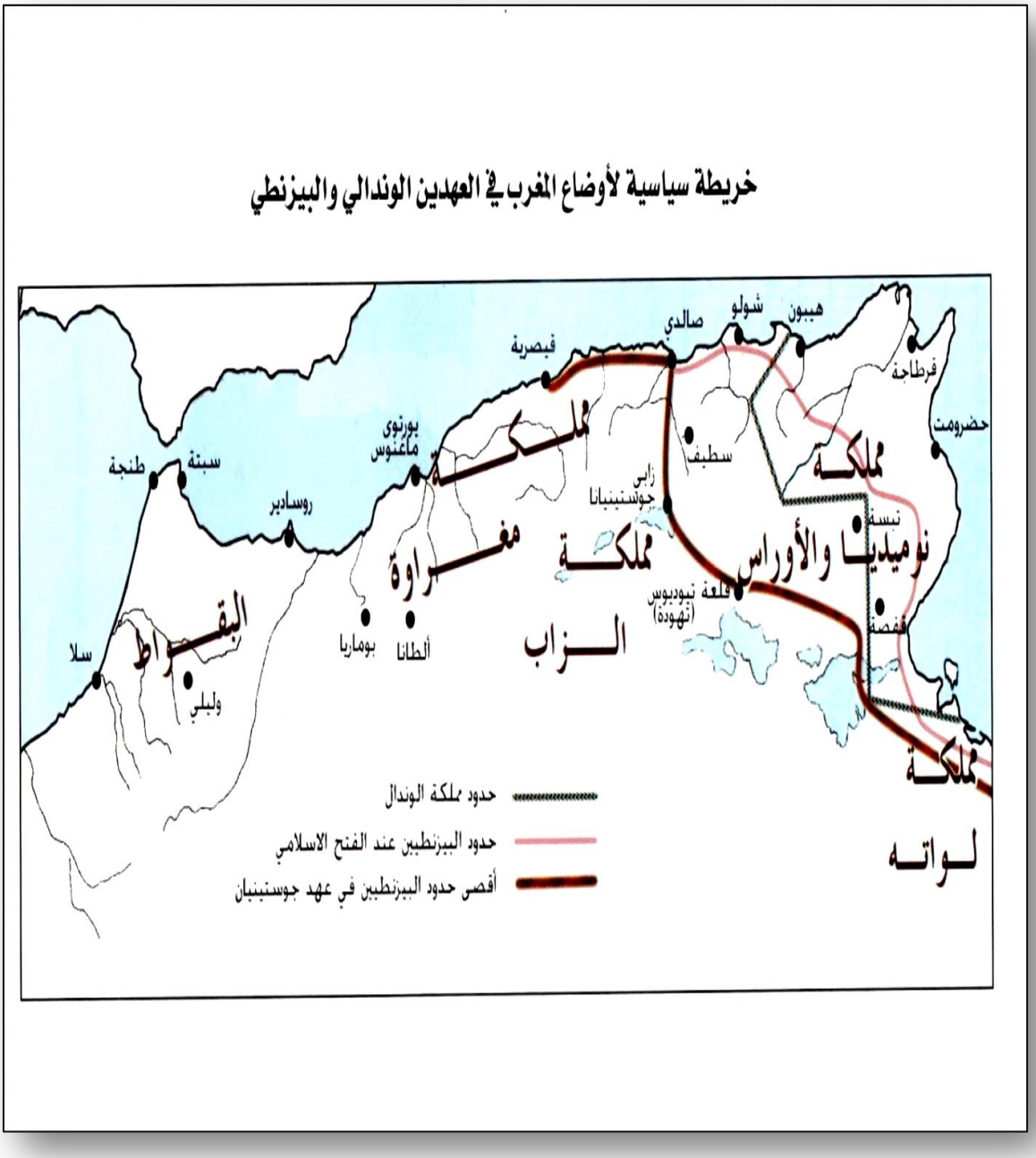

خريطة رقم: 6– **أوضاع افريقيا اثناء الاحتلال الوندالي والبيزانطي.**

لعياضي، ح.، 2017، "مقاومة الأوراس للاحتلال البيزنطي"، *مجلة البحوث التاريخية*، العدد 1، جامعة بوضياف محمد، المسيلة، ص. 172.

الخاتمة

الخاتمة

ينتهي بنا هذا البحث بما أتيح لنا من جهد بحسب قدرتنا القاصرة إلى جمع مادته، إلى جملة من النتائج قطفناها عبر مسالكه، نوجزها متسلسلة على النحو التالي:

أن فكرة التوسع والغزو أصيلة في السياسة الرومانية، وهذا منذ نشأتها وضمن تكوينيها، والتي وجهت علاقتها نحو الشعوب الأخرى سواء داخل ايطاليا أو خارجها، كما مثل حوض البحر المتوسط منطقة صراع بين الشعوب التي عاشت على سواحله.

هيئت الحروب التي خاضها الرومان ضد مناوئيهم في شبه الجزيرة الايطالية أمثال الإتروسك وغيرهم على كسب الخبرة وتمهيد الطريق للغزو وفتح البلدان المطلة على البحر المتوسط بما فيها الشمال الإفريقي، بالإضافة إلى قدرة الرومان على التأقلم واكتساب ما هو أفضل لهم في ميدان المعارك سواء أكان عتاد أو تكتيكات حربية.

شكلت الحروب البونيقية أحد أوجه الصراع بين شعوب البحر المتوسط، وقد مثلت احد أهم أسباب زوال الإمبراطورية القرطاجية، وفسحت الطريق لتنفيض صك الاحتلال والتوسع فيما وراء البحر الأبيض المتوسط.

لم تكن قضية زوال قرطاجة إلا مرحلة أولى نحو استكمال مشروع روما التوسعي بالمنطقة، وظهر ذلك من خلال إزالة أي اثر للحكم المحلي واتضح بشكل جلي لا يدعوا إلى الشك والريبة بعد الحرب الأهلية الرومانية بالقضاء على نوميديا نهائيا عام 46 ق.م، ليعقبه الضم التام بعد عام 40م، وهذا يؤدي بنا إلى قناعة لا تدعو للشك أن اهتمام روما لمنطقة الشمال الإفريقي كان سابق لدك وتحطيم قرطاجة سنة 146 ق.م، وإنما سارعت تلك العملية في تنفيذ مخططها التوسعي على المنطقة.

غريزة التوسع بالشمال الإفريقي غضاها التعطش إلى الثروة التي تنعم البلدان البعيدة عن ايطاليا ومنها إفريقيا.

لعبت جغرافية ومناخ الشمال الإفريقي دورا أساسيا في صياغة تاريخه وتحديد مساره المستقبلي.

الرخاء الاقتصادي والثراء بالموارد الأولية مدعاة للغزو وحبك المكائد لمن يحوزها، وهذا ما كان للشمال الإفريقي، أن تكالبت عليه أيدي الطامعين على طول تاريخه، بدءا بالاحتلال الروماني وانتهاء بالغزو الأوروبي.

شهدت فترة الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي ما بين 40 و429م، استغلال لا نظير له من قبل مقارنة مع التواجد القرطاجي، مما انعكس سلبا على الوضع الاقتصادي والمستوى المعيشي للأفارقة.

نقلت قوانين روما ومنها دستور المدينة المجتمع الإفريقي من صف المواطن إلى درجة الغريب عن بلده وحتى عن إنسانيته فوضعته في درجة البربرية المتوحشة البعيدة عن التحضر وتعاملت روما معه على هذا الأساس.

أظهر المغاربة قابلية لتبني معبودات غيرهم من الشعوب بكل رحابة صدر، وهو لربما من ضمن العوامل المساعدة على اعتناق المسيحية بشكل واسع.

ألحقت سياسة روما الاقتصادية أضرار بالغة بالأهالي، وقد حولت تلك السياسة أصحاب الأرض إلى عمال أجراء وعبيد لدى الطبقة الارستقراطية من رومان ومترومنين خدموا السلطة الحاكمة بطريقة أو بأخرى.

مثل الجيش الروماني احد أهم دعامات النظام الروماني القائم على التوسع والاستغلال، كما مثل أهم تهديد أدى إلى تراجع مكانتها، وإنهاء وجودها.

عملت روما منذ احتلالها لشمال إفريقيا على توطيد وجودها، وذلك بإنشاء جيش قوي، وما تبعه من انجاز حثيث للمراكز الدفاعية والتحصينات مثل الأبراج (Turres)، القلاع (Castella)، الحصون (Burgi)، والمعسكرات (Castra)، وحتى المستوطنات التي أنيط بها مهمتين الاستغلال الاقتصادي بفلاحة الأرض والدفاع على التواجد الروماني.

كل ما أنشأه الرومان أو طوروا من أدائه كان يصب في مصلحة وخدمة روما ومواطنيها.

شكل الليمس منظومة دفاعية فعالة لحماية مكتسبات روما سواء بالشمال الإفريقي أو غيره من مقاطعات الإمبراطورية، وقد كلف خزينة الدولة مبالغ مالية كبيرة، لكن هذا لم يمنع من انهيار سمعة روما ومنظومتها العسكرية بعدم الانهزام والثبات أمام الأعداء.

كل ما نعرفه عن مقاومات الأفارقة مأخوذ من النقوش والمصادر الأدبية التي تمثل وجهة النظر الرومانية، وهذا ما يزيد من صعوبة التحليل التاريخي، وإضفاء المصداقية على الأحداث التاريخية.

الظاهر أن أسلوب الإقصاء والتهميش الذي تبتنه السلطة الرومانية حيال الأفارقة، ومنها خط الليمس الذي عبر وبشكل واضح الفصل بين التحضر والهمجية، قد خدمت المقاومة بشكل لا يدعو إلى الشك، حيث أظهرت السلطة الرومانية عنصريتها اتجاه الشعوب المستعمرة بالرغم من محاولات الرومنة.

لم تنقطع انتفاضات الأهالي وثوراتهم في الشمال الإفريقي طيلة فترة التواجد الروماني إلى غاية زواله نهائيا، كما استمرت فيما بعد مع باقي الغزاة، وبالتالي لم تكن عملية التوسع والغزو بالأمر الممتع والسهل لدى السلطة الرومانية.

بالرغم من تبني روما لسياسة التفرقة الترابية لمستعمرة الشمال الإفريقي إلى عدد من الولايات أو المقاطعات خلال مدة الاحتلال من اجل الاستحكام السيطرة عليها وتسهيل

عملية جبي الضرائب ومراقبتها بشكل أفضل والإشراف على الاستيطان والتعمير، إلا أن كل تلك الإجراءات الاحترازية لم تمنع السكان الأصليون من الاستمرار في المقاومة، وتضافر جهودهم بما يخدم مصلحتهم.

لم تحقق المقاومات ضد الاحتلال الروماني تفوقا فعليا على ارض الواقع، غير أنها حققت انتصارا معنويا عبر استمرارها وإبقاء رموز الهوية والشعور بالانتماء للأرض والوطن متقدة، بالإضافة إلى تبليغ صوت الشعوب المنطقة لسلطة المحتل برفض تواجده والاستمرار في ابتزازه واستغلال مقدرات بلاده.

كانت روما دوما تستثمر الخلافات والنزعات بين الإخوة الأعداء للوصول إلى تحقيق مآربها، سواء في القضاء على الثورات التي استعصى دحرها، أو من اجل توطيد نفوذها واستكمال مشاريعها الاستغلالية، مثل ما حدث بين الإخوة من أسرة نوبل.

لم تؤتي سياسية الرومنة أكلها، بل لاحظنا أن روما قد تخلت عن هذه السياسة بداية من القرن الأول الميلادي، وبالمقابل وجدنا تشبث الأفارقة بنظمهم وحياتهم الاجتماعية.

بالرغم من محاولات المحتل تظليل السكان المحليين بشتى الوسائل لإيهامه بصدق نواياه، كمنح المواطنة الرومانية للبعض، أو منح البعض الأخر امتيازات اقتصادية مثل التي حصل عليها قدامى المحاربين، أو بعض الأمراء المحليون أمثال جيلدون في تولي تسيير شؤون الجيوش الرومانية بالشمال الإفريقي، إلا إن الأفارقة كانوا على غاية من الإدراك والوعي، أدى إلى أن تبقى المنطقة غير مستقرة والثورات فيها غير منقطعة إلى غاية زوال الاحتلال الروماني بها بحول العام 429م.

مثلت المسيحية احد أهم قنوات التمرد والتعبير عن الغضب الذي ساير الأهالي نتيجة سياسية الميز العنصري الذي مارسته روما ضد كل ما هو غير روماني، فقد تلهفها السكان الأصليون لما مثلته من مبادئ المساواة الاجتماعية ومحاربة التفريق بين بني البشر، فكانت

هاته المثل تعبر عن خلاص هذه المجتمعات من الضيم والوضع الاقتصادي المزري الذي أوجده الاحتلال الروماني.

كانت إفريقيا احد أهم روافد انتشار المسيحية بالعالم القديم، وظهرت شخصيات مهمة في مجال التنظير والدفاع عن المسيحية والمسيحيين أمثال أوغسطينوس، ترتيليانوس وغيرهم.

نتيجة الدفاع عن المصالح المادية والامتداد الترابي، ظهر انقسام مسيحي وانشقاق كنسي أدى إلى ظهور عدة مذاهب من المنتانوسية، والماريسيونية، والمانوسية، والاريوسية، والدوناتوسية، مما عمق الفروق الدينية والخلافات المذهبية وزاد من تفاقم الأزمة الاجتماعية والسياسية، وعقد من تحكم السلطة الرومانية في زمام الحكم.

خلف النظام الاقتصادي الروماني بالشمال الإفريقي، بروز تمايز وفوارق طبقية شديدة الحدة بين الأفارقة، مما أسفر على قيام انتفاضة شعبية عرفت بثورة الريفيين خلال القرن الرابع الميلادي، فوجدنا طبقة محرومة من الأهالي اتحدت مع جماعة دينية (الدوناتية) لفرض وجودها وإعادة اعتبارها الاجتماعي والاقتصادي.

كان للانحلال الاجتماعي وانتشار الفوضى الفكرية انعكاس سلبي على الوضع المالي للإمبراطورية، فساهمت بشكل واضح في تراجع قوة روما ومكانتها العالمية، وهذا بالرغم من تبني حزمة إصلاحات لم تنفع إلا في التأجيل بانهيارها.

لا يمكننا عزل ما عاشته روما من تفسخ اجتماعي وانحلال سياسي وتراجع قوتها العسكرية، دون إظهار تبعات تلك الأضرار على باقي مستعمرتها ومنها الشمال الإفريقي.

مثل الصراع على السلطة احد أوجه التفسخ والانحلال الذي خيم على روح الإمبراطورية بشكل واضح بحلول الفترة الميلادية، وخاصة بعد وفاة الإمبراطور هونوريوس عام 428م.

انتهى الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي، غير انه لم ينتهي أثره المادي والثقافي، فلا زالت المنشات العمرانية الرومانية أو جزء منها إلى يوم الناس هذا في كل منطقة عمرها الرومان.

نتيجة تدهور قوة روما العسكرية وتخبطها في خلافات سياسية، كان آخرها خلافات تولي الحكم أن انجر عنه نزاع بين القائد العام لإفريقيا بونيفاسيوس وحاكمة روما بلاسيديا، حيث تراجعت قبضتها في معظم المناطق المستعمرة ومنها الشمال الإفريقي، والذي سيشهد فترة احتلال جديد عرفت بحقبة الاحتلال الوندالي ما بين 429 إلى غاية 534م.

خلف الاحتلال الروماني أثارا متباينة الخطورة والسوء، سواء على المستوى الاقتصادي نتيجة الاستغلال الجشع لموارد المنطقة، وكذلك على المستوى الاجتماعي بمحاولات تغيير جذري للسمات الحضارية والثقافية للسكان المحليين عن طريق مشروع الرومنة.

لم يستقر الوضع بإفريقيا بولوج الوندال إلى المنطقة عام 429م، بل ستستمر المقاومة بعد موت الملك جنسريك معبرة عن البعد الوطني وعن رفض أي شكل من أشكال السيطرة الأجنبية للمنطقة، وتمتعت خلالها بعض المناطق باستقلال ذاتي منحته إياها المقاومة المستمرة.

انتهى وجود الوندال عام 534م كما انتهى من قبله التواجد الروماني وكما سينتهي أي احتلال للمنطقة من بعد.

أتى الاحتلال البيزنطي عام 534م ليخلف الاحتلال الوندالي، نتيجة الوضع السياسي القائم من تفسخ سلطة حكام الوندال، وتفاقم ظاهرة الخلاف على السلطة مثل تلك التي حصلت في عهد الحاكم تراسمندوس، بالإضافة إلى عدم انطفاء جذوة مقاومة المحليين للتواجد الأجنبي، وهذا طول تاريخ المنطقة.

بقيت إفريقيا محتفظة بروابطها التاريخية والحضارية بالرغم من محاولات تغيرها تمكينا للمحتل ولصالح منفعته، فضلت على مر السنين وعاءا للثقافة المحلية الممتزجة بالثقافة الشرقية البونية.

المصادر والبيبليوغرافيا

المصادر والبيبليوغرافيا

1. المصادر.

أ- بالعربية:

أوغسطينوس، *في شرح الموعظة على الجبل*، مراجعة وتقديم بيشوي كامل، الإسكندرية، 1962.

بروكوبيوس القيصري، *الحروب والتاريخ السري*، III، VIII، ترجمة صبري أبو الخير، الإسكندرية.

تيتوس ليفيوس، *تاريخ روما العتيقة*، I. 6، ترجمة: المصطفى حميمو، الرباط.

سالوستيوس، حرب *يوغرطة*، 17، ترجمة. ف.ياسمينة بريهوم. فيصل الأحمر، قسنطينة، 2010.

سترابون، *الجغرافيا*، II.VII. 1، ترجمة. حسان مخائيل اسحق، دمشق، 2017.

يوسابيوس، *حياة قسطنطين العظيم*، I. IV، ترجمة.القمص مرقس داود، القاهرة.

ب- باللغة الاجنبية:

Ammien Marcellin, *Histoire de Rome*, XXIX. V.7, Trad. M. Nisard, Paris, 1860.

Augustins, S., *Lettres*, XLII ; 3.29, Trad. M. L'Abbe. Bar-le-Duc, Paris, 1864.
Claudien, *Guerre contre Gildon*, *Ouvres complètes*, I.2, Trad. MM. Héguin de Guerle, Alph Trognon, Paris, 1830.

Diodore de Sicile, *Histoire universelle*, XXIII, I, Trad. L'Abbé Terrasson, Paris.

Hérodote, *Histoire*, IV.CXCI, Trad. Larcher, Paris, 1850.

Pline l'ancien, *Histoire naturelle*, XV. XX, Trad. Dubochet, Paris, 1850.

Polybe, *Histoire générale*, I, LXV. Trad. Dom Thuillier, Paris, 1856.

Polybe, *Histoire Générale*, XII, Trad. Félix Bouchot, Paris.

Procope, *Histoire de la guerre des vandales,* I. IV. 1, Trad.Dureu de la Malle, Paris, 1852.

Procope, *Livre de la guerre contre les Perses,* I. XXVI. 1.

Pseudo-César, *La guerre d'Afrique,* XCIV, Trad. G. Budé, Paris, 1949.

Salluste, *La guerre de Jugurtha,* VI,trad. Ch. Durosoir, Paris, 1865.

Strabon, *Géographie*, XVII. 3, 15.Trad. G. De La Porte Du Theil, Paris, 1819.

Strabon, XVII, trad. R. Roget, Paris, 1924.

Suétone, *vie de Caligula*, I-LX, Trad. M. Cabaret-Dupaty, Paris.

Suétone, *Vie de Néron,* VI,VII,VIII,LVII, trad. M. Cabaret-Dupaty, 1893.

Tertullien, *Apologétique,* préface. Trad. J.P.Waltwing, Paris, 1914.

Tite-Live, *Histoire romaine,* I, 4,1, trad. M. Nisard, Paris, 1864.

Tite-Live, *Histoire romaine,* XXI, 21, 1, 4.Trad. Panckoucke, Paris.

Victor de Vita, *Histoire de la persécution vandales,* I. I, numérisé par Marc Szwajcer.

2. البيبليوغرافيا.

أ-بالعربية:

إبراهيم، خ. إ.، 1996، *دراسات في تاريخ مصر البيزنطية*، القاهرة.

إبراهيم، ع. ب.، 2015، "الأحوال الاقتصادية العامة لبلاد المغرب القديم في كل من نوميديا الشرقية والغربية"، *مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر.

أحمد، أ.، 2018، "الإمبراطورية الرومانية والقمح الإفريقي"، *مجلة البحوث الأكاديمية*، مصراته.

أحمد، م. ح.، 2017، *تاريخ بيزنطة السياسي والحضاري (330-1403 م)*، عمان الأردن.

إسكندر، ف. ن.، 2006–2007، "الشمال الإفريقي في عهد الوندال"، حوليات التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الخامس، القاهرة.

أشرف، ص. م.، 2008، *تيبريوس ثاني الأباطرة الرومان (42 ق.م–37م)*،بيروت.

أندري، ب.، أندري، ن.، إيف، ل.، 1960، *الجزائر بين الماضي والحاضر*، ترجمة اسطنبولي، ر.، ومنصف، ع.، 1984، الجزائر.

أندريه، ن.، إدغار، و.، كارل، غ. ي.، *الأصول الوثنية للمسيحية*، تر. سميرة عزمي الزين.

أويحي، س.، 2016، "الطقوس السحرية والرسوم الصخرية في شمال إفريقيا"، مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية، الجزائر.

أيت عمارة، و.، 2014، "مقاومة الأفارقة للتواجد الوندالي في إفريقيا"، *مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ*، العدد 9، جامعة معسكر.

أيت عمارة، و.، 2015، "التجارة ومواردها في إفريقيا الوندالية"، *عصور الجديدة*، العدد 16–17، جامعة وهران.

أيت عمارة، و.، 2016، "دور السفينة في التجارة والتوسع الاستيطاني في البحر المتوسط القديم"، أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية، الجزائر.

إيمار، أ.، أوبوايه، ج.،1964، "روما وإمبراطوريتها" ، *موسوعة تاريخ الحضارات العام*،المجلد الثاني،ترجمة فريد م. داغر وفؤاد ج. أبو ريحان، بيروت.

أيوب، إ. ر. ق.ال.، 1996، *التاريخ الروماني*، لبنان.

بروديل، ف.، 1993، *المتوسط والعالم المتوسطي*، الطبعة الأولى، ترجمة وإيجاز، مروان أبي سمرا، بيروت.

بشاري، م. الح.، 2012، "أوضاع الإمبراطورية الرومانية في النصف الثاني من القرن الرابع ميلادي ثورة جيلدون 398/397"، *مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب*، العدد 13.

بشاري، م. ح.، 2002، "السياسة المائية الرومانية في منطقة الهضاب العليا"، *حولية المؤرخ*، العدد الثاني، الجزائر.

بن عبد المؤمن، م.، 2012، "عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم"، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران.

بن عبد المؤمن، م.، 2013، *مدينة بورتوس ماغنوس-بطيوة- دراسة في تاريخها القديم*، وهران.

بن علال، ر.، 2017، "رجال الدين المغاربة في ظل الصراع الديني المسيحي (284-430 م)"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر.

بنت النبي، م.، 2016، "هيرودوت يتحدث عن الحياة الاجتماعية لسكان بلاد المغرب القديم"، مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية، الجزائر.

بوساحة، الط.، 2021، "نشأة وتطور الجيش الروماني من العهد الملكي إلى الإمبراطوري (التركيبة والتجنيد)"، *مجلة الإحياء*، المجلد: 21، العدد: 28، جامعة الحاج لخضر باتنة.

بوعزيز، ي.، 1995، *الموجز في تاريخ الجزائر*، الجزء الأول، الجزائر.

بيكار، ش. ج.، *حضارة شمال إفريقيا (تريبوليتانيا- البروقنصلية- نوميديا- موريتانيا) خلال الفترة الرومانية*، ترجمة وتحقيق وتعليق العربي عقون، 2020، الجزائر.

تشارلز ورث، ا. ب.،1950، *الإمبراطورية الرومانية*، ترجمة. رمزي عبده جرجس، 2003، القاهرة.

جغلول، ع. ق.، 1982، *مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط*، ترجمة. الحكيم فضيلة، بيروت.

جمال، م.، 2009، "المقاومة النوميدية للاحتلال الروماني في الجنوب الشرقي الجزائري، ثورات الأوراس والتخوم الصحراوية نموذجا"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة.

جورج، ر.، 1993، *هيبوليتوس الروماني*، دكوانة.

جوليان، ش. ا.، 1931، *تاريخ إفريقيا الشمالية تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي 647 م*، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة 1969، تونس.

جيبون، إ.، 1828، *اضمحلال الإمبراطورية الرومانية و سقوطها*، الجزء الأول، ترجمة محمد علي أبو درة 1997، مصر.

حارش، م. هـ.، 1992، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر.

حارش، م. هـ.، 1993، "ثورة فيرموس 372–375 م"، *مجلة الدراسات التاريخية العدد السابع*، الجزائر.

حارش، م. هـ.، 1996، *التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا*، الجزائر.

حارش، م. هـ.، 2008، "الجذور التاريخية لمملكة نوميديا"، *مجلة الإتحاد العام الأثاريين العرب*، العدد 10، القاهرة.

حارش، م. هـ.، 2013، *دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة*، الجزائر.

حارش، م. هـ.، 2013، *مملكة نوميديا دراسة حضارية منذ أواخر القرن التاسع إلى منصف القرن الأول قبل الميلاد*، الجزائر.

حارش، م. هـ.، 2014، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر.

حارش، م. هـ.، 2014، *التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203–46 ق.م*، الجزائر.

حارش، م. هـ.، 2015–2016، "الدولة الجزائرية (مملكة نوميديا من منظور المصادر الإغريقية.اللاتينية (دراسة تحليله)"، *أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر.

حارش، م.هـ.، 2013، *دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة*، الجزائر.

حافظ، أ. غ.، 2007، الإمبراطورية *الرومانية من النشأة إلى الانهيار*، الإسكندرية.

حجازي، ع. الع. ع. الف.، 2007، *روما وإفريقيا من نهاية الحرب البونية إلى عصر الإمبراطور أغسطس*، مصر.

حسين، ش.، 2005، *الرومان*، مصر.

حفناوي، ب.، 2016، *طبقات الأدب النوميدي الإفريقي خمسة آلاف عام من الثقافة في الشمال الإفريقي*، الجزائر.

حفناوي، ب.، 2017، *الترجمة النقدية التأويلية ترجمة الكتب المقدسة*، مصر.

حمدان، م. أ.، 2017، *تاريخ بيزنطة السياسي والحضاري (330–1453 م)*، الأردن.

حمداوي، ج.، 2014، *الديانة عند الامزيغيين*، الجزائر.

الحويري، م. م.، 1995، *رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية*، القاهرة.

خليل، أ. ع.، 2011، "الدولة الرومانية في عهد ديوكلتيانوس: 284–305 م"، ncyclopaedia Britanica.

خنيش، ع. ف.، 2012–2013، "التوسع الزراعي في إفريقيا القديمة خلال الفترة الرومانية"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة.

دبوز، م. ع.، 2013، *تاريخ المغرب الكبير*، الجزء الأول، الجزائر.

دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، *الحضارات القديمة*، الجزء الثاني، ترجمة.نسيم واكيم اليازجي، دمشق.

ديورنت، و.، 1975 ،*قصة الحضارة*، ،ترجمة محمد بدران، 1988، بيروت.

الربيع، ع.، 2018، "ملامح الفكر الديني وطقوسه في بلاد المغرب القديم"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 13، الوادي.

الربيع، ع.،2016، "المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادي"، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة.

رحماني، ب.، 2016، "الجزائر في ظل الاحتلال الروماني أو نحو التأسيس لكتابة تاريخنا الوطني القديم"، مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية، الجزائر.

رستم، أ.، 1997، *الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القران*، لاهور.

رستم، أ.، 2017، *الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب*، إنجلترا.

رمضان، ت.، 1993، "معاهدة زاما(201 ق.م)"، *مجلة الدراسات التاريخية*، العدد السابع.

رمضاني، أ. هـ.، 2018، "روما وسياسات الإصلاح: يوليوس- قيصر أغسطس- ديوقليسيانوس أنموذجا"، *أفكار وآفاق*، جامعة الجزائر 2، المجلد 6، العدد 1.

زموري، خ.، 2018، "القديس اغسطين بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي"، أطروحة دكتوراه، جامعة 8 ماي قالمة.

سامي، س. أ.، 1988، *تاريخ الرومان*، بغداد.

سرحان، أ. ب.، 2013، "الحروب البونية بين روما وقرطاجة (264–146 ق.م) أسبابها– أحداثها– نتائجها وموقف الممالك الأهلية المغربية منها."، *مجلة البحوث الدراسات الإفريقية*، العدد 35، جامعة القاهرة.

السعدني، م. إ.، 1997، *معالم تاريخ روما القديم منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي*، القاهرة.

سفينسيسكايا، إ.س.، 2007، *المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية خفايا القرون*، ترجمة. حسان ميخائيل اسحق، دمشق.

سنيوبوس، ش.، تاريخ الحضارة، تعريب محمد كرد علي، 1908، القاهرة.

الشاذلي، ب.، محمد، ط.، 1999، *قرطاج البونية تاريخ حضارة*، تونس.

شارل، ج.، 2005، *المسيحية نشأتها وتطورها"*، ترجمة. عبد الحليم محمود، 2008، بيروت.

شارن، ش.، 2002، "النتائج الاقتصادية للتوسع الروماني في نوميديا وموريطانيا القيصرية"، *مجلة حولية المؤرخ*، الجزء الأول، الجزائر.

شفيق، م.، 1988، *ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الامازيغيين*.

شنيتي، م. ب.، 1982، *سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م–40 ق.م)*، الجزائر.

شنيتي، م. ب.، 2012، *نوميديا وروما الإمبراطورية تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال*، الجزائر.

شنيتي،م. ب.، 2002، *أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)*، الجزائر.

شنيتي،م.، ب.، 2003، *أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)*، الجزائر.

شوا، إ.، 2009، *عصر الإمبراطورية. كيف تتراجع القوى المطلقة على عرش العالم وأسباب سقوطها*، ترجمة محمد، م. ص.م.، 2011، الرياض.

شوقي، ع–الل. الج.، إبراهيم، ع–الل. ع–الع.، 2009، *الحضارة الإفريقية*، القاهرة.

الشيخ، ح.، 1993، *الرومان*، الإسكندرية.

صحراوي، ع. ق.، 2011، *التحصينات العسكرية بنوميديا وموريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني 46 ق.م–2847 م*، عين مليلة.

الطاهر، م.، بورونيَة، ش.، 1999، *قرطاج البونية*، الإسكندرية.

طراد، ن. إ.، 1997، *تاريخ الرومان*، الجيزة.

طراد، ن. إ، 2008، *تاريخ الرومانيين من بناء رومية إلى تلاشي الحكومة الجمهورية*، الجيزة.

عبد الغني، م. الس. م.، 1997، *أضواء على المسيحية المبكرة*، مصر.

العروي، ع.، 1984، *مجمل تاريخ المغرب*، الجزء الأول، الدار البيضاء.

عفاف، س. ص.، 1982، *الإمبراطورية البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان*، القاهرة.

العقون، أ. الخ.، "مظاهر المجتمع والحضارة الليبية من خلال الآثار المصرية القديمة"، مجلة الاتحاد الأثريين العرب، العدد 8، القاهرة.

عقون، الع.، 2009، "الامازيغ عبر التاريخ: نظرة موجزة في الأصول والهوية"، الحوار المتمدن، العدد 2650، الجزائر.

عقون، الع.، 2016، "الليمس النوميدي نظرة موجزة في الخطوط والمراكز الأمامية للتوسع الروماني في الجنوب النوميدي"، *مجلة أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية*، الجزائر.

عكاشة، ع.، الناطور، ش.، بيضون، ج.، 1991، *اليونان والرومان*، الأردن.

عمران، ع. الح.، 2011، "حركة التنصير الديني في شمال إفريقيا خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين"، *مجلة دراسات تاريخية*، العددان 115 و116.

عمران، ع. الح.، 2013، "نوميديا أثناء الاحتلال الروماني"، *مجلة عصور جديدة*، العدد 10، جامعة وهران.

عمران، ع. الح.، 2017، "القديس أوغسطين وصراعه مع الدوناتيين"، *مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية*، العدد 11 المسيلة.

عمران، ع. الح.، 2018، *الرومنة والتدين في شمال إفريقيا*، الجزائر.

العود، م. الص.، 2010، *التحولات الحضارية في شمال إفريقيا في الفترة الوندالية 429-534 م*، قسنطينة.

العود، م. الص.، 2016، "التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والدينية في بلاد المغرب القديم خلال الفترتين الوندالية والبيزنطية"، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 2.

عيساوي، م.، 2009، *النقوش النوميدية في بلاد المغرب القديم دراسة تاريخية لغوية حول الواقع قبيل الاحتلال الروماني*، المحمدية.

عيساوي، م.، 2010، "المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم (من عصور ما قبل التاريخ إلى عشية الفتح الإسلامي)، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطينة.

غانم، م. ص.، 1997، "الملك سيفاكس الكيان السياسي النوميدي"، *مجلة التراث*، العدد 9، باتنة.

غانم، م. ص.، 2003، *التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط*، عين مليلة.

غانم، م. ص.، 2006، *المملكة النوميدية والحضارة البونية*، عين مليلة.

غانم، م. ص.، 2008، *سيرتا النوميدية النشأة والتطور*، عين مليلة.

غانم، م. ص.، 2010، *مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم*،الجزائر.

فرحان، م.، "حروب الإمبراطور جستنيان الأول (527–565م) في المصادر والمراجع العربية والبيزنطية"، *حوليات كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية*، المجلد 3، العدد 33، الانبار.

فوكه، م.، 2014، "مناطق سهل الشلف في ظل الاحتلال الروماني في الفترة الممتدة من ق 1 ق.م إلى ق 3 م"، *مجلة عصور جديدة*، العدد 11، جامعة وهران.

قداش، م.، 1993، *الجزائر في العصور القديمة*، ترجمة صالح عباد، الجزائر.

قزال، إ.، 1930، *تاريخ شمال إفريقيا القديم*، الجزء الثامن، ترجمة محمد التازي سعود، 2007، الرباط.

كامبس، غ.، 1960، *في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ*، تعريب العربي عقون، 2010، الجزائر.

كامبس، ق.، 1980، *البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل*، 2010، الدار البيضاء.

الكيرانوي، بن خ. الر.، 1989، *إظهار الحق*، الجزء الثالث، السعودية.

لعياضي، ح.، 2017، "مقاومة الأوراس للاحتلال البيزنطي"، *مجلة البحوث التاريخية*، العدد 1، جامعة بوضياف محمد، المسيلة.

ماسون، إ.، 1960، *الإمبراطور الرهيب تيبيريوس*، تعريب. جمال السيد، 1985، مصر.

المبكر، م.، 2001، *شمال إفريقيا القديم حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية 305 م–429 م*، الدار البيضاء.

محجوبي، ع.، 2001، *ولاية إفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السويري (146 ق.م–235 م.)*، تونس.

محجوبي، ع.، 1985، "العصر الروماني وما بعده في شمال إفريقيا"، *تاريخ إفريقيا العام*، المجلد الثاني، *حضارات إفريقيا القديمة*، تحت إشراف جمال مختار، باريس.

المدني، أ. ت.، 1946، *المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا*، الجزائر.

المدني، أ. ت.، 1986، *قرطاجنة في أربعة عصور من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر.

مسرحي، ج.، 2009، "المقاومة النوميدية في الجنوب الشرقي الجزائري، ثورات الأوراس والتخوم الصحراوية نموذجا"، مذكرة لنيل درجة ماجيستر في التاريخ القديم، جامعة منتوري قسنطينة.

مصطفى، ع.، 1999، *الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية*، الإسكندارية،

مصطفى، ع.، 1999، *الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية*، الإسكندرية.

مهران،م. ب.، 1990، *مصر والشرق الأدنى القديم. المغرب القديم*، الإسكندرية.

مونتسكيو، 1748، *تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط*، ترجمة عبد الله العروي، 2011، الدار البيضاء.

الناصري، أ. ع.، 1991، *تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري*، القاهرة.

نصحي، إ.، 1978، *تاريخ الرومان*، الجزء الأول، القاهرة.

نورمان، ب.، *الإمبراطورية البيزنطية*، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، 1950، القاهرة.

ب-باللغة الأجنبية:

Agnès, P., 1987, « Sagonte trois destins vus de Rome », *M.C.V,* Tome 23, Paris.

Aït Amara, O., 2009, *Les soldats d'Hannibal,* Clermont-Ferrand.

Aït Amara, O., 2014, « La conquête de la Maurétanie (39-45) », *actes du CXXXVI C.T.HS,* Perpignan.

Akkache, A., 1973, *les guerres paysannes de Numidie,* Alger.

Albertini, E., 1937, *L'Afrique romaine,* Alger.

André, L., 2016, « Grandeur de l'empire romain », *Herodote.net*, Encyclopédie, Paris.

André, P., 1930, « Histoire ancienne de l'Afrique du nord », *H.E.S*, Volume 2, Numéro 6.

Armand, A., 1844, *l'univers Afrique: esquisse générale de l'Afrique et Afrique ancienne. Carthage. Numidie et Mauritanie,* Tome III, Paris.

Ayache, A., 1964, *Histoire ancienne de l'Afrique du nord,* Paris.

Barbouille, J., 2010, « L'importance du génie militaire dans l'armée romaine à l'époque impériale », *R.H.*, 261, Paris.

Basset, R., 1910, *Recherches sur la religion des berbères*, Paris.

Baudement, T., 1865, « Vie de César », *C.B.O*, Paris.

Beard, M., 2002, « A quoi ressemblait vraiment Jules César », Url. https://www.nationalgeographic.fr/histoire.

Bejaoui, F., 1994, « Sufetula chrétienne »,La Tunisie antique et islamique: *Patrimoine archéologique tunisien*, Tunisie.

Béliard, J., 1854, *Souvenirs d'un voyage en Algérie .Les monts Fel-Fela et leurs carrières de marbre blanc,* Paris.

Belkhodja, Kh., 1970, « L'Afrique Byzantine à la fin du VIe et au début du VIIe siècle », *Revue de l'occident musulman et de la méditerranée,* n 8.

Ben Ramdhane, Kh., 2004, "Gabès", La Tunisie antique et islamique: *Patrimoine archéologique tunisien*, Tunisie.

Berthier, A., 1981, *La Numidie Rome et le Maghreb*, Paris.

Bertrand, L., 1992, *L'état romain quatorze siècles de modèles politique,* Paris.

Bertrand, L., 1995, *L'état romain,* Paris.

Bévia, J., 1913, « Le christianisme en Afrique. Origine, développement, extension », *R.A.F,* N 290-291.

Bloch, G., 1922, *L'empire romain évolution et décadence*, Paris.

Boissier, G., 1912, *L'Afrique romaine promenades archéologiques en Algérie et en Tunisie,* Paris.

Bongars, B., 1843, *Biographie universelle ancienne et moderne : histoire par ordre alphabétique de la vie publique et privé de tous les hommes,* Paris.

Bourgeois, C., 1980, « Les Vandales, le vandalisme et l'Afrique », *Ant.fr*, 16.

Burgeon, Ch., 2017, *La première guerre punique ou la conquête romaine de la Sicile,* Louvain-la-Neuve.

Cagnat, R., 1913, *L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs,* Paris.

Camps, G., 1988, « Antalas », *E.B,*N 5, Paris.

Camps, G., 1998, « Firmus », *E.B*, N 19, Paris.

Carcopino, J., 1956, « Les Vandales et l'Afrique », V, *Revue des deux monde.*

Chadburn, C., 2006, « Les auxiliaires africains dans l'armée romaine au I et IIe siècle », Limitis.

Charles, R., 1829, *Œuvres complètes de Rollin,* Tome 2, France.

Chastagnol, A., 1967, « Les gouverneurs de Byzacène et tripolitaine », *Ant.Afr*,1.

Christa, L., 2007, « Les portraits de Juba II, roi de Maurétanie, et de Ptolémée, son fils successeur », *R.A*, N°43, Paris.

Claude, A.; 1919, *Larousse classique illustré,* Paris.

Clavé, Y., 2017, *Le monde romain VIII siècle av. J.-.-VI s. apr. J.-c.*, Malakoff.

Courtois, Ch., 1955, *Les Vandales et l'Afrique,* Paris.

Cuvillier, A., Bouin, Ad., 1845, *Essai d'un dictionnaire des principaux ports et mouillages,* Paris.

Damichel, O., 1921, *«* Thapsus *»*, *B.S.G*, Paris.

De fontaine, A-J-Ch., 1833, *Des travaux du fleuve du Rhin,* Paris.

De Lacroix, F., et autres, 2014, Le petit Larousse, Paris.

De Lamartine, A., 1874, *Cicéron*, Paris.

Decret, F., Fantar, M., 1981, *L'Afrique du nord dans l'antiquité. Histoire et civilisation (des origines au V siècle),* Paris.

Deproost, P. A., 2004, « Hic non finit Roma. Les paradoxe de la frontière romaine », *F.E.C*, numéro 7, Paris.

Desanges, J., 1992, « Caprarienses », *E.B*, 11

Desnos, 1783, *Description historique et géographique de la ville de Messine*, Paris.

Didot, F., 1854-1866, *Nouvelle biographie générale: depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours,* Paris.

Dumaine, J., 1843, *De la colonisation en Afrique, par un paysan du Danube*, Paris.

Duval, N., 1984, « Culte monarchique dans l'Afrique vandale:culte des rois ou culte des empereurs ? » *R.E.Aug*, 30, France.

Eugene, G., 1899, *Excursion dans la péninsule iberique, Espagne et Portugal*, Paris.

Fantar, M., 1970, *Carthage la prestigieuse cite d'Elissa,* Tunisie.

Ferrère, F., 1897, *La situation religieuse de l'Afrique romaine depuis la fin du IV siècle jusqu'à l'invasion des vandales(429),* Paris.

Fethi, C., Roland, P., Pol, T., 1995, “La baie d’Utique et son évolution depuis l’antiquité”, *Ant.Afr*, vol.31, Paris.

Février, P. A., 1989, *Approches du Maghreb romain pouvoirs. Différences et conflits*, ex-en-Provence.

François, P., 2015, "Le ravitaillement des armées romaines pendant les guerres civiles (49-30 avant J.-C.)", Thèse de doctorat de l’université Paris-Est, *CRHEC*.

Gaïd, M., 2009, *Les Berbères dans l’histoire de la préhistoire a la Kahina*, Tome 1, Alger.

Gaillardin, C., 1838, *Histoire du moyen âge,* Tome 1, Paris.

Galibert, L., « Vandale durant 100 ans, expédition de Bélisaire » *L’Algérie ancienne et moderne,* Urlhttps://www.algerie-ancienne.com/Salon/Galib/4Vandal/09belisaire.htm.

Gibbon, E., 1788, *Histoire de la décadence et de la chute de l’empire romain,* T.I, Trad. Guizot, M.F, 1828, Paris.

Gigout, A. L., 2009, **«** La mise en valeur d’Hannibal à Sagonte : le chef punique comme héros épique à l’aube des punica **»**, *Vita*.

Goulard, J., 1849, *les donatistes*, Toulouse.

Gsell, S., 1893, « Essai sur le règne de l’empereur Domitien », Thèse de doctorat, faculté des lettres de Paris.

Gsell, S., 1930, *Histoire ancienne de l’Afrique du nord,* T.V, *Les royaumes indigènes organisation sociale, politique et économique*, Paris.

Gsell, S., Graillot, H., 1894, « Exploration dans le département de Constantin (Algérie).-Ruines romaines au nord des monts de Batna », *M.A.H*, T.14.

Guizot, M., 1851, *Histoire des origines gouvernement représentatif en Europe,* Paris.

Hadot, P., Meslin, M., 1957, « A propos du Donatisme », *Archive de sociologie des religions,* Paris.

Heinriche, J.W., 1859. »Donatistes », *Dictionnaire encyclopédique de la théologie catholique,* Tome VI, Trad. I. Goschler, Paris.

Henri, W., 1865, *Promenade en Europe et au-delà,* Paris.

Homant, Y., 2019, « Constantin le grand (280-337) le premier empereur chrétien », *herodote.net.*

Humm, M., 2018, *La république romaine et son empire de 509 à 31 av.J.-C.,* Paris.

Jacques, A., 2002, «D'une guerre punique à l'autre : la puissance de Carthage », *Vita Latina,* N 166.

Jérôme, F., 2013, *Le haut-empire romain 44 a.c.-235 p.c,* Paris.

Knafou, R., 1990, « Les Baléares, laboratoire d'une société nouvelle », *Espace géographique,* Tome 19-20, n°2

Koch, E., 2016, *Portrait d'un tyran :Commodus Hercules Romanus, le prince gladiateur,* Paris.

Konrad, V., 2013, « Les Vandales en Afrique du nord+fossoyeurs ou héritiers de la romanitas », *La lettre du collège de France,* 37.

Kotula, T., 1976, « Les africains et la domination de Rome », trad. M. Michalak, *Dialogue d'histoire ancienne*, vol. 2.

Kotula, T., 1977, « Le fond africain de la révolte d'Héraclien en 413 », *Ant Afr,* 11.

Kovalevskaja, V. B., 1989, « Le Caucase et les Alains » *D.H.A*, Vol 15, N 2

La Croix, L., « Numidie et Maurétanie », *L'Univers. Histoire et description de tous les peuples,* n 56 ; Paris.

Lancel, S., 1989, « Augustin (Saint) », *E.B*,N 7, Paris.

Lancel, S., 1994, « Circoncellions », *E.B*, N 13, Paris.

Lancel, S., 2000, « Victor de Vita, témoin et chroniqueur des années noires de l'Afrique romaine au Ve siècle », *C.A.R.I*, N 4

Lancel, S., 2002, « L'Afrique Vandale », *Clio,* Paris.

Laporte, J. P., 2002, « Les armées romaines et la révolte de Firmus en Maurétanie césarienne », *Centre d'étude et de recherches sur l'occident romain,* N 26, Paris.

Laporte, J. P., 2010, « Nubel, Sammac, Firmus et les autres. Une famille berbère dans l'empire romain », *A.R,* Rome.

Laporte, J. P., 2014, « Les révoltés dans la guerre de Firmus en Maurétanie Césarienne (370-375) », *C.T.H.S*, Perpignan.

Laporte, J-P., 2014, *Les confins méridionaux de l'Afrique romaine*, Limoges.

Lassère, J-M., 1977, *Vbique Popvlvs .Peuplement et mouvement de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 a.c.-235 p.c.),* Paris.

Le Beau, Ch., 1826, *Histoire du bas-empire*, Tome V, Paris.

Le Bohec, Y., « Le visage de la guerre pour les civiles dans l'antiquité Victor de Vita et les Vandales », *B.A, Ant. Clas*.

Le Bohec, Y., « Stilichon ou Stilicon (360-env.-406) », *Universalis eu.fr,* Url. https://www.universalis.fr/encyclopedie/stilichon-stilicon.

Le Bohec, Y., 1989, «Les unités auxiliaires de l'armée romaine en Afrique proconsulaire et Numidie sous le Haut-Empire », *Etudes d'antiquités africaines,* Paris

Le Bohec, Y., 2018, « La conquête de l'Afrique romaine par les vandales (429-439 après J.-C.) », *Revista de Historia Antigua*, 36

Le Gall, J., 1957, « Christian Courtois. Les vandales et l'Afrique », Compte rendue, *R.B.P.H*, Tome35

Le Glay, M., 2006, « Le paganisme en Numidie et dans les Maurétanies sous l'empire romain », *Ant.Afr*, Paris.

Le Naim, De T., 1732, *Histoire des empereurs, et des autres princes qui ont régné durant les six premiers siècles de l'Eglise, de leurs guerres contre les Juifs, des Ecrivains profanes, & des personnes les plus illustres de leur temps,* Tome 5, Bruxelles.

Lefort, L., 1852, *Saint Amboise archevêque de Milan sa vie et extrais de ses écrits*, Lille.

Ludwig, M., 1836, *Histoire des Vandales : depuis la première apparition sur la scène historique jusqu'à la destruction de leur empire en Afrique,* Paris.

Lugan, B., 2016, *Histoire de l'Afrique du nord (Egypte, Lybie, Tunisie, Algérie, Maroc) des origines à nos jours*, Monaco.

Madeleine, H. M., 1982, *Carthage*, Paris.

Mahfoud, F., 2009, *les rois africains de l'antiquité, nos ancêtres les rois numides les aguellids des imazighen (du 3 siècle avant J-C. au 1 siècle après J-C.)* Alger.

Mahjoubi, A., 2010, « La période romaine et post-romaine en Afrique du nord », Histoire générale de l'Afrique, II. *Afrique ancienne*, Paris.

Maier, J-L., 1989, *Le dossier du donatisme,* Tome II, Berlin.

Majdoub, M., 1989, *«* Les luttes du début du Ier siècle av.J,-C. au nord de la Mauritanie *», publication de l'école française de Rome, école Française de Rome,* N 166, Rome.

Maraval, P., 2003, « Victor de Vita, Histoire de la persécution vandale en Afrique », *R.h.Ph.R*, Strasbourg.

Marc, O., 2019, « Tortue, tenaille, éperon, les principales manœuvres des légionnaires romains, *Géo Histoire sur Rome*, N 44.

Maurice, B., 1886, *Expédition française en Tunisie (1881-1882),* Paris.

Mercier, E., 1888, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les plus reculés jusqu'a la conquête française (1830),* Tome 1, Paris.

Meyers, J., 1994, « Vingt-deux sermons donatistes du temps d'augustin encore trop méconnus », *GRAA*, Montpellier.

Meynier, G., 2007, *L'Algérie des origines de la préhistoire à l'avènement de l'islam,* Alger.

Michel, H. 2018, *La république romaine et son empire de 509 à 31 av.J.-C.,* Paris.

Michel, H., 2018, *La république romaine et son empire de 509 à 31 av.J.-C.,* Paris.

Modéran, Y., 1989, « Les Maures et l'Afrique », *M.E.F.R.A*, Tome 101, N 2.

Modéran, Y., 1998, « Genseric », *E.B*, 20, Aix-en-Provence.

Modéran, Y., 2003, *Les Maures et l'Afrique romaine (IVe-VIIe sicles)*, Rome.

Moke, H. G., 1837, « Des principales branches de la race germanique », *Archives historiques, philosophique et littéraire,* Tome 1, Belgique.

Mommsen, T., 1863, *Histoire romaine*, t. 5, Trad. Alexandre, C. A., Paris.

Monceaux, P., 1909, « L'église donatiste avant saint Augustin », *R.H.R*, Vol 60, Paris.

Morazzani, A., 1966, « Essai sur la puissance maritime des Vandales », *B.A.G.B: Lettres d'humanité*, N 25, Paris.

Moreno, S., 2020, « Sbeitla, la splendeur de la chrétienté africaine », *Histoire et Archéologie chrétienne,* Tunis.

Moukraenta, K., 2016, « Al-Hadra l'antique Oppidum Novum », *Rewiew Ossour*, 30-31, Algérie.

Napoli, J., 2010, « Rome et le recrutement de mercenaire », *Revue historique des armées*, 260, Paris.

Nicolet, C., « *Auguste* Caius Julius Caesar Octavianus Augustus ou Octave (63 av. J.-C. 14 apr. J.-C.) », *Universalis,* https://www.universalis.fr/encyclopedie/caius-julius-caesar-octavianus-augustus-auguste/#PH99B047

Panaget, Ch., 2014, « Les révoltes militaires dans l'empire romain de 193 à 324 », thèse de doctorat, université de Rennes II, Rennes.

Pérez, C. B., « Les lettres anti donatistes d'Augustin:le vocabulaire employé pour dénoncer les crimes des donatistes », *L'étude des correspondances dans le monde romain de l'antiquité classique à l'antiquité tardive.permanences et mutations.*

Picard, G-Ch., 1990, *La Civilisation de l'Afrique romaine,* Paris.

Potier, B., 2008, « Les Circoncellions. Un mouvement ascétique itinérant dans l'Afrique du nord des IV et Ve siècles » *Ant Afr*, 44.

Richardot, P., 1996, « Le plus vieux limes: la défense de l'Afrique romaine", *CFHM*, Paris.

Royou, J. C., 1824, *Histoire romaine depuis la fondation de Rome jusqu'au règne d'Auguste* Tome.1, Paris.

Stora, B., Ellyas, A., 1999, « Chrétiens d'Afrique du nord (Maghreb) », Les 100 portes du Maghreb, Paris.

Tauxier, H., 1890, "Le comte Romanus", *R.A.F*, N 199.

Tessier, G., 1953, « Tablettes Albertini, actes privés de l'époque vandale (fin du Ve siècle) », *B.E.Ch*, tome 110

Tessier, H., 2003, « Les racines africaines du christianisme latin », *Institut d'études augustiniennes*, Paris.

Théry, M., 1870, « Etude sur un chapitre de l'histoire du V siècle », *Mémoire de l'académie impériale des sciences, arts et belles-lettres de Caen*, France

Vellard, P. A., 1896, *Carthage autrefois, Carthage aujourd'hui : description et guide*, Chapitre III, France.

Victor, L. T., 1926, « Tacfarinas ou Abd El Krim sous Tibère », *La revue française de Prague*, N 5, Paris.

Wikipédia, « Domitius Alexander », URL.
https://fr.wikipedia.org/wiki/Domitius_Alexande

Zlatnansky, J., 2001, « La Baltique, mer dynamique », *Bulletin AIEA*, N 44, Autriche.

فهرس الأعلام

فهرس الاعلام

أ

أبولون---------- 146
اصدربعل---------- 17, 29, 30, 31
أدربعل ---------- 40
أرابيون ---------- 45, 46
أغاثوكليس ---------- 34
أغسطس 46, 48, 49, 52, 55, 56, 57, 59, 68, 69, 72, 81, 87,
95, 96, 97, 98, 101, 102, 104, 110, 122, 124, 125, 158,
164, 205, 212, 214
أفريكا ---------- 144, 146
أفلاطون---------- 22
ألبير فيفري---------- 37
إسحاق ---------- 187
إجمازن---------- 195
الكسندر ---------- 73
أنطنيوس ---------- 77
أوبرواز ---------- 182
أوثو ---------- 103
اورليوس---------- 72, 73, 122
أوستروغوت ---------- 223
أوغسطينوس - 152, 154, 156, 167, 168, 169, 185, 207, 232,
206
اوكتافيوس ---------- 45, 49, 95, 10
أوكسيدو ---------- 186
أونطونيوس---------- 73
أونولياس ---------- 160
إيلماس ---------- 131

ب

ببلوس---------- 92
ببليكولا ---------- 92
برتراند ---------- 101, 112
برتيناكس ---------- 106
بروتس ---------- 92
بلاسيديا ---------- 173, 206, 233
بليفيا ---------- 95
بلينوس الكبير ---------- 114, 123
بهسبانيا---------- 31, 32, 54, 108
بواسييه ---------- 77
بوخوس---------- 44
بوغود ---------- 44
بولبيوس ---------- 63
بولس ---------- 149, 187, 213
بوليبوس ---------- 30, 35
بوليبيوس----------ز, 25, 53, 114, 115, 125
بومبيوس---------- 41
بونيفاسيوس---------- 173, 205, 233
بيتريوس ---------- 42
بيروتوس---------- 94
بيليزار ---------- 222, 223

ت

تاركينيوس ---------- 89, 91, 92
تانيت ----------146
تراجانوس ---------- 18
تراسمندوس ----------216
ترتليانوس ---------- 148, 159
تريجاتيوس ----------207
تكفاريناس---------- 46
تيبريوس جراكوس ----------100
تيتوس ---------- 30, 61, 87, 88, 93, 154, 206
تيتوس لاركيوس ---------- 93

ث

ثيودوسيوس----------163
ثيودوسيوس --- 163, 165, 174, 176, 178, 189, 194, 195, 197
ثيودوسيوس الأول---------- 165, 174

ز

زاماك ---------- 191, 192, 193

س

سالوستيوس ---------- 22, 44, 78, 116, 132, 206

سانت أرنو ---------- 77

سبتيموس سفيريوس ---------- 81

سبتيميووس سفيروس ---------- 69, 73

ستورنوس ---------- 146

ستيليشون ---------- 173, 174, 175

سفاكس ---------- 31

سكريبونيوس كوريو ---------- 55

سولا ---------- 41, 102

سيبتيموس ---------- 56, 57, 105, 107, 121, 152

سيبيون الإميلي ---------- 16, 35, 38

سيفيروس ---------- 107

ش

شنيتي 17, 18, 20, 21, 34, 36, 37, 39, 40, 42, 45, 53, 57, 65, 66, 69, 79, 109, 110, 112, 121, 122, 126, 128, 133, 134, 138, 139, 142, 143, 150, 164, 165, 171, 183, 184, 185, 186, 187, 188, 189, 215

شيشرون ---------- 41, 44, 69, 87, 152

ص

صالفينا ---------- 174

غ

غاليانوس ---------- 160

غايا ---------- 31, 39, 131, 133

غلوسا ---------- 39

غلوسا ---------- 133

ف

فاليريانوس ---------- 99, 109

فسبازيانوس ---------- 103

ثيوسوديوس ---------- 195

ج

جراتيانوس ---------- 174

جليريوس ---------- 162

جنسريك 156, 201, 204, 205, 206, 207, 208, 209, 210, 212, 213, 214, 217, 218, 220, 223, 233

جوبتر ---------- 146

جوستنيان الأول ---------- 221

جيلدون 56, 121, 173, 174, 175, 176, 177, 178, 180, 181, 182, 188, 190, 191, 195, 197, 231, 209, 272, 273

جيلمار ---------- 223

ح

حنبعل ---------- 29, 30, 31, 32, 33, 61, 115, 124

د

دوميتيانوس ---------- 154

دوناتوس ---------- 166, 167, 168, 169, 184, 186, 187, 196

دويليوس ---------- 27

ديوكليسيانوس 21 ,1872 ,167 ,166 ,162 ,160 ,141 ,121 ,109 ,107 ,98ه,

ر

الرومانب, ج, و, ح, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 24, 26, 27, 28, 30, 31, 32, 33, 34, 36, 37, 38, 40, 41, 44, 45, 46, 49, 51, 53, 56, 57, 58, 59, 61, 63, 64, 68, 76, 78, 79, 81, 86, 87, 88, 89, 91, 97, 98, 102, 104, 109, 112, 114, 117, 119, 120, 123, 124, 126, 127, 135, 134, 133, 129, 136, 137, 143, 153, 157, 161, 165, 171, 172, 179, 181, 184, 191, 195, 197, 150, 199, 202, 203, 204, 205, 209, 213, 214, 215, 216, 220, 224, 228, 230, 233, 208, 212, 214, 215, 220, 273

رومانوس ---------- 191, 192, 193

روميلوس ---------- 51, 87, 89

ريغولوس ---------- 27, 34

ريموس ---------- 51

ماسكزال ---------- 181, 197
ماسينيساد, ز, ك, 31, 35, 37, 38, 39, 44, 45, 76, 82, 104, 115, 133, 212, 218, 270
ماكسميانوس ---------- 98, 109
ماكسيميانوس ---------- 187
ماكسيمينوس ثراكس ---------- 99
مالخوس ---------- 25
مانليوس ---------- 27
مستنبعل ---------- 38, 39
مستنبعل ---------- 133
مكاريوس ---------- 187
مكوسن ---------- 37, 39, 40
مكيبسا ---------- 133
موريسيوس ---------- 224
مومسن ---------- 67
مونتسكيو ---------- 56, 64, 68, 69, 72, 73, 92, 142, 220
ميتيلوس ---------- 73

ن

نرهفاس ---------- 29
نوما ---------- 89, 163
نيرون ---------- 66, 72, 103, 121, 153, 158

ه

هادريانوس ---------- 19, 54, 59, 130, 147, 155
هاميلكار ---------- 29
هستنخ ---------- 203
هلدريك ---------- 214, 215, 223
هوميروس ---------- 21, 152
هونريك ---------- 156, 201, 207, 213, 214, 215
هونوريوس ---------- 176
هونيروس اركاديوس ---------- 177
هيراكليانوس ---------- 173
هيمبصال ---------- 40
فسبسيانوس ---------- 54, 56
فلاكسيبا ---------- 174
فيتليوس ---------- 103
فيرجيليوس ---------- 96
فيرموس, 83, 169, 121, 172, 174, 175, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 194, 195, 196, 197, 211, 273

ق

القرطاجيون ---------- 29
القوطيون ---------- 123, 203
قسطنطينوس, 99, 107, 108, 109, 141, 159, 161, 162, 163, 164, 165, 168, 183
قنفان ---------- 215

ك

كاسيليانوس ---------- 168
كاسيوس ---------- 72, 94, 106
كاليقولا ---------- 46, 48
كراكالا ---------- 122
كركلا ---------- 73
كريسبوس ---------- 160
كلاتتس ---------- 92
كلوديانوس ---------- 175, 181
كلوديوس ---------- 48, 54, 83, 95
كومودوس ---------- 19, 72, 87
كويستور ---------- 103
كيوس غراكوس ---------- 128

ل

بعل آمون ---------- 146
لوسيوس ---------- 19, 89

م

ماتوس ---------- 28
ماركوس إريليوس ---------- 19
ماركوس انطونيوس ---------- 102

ي

يوبا الأول----------44
41
يوسابيوس القيصري ---------- 162
يوغرطة.. ب 37, 38, 40, 44, 56, 73, 116, 119, 132, 133,
192, 195, 206
يوليوس قيصر -------41, 44, 49, 53, 87, 94, 95, 96, 153, 154

فهرس الأماكن

فهرس الأماكن

ا

ازوان 67

أمايدارا 57

أوتيكا 21, 22, 36, 64

أولاد ميمون 210

إفريقيا...ب, د, ه, و, ح, ط, ك, 16, 17, 18, 22, 23, 24, 25, 26, 30, 31, 34, 37, 38, 39, 41, 42, 44, 45, 48, 54, 56, 59, 66, 69, 71, 73, 75, 76, 77, 80, 85, 86, 100, 103, 104, 105, 107, 109, 110, 65, 112, 113, 114, 115, 116, 119, 120, 121, 123, 126, 127, 128,135, 133, 131, 130, 129, 136, 137, 139, 91, 141, 142, 143, 146, 147, 148, 149, 151, 153, 156, 161, 166, 167, 168, 169, 171, 172, 175, 178, 185, 186, 187, 188, 189, 191, 193, 150, 199, 201, 203, 204, 205, 207, 208, 210, 212, 213, 214, 215, 218, 221, 222, 223, 224, 225, 226, 228, 229, 230, 232, 234, 208, 210, 213, 216, 217, 218, 219, 270, 272, 273

افريقية..... 152, 155

ايجيجلي 46

ايطاليا..... 17

ب

بـاجة 38

بجاية..... 46, 66, 118, 197

بريطانيا 59, 74, 100, 122

ت

تامنتفوست..... 80

تبسة..... 56, 59, 82, 120, 129, 137, 167, 221

تكيلات..... 46

تلابت 82

تنس 46, 67, 196

توبوسويتو 46

تونس.... 16, 17, 18, 21, 23, 29, 38, 75, 81, 108, 133, 148, 152, 217, 219, 210, 215, 219

تيارت 115

تيفست..... 82

تيكلات 67, 80

تينجيس..... 75, 82

ج

الجزائر ...ط, 17, 18, 20, 22, 23, 24, 25, 29, 30, 38, 39, 44, 45, 65, 71, 78, 81, 96, 112, 113, 114, 115, 117, 119, 125, 129, 132, 133, 134, 136, 143, 146, 152, 156, 157, 162, 171, 184, 188, 193, 196, 197, 199, 215, 207, 208, 209, 210, 211, 212, 213, 214, 215, 216,217 218, 219

جزر الكاسيتيرد..... 20

جزيرة الاطلنطيس..... 22

جنوى..... 20

جيجل 46, 197

ح

حمام ريغة..... 46, 80

حيدرة..... 56, 57, 59, 128, 129

د

داسيا 19

دانوب..... 88

دلماسيا..... 59

دوقـة..... 38

ر

روسيكاد 44

روما ,105 18, 27, 29, 34, 38, 44, 51, 54, 55, 76, 89, 94, 99, 128, 142, 168, 169, 188

رومانيا..... 19, 71, 190

رومانية..... أ, ب, ج, د, ه, ز, ح, 16, 18, 19, 22, 23, 24, 25, 31, 32, 36, 38, 39, 41, 44, 45, 48, 49, 52, 53, 54, 56, 58, 59, 60, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 82, 85, 86, 88, 89, 90, 91, 97, 101, 102, 103, 104, 105, 106, 107, 121,65 118, 114, 113, 112, , 122, 124, 125, 126, 127, 128, 129, 130, 135, 137, 138, 139, 140, 91, 141, 142, 146, 151, 153, 156, 159, 161,

طنجة 48, 75, 82, 208, 210

ع

عرائش 22

عنابة 67, 128, 152, 173, 207

غ

غالة 32, 33, 41, 74, 168, 183, 204, 205

ف

فريانة 82

فلورنسا 20

ق

القل 44

قابس 81

قادس 21, 22

قرطاجةد, 16, 18, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 31, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 49, 57, 60, 75, 78, 81, 85, 104, 108, 112, 114, 115, 117, 119, 120, 123, 129, 131, 133, 134, 141, 143, 147, 148, 149, 151, 152, 157, 159, 166, 172, 173, 183, 201, 204, 207,224, 209, 220, 228, 270

قفصة 82

قيصرية شرشال 48

ك

كاستليوم تانجتانيوم 82

كورسيكا 35, 59

كولومناطة 115

كيرتا 44

ل

لبتيس 75

لبدة 75

ليبيا ..... ب, 75, 81, 132, 134, 164, 166, 168, 169, 171, 172, 173, 174, 175, 176, 182, 183, 184, 185, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 196, 199, 203, 204, 209, 210, 221, 224, 225, 228, 230, 231, 232, 233, 208, 209, 210, 211, 212, 213, 214, 219, 220, 270, 272

ز

زوكشابار 46

س

ساغنتوم 30

سردينيا 23, 28, 29, 213, 220

سطيف 82, 146, 195, 196

سكيكدة 44

سلا 82

سوق أهراس 119, 127, 146

سيتيفيس 78, 82

سيكا 28

سيكمبريا 59

ش

الشلف 53, 80, 82, 191, 197, 210, 218

شبه جزيرة أيبيريا 20

شط الفجاج 81

شولو 44

ص

صاغنتة 30, 31

صبراتة 75

صقلية ..... د, 18, 23, 24, 25, 27, 28, 30, 35, 41, 126, 135, 219, 223

صلداي 46, 66, 82

صين 19

ط

طرابلس 75, 81, 108, 176, 217, 219

ليكسوس 22

م

مجانة 82
مشتى العربي 115
مليانة..... 38, 46, 80, 197
موريطانيا..... 44, 215
موريطانيا الطنجية 48
موريطانيا القيصرية 48, 80, 108, 119, 189, 196
ميلانو 161, 176, 181, 182
ميلـة..... 44

ن

نابولي 20, 24, 223
نوميديا.....ب, 17, 29, 31, 37, 39, 41, 44, 45, 46, 49, 56, 65,
104, 108, 114, 119, 125, 130, 131, 133, 137, 140,
152, 168, 187, 188, 207, 217, 219, 225, 228, 207,
210, 211, 212, 215, 217, 270

ه

هيسبانيا ,44, 41, 37, 33, 30, 23, 16,209, 205, 199, 178, 167
105, 133, 134, 135

و

واد الشلف..... 80
وليلي 48

ي

يول 79

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

شكر واهداء.....	1
قائمة المختصرات.....	2
مقدمة.....	14-5
الفصل الأول التوسع الروماني في إفريقيا الشمالية إلى معركة تابسوس	47-16
1-التوسع الروماني في حوض البحر المتوسط.....	18
2-الغزو الروماني لإفريقيا.....	22
أ-الحروب البونيقية ودورها في تعجيل السيطرة الرومانية على إفريقيا.....	23
-الحرب البونيقية الأولى (264-241 ق.م).....	26
-الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م).....	29
-الحرب البونيقية الثالثة (149-146 ق.م).....	34
ب-سقوط قرطاجة وبداية الاحتلال الروماني.....	36
3-مملكة نوميديا بعد وفاة ماسينيسا.....	39
4-الحرب الأهلية الرومانية ونهاية الممالك المحلية.....	40
الفصل الثاني تدهور الجيش الروماني وتراجع الليمس	84-49
1-الجيش الروماني.....	51
أ-فرق أو وحدات الجيش.....	52

ب–أسلحة الجيش الروماني وعدته	61
ج–مهام الجيش الروماني.....	64
2–تراجع فعالية الجيش الروماني وأثره في تدهور أوضاع الإمبراطورية.....	67
3–الليمس خط دفاعي روماني.....	74
4–تدهور الأوضاع وتراجع الليمس.....	81
الفصل الثالث انحلال السلطة السياسية والإدارية وفشل الإصلاحات	86–110
1–الأنظمة السياسية المتداولة على حكم روما: بوادر الضعف والانحلال.....	86
أ–روما تحت حكم الملوك.....	88
ب–استقرار النظام الجمهوري بروما.....	92
ج–النظام الإمبراطوري.....	95
2–انحلال السلطة السياسية والإدارية.....	99
3–الإصلاحات وفشلها.....	105
الفصل الرابع الأزمة الاقتصادية والاجتماعية	112–140
1–مظاهر وتبعات الأزمة الاقتصادية.....	113
أ–وضع الاقتصاد في فترة الممالك الإفريقية.....	113

ب–الوضعية الاقتصادية خلال الفترة الرومانية.....	118
2–البنية الاجتماعية وتأثيرات الاستعمار الروماني.....	130
أ–البنية الاجتماعية لسكان إفريقيا قبل الاحتلال الروماني.....	130
ب–التغيرات الطارئة على المجتمع الإفريقي في كنف السيطرة الرومانية.....	134
الفصل الخامس الأزمة الدينية والعقائدية (أزمة الكنيسة المسيحية)	142–170
1–المعتقدات الدينية لدى سكان شمال إفريقيا قبل ظهور المسيحية.....	143
2–انتشار المسيحية بإفريقيا.....	149
3–موقف السلطة الرومانية من انتشار المسيحية بإفريقيا.....	157
4–توظيف روما للمسيحية وموقف الأهالي من ذلك.....	162
أ–اعتناق روما للمسيحية ومحولات التوفيق بين السلطة الزمنية والسلطة السياسية.....	164
ب–الانشقاق الكنسي واضطهاد السلطة للدوناتية.....	167
الفصل السادس ثورات الأفارقة	172–198
1–ثورات ذات أبعاد وطنية: ثورة جيلدون (Gildon).....	174
أ–ظروف وأسباب حرب جيلدون.....	177
ب–مجريات الثورة ونهايتها.....	179
2–المقاومات ذات الخلفية الدينية.....	184
أ–الحركة الدوناتية.....	184

ب–حركة الدوارين (Circumcelliones).....	186
ج –ثورة فيرموس(Firmus).....	189
1–دوافع فيرموس لشق عصا الطاعة على روما.....	191
2–المجال الجغرافي لثورة فيرموس.....	196
الفصل السابع استيلاء الوندال على إفريقيا وتراجع الرومان	200–228
1–التعريف بالوندال.....	200
2–ظروف الغزو والاستيلاء على إفريقيا.....	204
3–رد فعل السكان الأصليين من الغزو.....	214
4–مناطق النفوذ الوندالي بإفريقيا.....	219
5–زوال الاحتلال الوندالي في إفريقيا وحلول البيزنطيين بدلهم.....	222
الخاتمة.....	230
المصادر والبيلبيوغرافيا.....	238
فهرس الأعلام.....	263
فهرس الأماكن.....	268
فهرس الموضوعات.....	272